



يارسوك الله

د. ابراهيم على أبو الخشب

درية

Bibliotheca Alexandrina
0135481



يَا سَيِّدَنَا

تأليف: د. إبراهيم علي أبو الخشب

الطبعة الثانية



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٩١

دريه محتمه علي

البيير جورجى

تصميم الغلاف

الاخراج الفنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم
ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ،
وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم •

(صدق الله العظيم)

مقدمة

كانت الأمانى الحلوة التى تدور بذهنى ، فى كل مناسبة دينية .
تهن وجدانى ، وتثير مشاعرى ، أن يكون لى حديث تسجله الاذاعة ،
أو تنشره الصحف والمجلات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أصور فيه اعجابى به . وحبى له ، وأملى فيه ، ورجائى منه ، وطالما تحقق
لى الكثير من هذا كله فكتبت وأذعت وتحدثت ، وجرى ذلك كله
بكيانى جريان الدم فى العروق . الا أنى أيقنت أن هذه كلها قد لا يذكرها
الناس الا فى حينها . وفى الوقت الذى ينتهى الى أسماعهم حديثها ، ثم
يكون نصيبها منهم بعد ذلك التغافل والنسيان ، وذلك ما لا يليق بإنسان
أرسله ربه رحمة للناس . وجعله امام الصديقين والشهداء والصالحين ،
وأنقذ به البشرية من الضلالة والحيرة ، والجهالة والشك ، والعمى والشرك ،
فصارت تنعم بنور الهداية ، وتحيا بالعلم ، وتسعد بالخير ، وتأنس
بالحب ، لا يستذلها أحد . ولا يستعبدها انسان . ولا يصح أن يكون
جهدى من الاعتراف بفضله ، أو التسجيل لأياديه رهنا بهذا النطاق
المحدود ، وانما يكون كتابا يحرض المؤمن على اقتنائه ، ويعمل على صونه ،
ويضن به من أن يضيع فى زحمة الأفكار ، أو فى خضم الاهمال والنسيان ،
والكتاب كان - ولا يزال - دخر الأديب ، وتحفة العالم ، ورأس مال
العاقل ونزهة المهووم ومفزع الحائر ، ودنيا أولئك الذين لا يحيون فى
دنيا الناس .

الا أنني حينما ابتدأت هذا العزم المصمم على إبراز تلك الفكسرة الى حيز الوجود لم يتيسر لي أن أرتبط بها حتى النهاية لتكون صورة واحدة لانفعال وجداني واحد ، تتناسب فيه المشاعر ، وتتشابه الملامح . وتتعانق الألفاظ بالمعاني . فتجيء كما تجيء الحسناء وخيالها في المرأة . عند من يحسنون الظن بي ، ولكنني ارتبطت بالكتابة وانقطعت لها في فترتين مختلفتين تمام الاختلاف . قد قطعت ما بينهما شواغل ، وحالت ملابسات ، جعلت الكتابة كأنها لرجلين اثنين كل منهما له خصائصه التي تميزه في أدبه وذوقه ، ووعيه وإدراكه ، فمن أول الكتاب حتى عنوان « في المدينة » كانت الفترة الأولى ، ثم من بعد ذلك الى نهاية الكتاب كانت الفترة الثانية وسيرى القارئ أن الطابع الذي تنفرد به الأولى القصة وخيال الشاعر ، وتصوير الرسام ، وأسلوب الأديب ، وأما الثانية فإنها جاءت على نهج المؤرخ الذي يعنى بالأحداث ، ويهتم بالأعاصير ، ويجرى وراء عجلة الزمن ، متتبعا لآثارها وما تخلفه وراءها ، معلقا عليها أو غير معلق وحينما انتهيت من الكتابة وعاودت النظر إليها هممت أن أهمل شأن الكتاب لأبندته من جديد على نسق واحد لا تختلف أشكاله ومرائيه ، غير أنني خفت - في زحمة المشاغل - ألا يساعدني الوقت على الكتابة على اللون الذي أريده فيترتب على ذلك الوقوف الجامد . والأعضاء التام - وشيء خير من لا شيء - فقلت ماذا يضير القارئ أن يجد هذين اللونين . ويمتغ خاطرهما بهاتين الصورتين . وكلتاها مما يطلبه الوجدان ، وينشده العقل . وأدع للناقد بعد ذلك كله حكمه الذي يصدره . والله أرجو أن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه مقبولا عنده ، مشكورا لديه . انه هو حسبي وكفى .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع اجلنا له . واعتزازنا به - لا يفية حقه من الحديث . ولا نصيبه اللائق به من التنويه ، ولا حظه من الاعلان عن مواهبه التي كانت له في بيانه ولسانه . وحكمته وحنكته ، ولباقته وذوقه ، وكياسته وسياسته . وحنقه وبعد نظره ، وحسن تدييره ، وحلمه وعلمه ، وعفوم وتسامحه ، وصفحه واغضائه ، وذكائه وفطنته ، وطهارة قلبه ، ونقاء ضميره ، وسلامة سلوكه ، وسمو روحه . وعلو مكانته ، وحده على الضعفاء ، واحسانه الى البائسين ، وصلته لرحمه وذويه ، وعطفه على قومه وحرصه على أن تستقيم أمته على الجادة ، وتسلك السبيل السوي ، وزهده في الدنيا ، وترفعه عن حطامها الفاني ، وعرضها الزائل ، وزهرتها الذابلة ، ودفعه السيئة بالتي هي أحسن ، وعدم تعاليه على أصحابه الذين كانوا من حوله . أو الجوانب الخصبة التي كانت فيه من البر والمعروف ، والتواضع والأدب ، والحياء والعفة ، والرأى والعقل ، والوعى والنكر ، والعبقرية التي خصه الله بها دون غيره من الأنبياء والرسل ، مجلدات ضخمة ، ولابيان رائع ، وفصاحة نادرة ، وبلاغة جبارة ، وذلك لأن الذي اختاره رسولا على رأس هؤلاء الذين سبقوه بالهداية من الأنبياء والرسل . لم يشأ الا أن يجعله خلاصة الخلاصات ، وزحيق العصارات ، وسيد أهل الأرض والسموات ، والبقية الباقية من الطيبات الصالحات . واذا كان القرآن الكريم وهو معجزته القائمة الى يوم

الدين سيظل هكذا منارة للطريق ، وانقادا للغريق ، وارشادا للضال ، وهاديا للحائر ، ومقوما للمعوج ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم هو هذا الكتاب الثاني ، بعد ذلك الكتاب الأول الذي تتدارسه الأجيال بعد الأجيال ، وتنتفع به الشعوب ، وتستفيد منه البشرية ، على مدى الحياصة دون أن ينضب له معين ، أو يجف له ماء ، أو ينتهي له عطاء ، وذلك لأن خالقه قد أراد أن يجعله المعجزة الأخرى وقد كان فيما بين العرب المثال الكامل للانسانية ، وما أنكر عليه هذا عدو ولا حاقد . وقد كتب عنه آلاف العلماء ، وأساطين الأدباء ، وسيكتب عنه ان شاء الله الأبناء والأحفاد . وسيظل هو مع هذا كله القمة الشامخة التي لا يستطيع الصعود اليها أحد ، والغريب في حياته التي صنعها الله على عينه . تلك الشدائد التي كان يلاقيها ، والمحن التي كانت تتوالى عليه ، والخطوب التي كانت ملازمة له ، ومع ذلك لم ترده عن غايته ، أو تعوق سيره ، أو تصده بحال من الأحوال عن قصده ، ونحن نعلم أنه ارتضع أفاويقها منذ فتح عينيه على هذا الوجود ، اذ رأى نفسه يتيما فقيرا ، قد فقد العائل الذي يرعاه ، والمال الذي ينفق منه ، ثم ظل تحت رحمة من يكفله من أهله وذوى قرابته ، حتى اذا بلغ سن الشيباب كان يبحث عن يستأجره في رعي الغنم أو التجارة رجاء أن يحصل على لقمة العيش التي لا بد منها لتقييم صلبه ، وتدفع عنه غائلة الجوع . ويلقى عليه جل جلاله عبء الرسالة وهو مجرد عن الأعوان والأصدقاء أو الأهل الذين يقفون بجانبه ، ويدافعون عنه ، أو يساعدونه على تحمل المشاق ، ودفع تلك الشدائد ، وهنالك يطمع فيه كل طامع ، ويتناول عليه كل متناول ، ويكذبه كل جاهل ، ولا يجد ما يسرى عنه ذلك كله الا أن يتجه الى الله ليقول له « اللهم ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي . . . ويقاوم كفار مكة والمنافقين من حوله ، وهو لا يتجاوز مرحلة الا أخذ يواجه أختها أو عمته وخالتها ، وهكذا دواليك ، ونحن لا ننكر أن حياة المصلحين وأرباب المبادئ كذلك كانت ، ولكنها حينما تكون ممن يتوسعون فيهم الحذب ، ويرجون منهم النصر ، أو ينتظرون منهم المساعدة ، ثم يخيب الظن فيهم ، تكون الطامة الكبرى ، والألم الشديد ، وتحطيم القوى ، ولقد كان أول من ابتدأه بذلك كله عمه أبو لهب وهو يقول له تبت يدك ألهذا جمعتنا ، فماذا كان يخبئه له القدر بعد هذا الخذلان الا أن يقول عنه القائلون ساحر أو شاعر وأساطير الأولين اكتتبها أو مجنون ، بعض آلهتنا اعتراه ولا تزال تلك المشادة والصد والاعراض يواجهها في الصبح وفي المساء ممن يعرف ومن لا يعرف حتى حملوه رغم أنفه على أن يترك بلده وأهله وبيته فرارا بحياته التي لم تكن له ، ولما علموا أنه قد قر قراره في منفاه لاحقوه بالكيد ، ودبروا له عوامل الايذاء ، وجهزوا له الجيوش التي تحاربه ، عسى أن يسكتوا صوته ، أو يضمنوا

موته ، وكان المأمول أن يجد في بيته الاستقرار الا أنه كان مليئا بالمتاعب في داخله وفي خارجه ، وحسبك ما كان لحديث الافك ، وقصة « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » ولم يكن له من مصادر الرزق ، وأسباب الثروة ، ما يجعله في بذخ الملوك ، ولا سعة أرباب السطان ، لكن نساءه أبين الا أن يجعلهن في مستوى نساء قيصر وكسرى ، ولم يكن كل هذا هيئا عليه ، ولا خفيفا لديه ، وقد رزقه الله من جاريته مارية القبطية بولده إبراهيم ففرح به فرحا شديدا ، وكان لهذا يمر كل يوم ببيت مارية – البعيد عنهن – ليرى ولده وقرّة عينه ، لكن ذلك لم يكن على هواهن ، فاهتاجت حفاظهن ، وكان يقول لعائشة وهي أقربهن الى قلبه ألا ترين ما بينه وبينى من شبه ، فتقول له ليس فيه منك شيء يا رسول الله ، وكذلك كان هذا الطفل الذي ابتهج النبي بمقدمة مئذنة حقه من ، وابتعاد المشاكلة منهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى درجة أن حصلت منه صلى الله عليه وسلم جفوة لهن ، وانقطع عنهن شهرا كاملا ، وظن الناس أنه طلقهن ، وكان ذلك يشبه الماتم عند المسلمين ، لولا عمر رضى الله عنه وقد جاءه ليعرف جليلة الأمر ، فأخبره صلى الله عليه وسلم أن ذلك لم يكن فخرج عمر الى الناس وأخبرهم بذلك ففرحوا فرحا شديدا ، ونزل حينئذ قوله تعالى « ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء الآية » ٠٠ وعلى كل حال فان نساءه صلى الله عليه وسلم لم يكن من الملائكة المقربين ، وانسا هن بشر يجوز عليهن ما يجوز على الناس من الحقد أو الغضب والغيرة ، وما من واحدة منهن الا كانت تود أن يكون رسول الله لها وحدها دون أن يشاركها فيه أحد ، تملأ هي قلبه ، وتشغل باله ، وتستأثر بحبه . وقد كانت عائشة مع علمها بمكانتها عنده لا تود أن يجرى على لسانه ذكر خديجة التي فارقت الدنيا ، وصارت من غير شك لا تزاوحها عليه ، ولا تشاركها فيه ، وخلاصة القول أن حياته كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من المتاعب والمعاناة ، ولا بد للدارس لسيرته صلى الله عليه وسلم من أن يقف أمام ذلك موقف التأمل ليرى ان كان مثل ذلك قد تحمله الأبطال في تاريخ هذه الانسانية أم ان ذلك كان له وحده ليكون أهلا للسيادة والريادة ، وسيدا لأنبياء الله ورسوله ، وصاحب هذا الصوت المدوي في ضمائر الناس وأفئدتهم ، واذا كان الشاعر يقول « وبحسن السبك قلنا ينفي الدغل » فان تلك المحن ، وهذه الشدائد ، قد صهرته صلى الله عليه وسلم ، وجعلته أقوى احتمالا ، وأكثر جلدًا ، وأشد ثباتًا ، وأبعد عن الفضول ، وأبغض للتوافه من الأمور ، والرخص من الخلال أو الأعمال ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يقول فيه قائل ليته كان ، أو ليته لم يكن ، وقد كان الأجدد به كذا ، أو لم يكن من الجدير به كذا ، وهو الذي سواه ربه من الكمال ، وجملة بحسن الخصال ، وصوره من

الابداع ، وأزره بالالهام ، ووهبه السداد فى الراى ، والقوة فى العقل ،
والحنكة فى التدبير . والسلامة فى الخطا ، ليكون هو هذا الضياء الذى
يكشف لنا المعالم ، ويضىء لنا السبل ، حتى لا ينحدر الناس ، أو تغيب
عنه حكومة القسطاس ، وكان بذلك صلى الله عليه وسلم أستاذ الأساتذة ،
وفيلسوف الدنيا ، والقرآن الثانى لهذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل ،
ولا يجحده العاقل ، وهذا هو الذى يحملنا على القول بأن مجال الكتابة فيه
سيظل متسعا لمن يريد أن يحظى بهذا الشرف ، وكلنا لا يأبى أن يكون
هو هذا الرجل .

المؤلف

يا رسول الله

ما تفقدت الانسانية خلقا كريما ، ولا ديننا عظيما ، ولا سلوكا نبيلًا ، ولا خلة من خلال البر ، أو خصلة من خصال الخير ، ولا شيئًا وراء ذلك كله من مكارم العادات ، وجميل الصفات ، إلا كان نفحة من أدبك ، ولمحة من خيمك ، وومضة من هديك ، وأشعاعًا من نورك ، وخطوة من سننك ، وسطرًا من تاريخك ، أو قبسا كنت ترسله في الليالي الحالدة ، والمعالم المشتبهة ، والسبل الملتوية ، والساعات الدالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الملحة . . . وسيظل تاريخك خالدا خلود الأبد ، باقيا بقاء الدهر ، مضيئا أكثر من الصبح ، مدويا دوى الأذان ، يتحدى الفناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الزمن ، ويحارب الطغيان . ويخضع صعر الملوك ، ويسخر من الجبابرة ، ويهز بنيان الظالمين ، ويقضي على الفساد ، ويعلم المساواة ، وينادي بالعدالة ، ويشيع المحبة . ويأمر بالمعروف ، ويقلم أظافر الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين في الأرض بغير الحق ، لا لأنك رسول رب الأرباب ، وملك الملوك ، وقيوم السماوات والأرض ، وأنت تحتمى ببطشه ، وتعتز بسلطانه ، وتنتصر بآسه ، وتقاتل بسيفه ، وتنطق بلسانه ، وتدعو إلى سبيله ، وهو - لا محالة - يصونك من بغى المسلطين ، وعدوان الظالمين ، وعميت المفسدين ، وسفه الحمقى ، والله جل جلاله لا يتخلى عن أوليائه ، ولا يترك جنوده ، ولا يخذل أعوانه ، ولا يتغافل عن الملاحوظين بعنايته ، المشمولين برعايته ، المحقوفين برحمته ، المغمورين برضوانه ، ولكن لأنك - مع هذا كله - كنت المثل الأعلى الذي ترتقى إليه البشرية عند نموها ، وتتطلع إليه حين تقدمها ، وتحاول أن تحتذى سلوكه كلما ثاب إليها الرشد ، أو عاودها الصواب . وتيقظ فيها

العقل ، وتحركت لديها أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها الله السداد والتوفيق . .

والحديث فيك - يا رسول الله - حبيب الى النفس ، خفيف على القلب ، لذيد رجعه على السمع كأنه موسيقى أطيّار الجنة ، أو نغم من بلابل الخلود ، ترتاح له الأفئدة المكدودة ، والجوانح الملتاعة ، والأكباد الملتهبة ، والأرواح المتشوفة ، وتجد لصداه من الحنين والشوق ، والميل والاصفاء والطرب والنشوة ، والاذعان والقبول ، ما لا تجده لغيره من أحاديث ، ولا لسواه من أقوال ، ولو كانت تحكى صباية العشاق ، ولوعة المحبين ، لأن جرسه شدو ، وألفاظه نغم ، وحروفه ايقاع ، ومعانيه آمال صادقة ، وأحلام لذيدة . وخيال يحلق بالمؤمن فى سماء الخلود . . ينشده الأديب فيجد فيه الحكمة البالغة . والفصاحة النادرة ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى . والتصوير الدقيق . والألفاظ النحوة . والمنطق السليم . والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والشعور الصحيح . والنمط الذى لا يصل اليه الا الأنداز من أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة الحديث ، وأساتذة الأدب ، ويتصفحه المصلح الاجتماعى فلا يعثر فيه الا على دستور قويم ، وتهذيب واضح ، وتقويم سليم ، وتوجيه سديد ، وفانون لا غبار عليه . . وهكدا كل جوانبك - صلى الله عليه وسلم - لا يجد فيها أحد ثغرة ينفذ منها ، ولا خلا يعيبك به . ولا نقصا يحسبه عليك ، وانما هى شامخة كالجبل ، طاهرة كماء السماء ، أهلة بالخصوبة ، عامرة باليقين ، غنية كل الغنى بالبر واليمن ، والصدق والحق ، والخير والمعروف ، والصواب والعدل ، والاصلاح والمنفعة . والسلامة والأمن ، والرضا والاطمئنان . . وأنا أجند فى حديثى عنك وذكرى لك ، وصلاتى عليك ، وأدبى معك ، واجلال اياك ، وأملى فيك . غذاء لروحى ، وضيياء لقلبى ، وشفاء لغيلى ، وارواء لظمئى ، وارضاء لضميرى ، واقسم بالله الذى اصطفاك . والخالق الذى اجتباك ، وبالكبير العظيم الذى أرسلك ما أحسست أن هذا خيال شاعر . ولا أوهام فيلسوف ولا أحلام نائم ، فان الخليقة لم تعرف رجالا لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس ، وحير أبواب المفكرين ، وتطلعت الدنيا الى ما فيه من خلال نبيلة ، وسجايا حلوة ، وأخلاق عالية ، ووجدان طاهر ، وشعور سام ، وأدب جم ، وسلوك حميد ، قبل أن تعرفك أنت ، وتعرف أنك طيبها وعلاجها ، وشفاءها ودواعها ومثلها العليا ، وأهدافها البعيدة . وغايتها التى تحمد عندها السرى وكانما الدراسة التى تناولتك ، والآداب التى تؤخذ عنك . والسلوك الذى ترسمه ، والمنهج الذى بينت خطوطه ، والأخلاق التى ناديت بها ، ودعوت اليها ، كانت هى الدستور الذى كانت البشرية تبحث عنه ، والانسانية ترجو أن تصل اليه ، لينتقل بها الى حالة أفضل . .

ومستقبل أكمل ، وغاية أكرم ، وسعادة أعظم ، ومجد أشمل ، وأمن أقرب ، واصلاح أعمق ، وسبيل أوضح ، وعيش أرغد ، ونفع أحسن ، وهناء أوفر ، وبهنية أضمن ، حتى لا تظلل غارقة في ابهالة ممعنة في الطيش ، واغلة في الضلال ، دائبة على الانحراف ، مبالغه في الاقتراف ، ولا سيما فيما يتصل بالعقائد التي كانوا فيها كالبحر المائج ، أو البركان الهائج ، لا هدف لهم يصح الاتجاه اليه ، ولا غاية يمكن أن ينتهوا عندها ، وهم يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ويخضعون للباطل ، ويعكفون على الأصنام • ويسجدون للوثن • ويتهافتون على النار ، ولا يدينون للحق ، أو يميلون للهداية ، أو يفتحون عيونهم على النور ، أو يوجهون أفئدتهم للصواب ، ولكنهم يحبون الخرافة ، ويعظمون البهتان ، ويهتمون الاهتمام كله بأخذ الثأر ، ومعاقرة الخمر ، وواد البنات ، واشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، والطباع المريضة ، والأهواء الحقةرة • وليس لهم - حينئذ - من المعارف ما يساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم في صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتوثية ، أو الشعوب المتطلعة ، أو الجماعات التي تدفعها شهواتها الى العمران والرقى ، والتقدم والاصلاح ، أو الجرى وراء الغايات المحمودة ••

وفي الحق لقد كان أجدر بالدهر أن يطاطء رأسه لك - يا رسول الله - اجلالا لما احتواه تاريخك ، واعجابا بما تضمنته سيرتك ، واكبارا لما كان من خلاك ، وتعظيما لما كنت عليه من خلق عظيم تجاوز حدود التقدير والاحترام ، والثناء والمديح ، ونحن لا نشك في أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادئ ، وحملة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الاصلاح ، في كل زمان ومكان ، لا يصلون الى أهدافهم ، ولا يبلغون غايتهم ، بذراية لسانهم ، وقوة حججهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة مناهجهم ، وروعة بيانهم بمقدار ما كان يساعدهم على ذلك كله سلطانهم المرهوب ، وبأسهم المسلط • وقوتهم الرادعة ، ونصرة القرابة والأولياء ، أو المال الذي يغرى بالاقبال والرغبة ، ويساعد على تمكين النفوذ والجاه ••• وأنت لم تنصرك عصبية كانت الى جانبك ، ولم يساعذك مال كان في يدك ولا نفوذ أتيج لك • سوى أن سيرتك كانت قرآنا ، وحياتك كانت برهانا ، ويقينك بالله كان إيمانا ، وثقتك بربك تجاوزت الحدود والسدود ، وقد استقبلت الانسانية حديثك الطيب ، وأدبك العالى ، وخلالك الكريمة ، وسلوكك العظيم ، استقبالها للأحداث الهامة • والأمور الغريبة ، والمنن العظمى ، والأمانى المحبوبة ، والأحلام السارة ، والمعجزات الكبرى • وآمنت - بسبب ما وجدته فيك من بر ويمين - أن لله أسراراً تخفى على الفطن ، وتدل على الأفهام ، وتتسامى على المنطق ، وتتجاوز حدود

العادات ، وتأبى أن تخضع للمألوف . وهناك لا يسع الناس الا أن يردوها
الى خالق السماوات والأرض . ومدبر هذا الكون الواسع ، والملك
القيسح . .

وفيك - يا رسول الله - تحكم الفقر ، وتمكن اليتيم ، واستبذ الجوع
والحرمان ، وقد جرت العادة مع الأطفال ، الذين تلاحقهم مثل تلك
الظروف ، وتصادفهم مثل هذه الأحوال ، أو تلعب بهم تلك الاحداث
وتهز في كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم النزوع الى المجد ،
والرغبة فى الكمال ، والتطلع الى الأهداف البعيدة ، والاعراض النسيئة ،
والغايات السامية ، الا أنه لم يقل قائل ان همتك كانت واهنه ، ولا ان
عزيمتك كانت هزيلة ، ولا ان طموحك كان ميتا ، أو ان قناتك لانت
لغامز ، أو ان نفسك ذلت لجبار ، أو ان عودك انحنى لمسلط ، أو ان
جهادك لاصلاح هذه البشرية قد وقف فى منتصف الطريق ، وحولته عن
القصدي غايات ، أو منعتة عن نهايته موانع . . . وفي سلوكك مند كنت
ناعم الاظفار ، غض الأهاب ، جديد الثياب ، صغير السن . السميت
الطيب ، والخلق القويم ، والعقل الواعى ، والبصر النافذ ، والرأى
السديد ، والدوق الناضج ، والرجولة المبررة . والعظمة التى لا يحيط
بها زيف ، ولا يكذبها تمويه ، ولا يشوبها رياء ، ولا تغلب عليها صناعة .
وكانما كان ذلك كله ينادى أن مستقبلا ملحوظا ينتظرك ، واما باسمنا
يترقبك ، ومجدا عظيما سيواتيك ، وجاها عريضا معك على ميعاد ، وأن
الارهاص الذى يسبق المعجزة يخطو اليك ايذانا بالنهاية الكريمة ،
والمصير الحميد ، والتاريخ الذى يرويه الآباء للأبناء . . . فلما بلغت مبلغ
الرجال ، وكنت تقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتنصر الحق ، وتنطق
بالصدق ، وتعين على المعروف ، وتنصف المظلوم ، وتخفف ويلات
المكروبين ، وتمتلىء نفسك الكبيرة بالمعاني النسيئة ، والعواطف السامية ،
والامانى الحلوة ، والنوايا الطيبة . والفرائز المهذبة ، والخلال الكريمة ،
والسجريا المحببة . هالهم شأنك ، وبهرهم أمرك ، وعناهم حالك ، وظنوا
أن الأيام سوف تتمخض بك - لا محالة - عن قيصر الروم ، أو كسرى
فارس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد من هؤلاء الذين كانوا يسمعون
عنهم من الأساطير والكتب ، الا أنك حين جهرت بدينك القويم ، وصراطك
المستقيم ، وبيقينك السليم . وايمانك القسوى . وعقيدتك الصحيحة ،
وكشفت بذلك كله عن الحق الواضح ، والسلوك السوى ، والعدل الصراح ،
والمنهج الذى لا تتواء فيه . ولا غبار عليه ، تضائل كبرياؤهم . وتهاوى
سلطانهم ، وسقطت تيجانهم المكذوبة ، وآمنوا أن دنياهم الرخيصة
لا تساوى قلامة ظفر . ولا تزن عند الله سبحانه وتعالى - الى جانب

ما منحك - جناح بعوضة ، وكأنما هي غبار يتطاير ، أو سراب يذهب ،
أو وهم يخدع ، أو معنى لا ينطلي الا على الأعرار . .

والعجيب الغريب أن تكون - أنت - مع هذه المكانة التي كنت عليها ،
والعظمة التي بوأك الله إياها ، والمجد الذي حصلت عليه ، والجاه الذي
انتهيت اليه ، متواضعا غاية التواضع ، حليفا الى أقصى نهايات الحلم ،
حائزا للفضائل ، جامعا نلمكرا ، تبذل وتعطي ، وتسخر وتجد ، وتنفذ
المتورط في الشدائد ، أو المشرف على المهالك ، وربما نسيت اساءة المسيء ،
وهفوة المخطيء ، وجناية الضال ، وبادرة الأحمق فقايلت الشر بالخير ،
والأذى بالصفح ، والذنب بالعمو واللؤم بالكرم ، والتطاول بالاغضاء ،
والطيش بالحلم ، وكم ناديت في كل مناسبة ، وأعلنت في كل صقع .
انك بشر تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، وأنت من طينة هذا الخلق ،
ومن جنس أولئك الآدميين . وقلت « انكم لا تسعون الناس بأرزاقكم
وأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » لتعطيهم الأمثال منك ، والقعدة بك ،
وحاشا لخلقك ألا يكون الا كذلك ، وما عاب أحد لك صنيعا ، أو ازدري
لك سلوكا ، أو انتقد منك خلة ، وأنت المثال الطيب ، والنموذج الكريم ،
والقعدة الصالحة ، والأستاذ المربي والرسول العظيم ، لم تكن جبارا في
الأرض ، ولا عونا على الباطل ، ولا داعيا الى الزور ، ولا قاسيا على الخلق ،
وانما كانت دعوتك بالحسنى ، وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ،
وعلاجك بالحكمة ، ونصحك باللين ، وتوجيهك بالمنطق ، وسياستك
بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك
للحق ، وانحيازك الى جانب الفضيلة ، وجهادك للأصلاح ، وحياتك للخير ،
وهدفك أن تعلق كلمة الله .

وهكذا تكون العظمة التي لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو يفترضها
أهلها بسطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون ، وسيادة القوة
وسيطرة التسلط ، وعنق النفوذ ، صلى الله عليك وسلم كلما جرى ذكرك
على اللسان ، أو خطر طيفك على خاطر ، أو مر خيالك على ذهن ، أو
ترسم انسان خطاك ، وتلمس مسلم هدايتك . وتتبع نهجك ، فانك سيد
ولد آدم ، وخير خلق الله على الاطلاق ، ولا ينكر عليك ذلك كله جاحد
ولا يشك فيه عاقل ، ولا يتردد في الايمان به حصيف ، ولا يمارى فيه
مكابى . وهذه الدنيا تردد الثناء عليك ، والاعتراف بك . والتعظيم لقدرك .
والتنويه بشأنك ، مرددة قوله جل جلاله « وانك لعلي خلق عظيم » .

محمدا

الذى يتتبع القرآن الكريم ، ويتقصى آياته العظمى ، وينعم النظر فيه ينتهى منه الى رصيد ضخم ، وثروة لاحد لها . من الثناء الحلو ، والمديح الطيب ، والتنويه الذى ليس قبله ولا بعده يرسل رسول هذه الانسانية ، وسيد هذا الكون ، حتى لكأنه بلغ قمة الثناء ، وغاية المديح ، ولا مجال وراء ذلك لزيادة فى الثناء والمديح ، وصارت هذه الكلمة وحدها مجردة عما يقتزن بها ، أو يذكر معها ، أو يجيء فى اثرها من الأوصاف والنعوت تشبيح فى الجو الذى تحلق فوقه . وتطير فى سمائه ، أو تسبح فى فضائه معنى من السحر . وفيضا من الجلال ، وشيئا من الاكبار والاحترام . لا يمكن لكائن من الناس أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته . فى تلك الموسيقى التى يرسلها ، والأنغام الحلوة التى يعيها . والبلاغة الأخاذة التى يطلقها . والجاه العريض الذى يسيطر على الأنحاء والجوانب هنالك فى مكان الحديث . كأنما هو عنوان الجاه والعظمة ، والكبرياء والتعالى . والسمو والرفعة ، والأبهة والجلال ، لا يزاحمه فيه مسلط ، ولا ينازعه جبار ، ولا يشاركه صاحب نفوذ أو سلطان ، ذلك لأن الذى خلق المتكبرين ، وبرأ الجبارين ، أضفى عليه من جلاله ووقاره ما تذوب معه هذه الأوصاف . وتتهاوى عنده تلك النعوت . وتتطامن لديه هذه الكبرياء ، ثم تقصر عن الاحاطة بكماله الكلمات ، وتقف موقف العجز عن التنويه به الألفاظ ، مهما آزرتها البلاغة ، وأيدها المنطق ، أو أسعفها البيان ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى ، أو ضمير المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارئ فى ثنايا سطور ، أو فى صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه تأخذه المهابة من جميع جهاته . وتصيب جسمه القشعريرة التى تصيبه فى حضرة عظيم

من العظماء الذين تفيض من حولهم الخشبية ، وتغمر أمكنتهم العظمة ،
وتملأ ساحتهم المهابة ، وتترفرف عليهم أجنحة الوقار والاحترام ، من غير
تكلف ولا رياء ، وانما هي صنع الله ، الذي خلق السماوات والأرض وجعل
الظلمات والنور ، ومن حبه عناية الله ، وأدركته رحمته ، وحفه لطفه ،
وشمله رضاه ، كان حظه موفورا ٠٠٠ وفي تاريخه صلى الله عليه وسلم
ما يدل على أن تيجان الملوك ٠ وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت
الدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيامهم ، والسلطان في حوزتهم ، تتساقط
بين يديه ، فلا يجرؤ قوى أن يهدده ، ولا يتطاول عظيم أن ينازله ، ولا يمكن
لشبرير مهما كانت شراسته أن يهز كيانه ، أو يزلزل بنيانه ، أو يشوب
يقينه الذي كان عامرا بربه ، مملوءا بخالقه ، والذي أرسله بالبينات ،
وأيده بالمعجزات ، جعله هو في نفسه خير عنوان لهذه الانسانية في أخلاقه
الكريمة ، وأدبه الجم ٠ وسلوكه القويم ، وخلاله الطيبة ، وذكائه اللماح ،
وعبقريته الفذة ٠ وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم ، وعطفه الشامل ٠ وحبه
الخالص ، ورغبته في البر ، وحبده على الناس ، وتقانيه في الاصلاح ٠
وارتباطه بربه ، وتطلعه الى السماء ٠

وهكذا لم تبلغ لفظه من الفاظ الأعلام ٠ ولا اسم دل على معنى ،
ولا كلمة من الكلمات في ضخامة جرسها ، ودوى صوتها ، وحلاوة
لحنها ، وتباهاة شأنها ، وشهرة ذيووعها ، وإيمان الخليفة بها بعد لفظ
الجلالة ، ما بلغت تلك الكلمة التي يتيمن بها المسلم ، ويعتز بها الموحد ،
ويفاخر بها الانسان ، ويشرف بالانتساب اليها كل من تكامل له عقله ،
ونضج فيه وعيه ٠ وصح عنده دينه ، وارتقى به ادراكه ، وسما لديه
شعوره ، وسلم له بصره وذوقه ٠٠٠ تردها السنة الملايين في بقاع
الأرض ، أو أنحاء هذا الكون ، وأرجاء هذه الدنيا ، تلتذا بذكرها ، وتيمنا
بلفظها ، وارتياحا لنغمتها ٠ وسرورا بخطورها على البال ٠ ومرورها
بالدهن ٠٠٠ ولقد عاصرت أحداث التاريخ ٠ وصيحات الدعاة ٠ ونداء
المصلحين ٠ وأصوات الزهاد ٠ فكان منها الشعاع الكاشف ، والضياء
الهادي ، والنور المبين ، والنهار الذي عرفت فيه البشرية مواضع أقدامها
في سبيل الخير ، وطريق الحق ، ودروب السداد والصواب ، والسلامة
والنجاح ، والرشاد والفلاح ، واليمن والبركة ، والحضارة والعلم ٠
والتقدم والعرفان ٠

وربما كان أعجب ما يحيط بهذه الكلمة من معاني الاجلال والتقدير ،
والعظمة والاحترام ٠ والسمو ٠ الى ما لا يصل اليه خيال الشعراء ، أن
تحاربها الأحداث فلا تنال منها ، وتنازلها الخطوب فلا تنزل بها ، وتطاردها
الأهواء فلا تزداد الا صلابة في الأرض ، وتمكيننا في الحياة ٠ وتطاولا على

الأيام ، وتعاليمها ، في الوجود ، وخلقها في التاريخ ، ودورها في الآذان ، وبقاء في فم الدهر ، ودورها على السنة الناس ، ولا يعطينا من عنوان هذه الكلمة أن نستزسل بك مع الحوادث ، أو نرجع معك الى ما عساك أن تكون قبسه خفيته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه المتحمدين والقصاص ، ولا أن تنتهي الى تاريخ أنت تعرفه حق المعرفة ، وإنما يعطينا أن نستشعر ما تعطينا تلك النفس التي لا يتسع لها هذا الفضاء المحبوس ، ولا تلك الأرض المسوطة ، ولا هذه السماء المرفوعة ، ولا ذلك الكون القسيح ، وقد حام الفلاسفة حولها بحثا ودرسا ، وتجليلا وتعليلا ، فما وصلوا الى بئس وراء كونها خلاصة هذا الخلق ، وسر هذا الوجود ، ومعنى الانسانية في هذا الانسان الذي أرسلها الله لتقويمه وتهذيبه ، وهدايته وإرشاده ، وتكريمه وإجلاله ، وتحرره من ذل الأسر ، ورق العبودية، وضراوة الاقطاع ، وكابوس الظلم ، وفوضى النظم والديساتير ، لتكون له السيادة في الأرض ، والقيادة للدنيا « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ولعل هذه الجوانب التي كانت فيه - صلى الله عليه وسلم - خارقة للعادة ، غير جارية على سنن الناس ، هي الباعث على دهش كثير من المؤلفين الذين كانوا يخلعون عليه ما يتجاوز حدود البشرية ، وهو الذي كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، معلنا أن له ما لبني آدم من مزايا وخصائص ، وليس من الانصاف له أن يخرج عن طوره ، أو يتجاوز حقيقته « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » وخير للذين يكتبون عنه أن يؤرخوا له من الحوادث ، وأن يجعلوا معينهم في ذلك سيرته مع أصحابه ، وتواضعه لقومه ، وحبه لأهله ، وحنه على الضعفاء ، وإيثاره لغيره ، وقضاه على الفساد في الأرض ، فان هذه كلها يمكن أن تكون صدى لهمته الكبيرة ، وشخصيته الضخمة ، وسيرته العظمى وضميره النقي ، ودخيلته الطاهرة ، ونحيزته النبيلة ، ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف ، والتمويه والكذب ، والرياء والنفاق ، ، ومثل هذا اللون لا غبار عليه في الدراسة والبحث لأنه يجرى على أسلوب علم النفس الانساني في تحليل السجاياء والطباع ، والميول والغرائز ، وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب العظمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم - لتأخذ منها نماذج من الخير ، وشواهد من البر ، وملامح من مكارم الأخلاق ، لا تجدها الأفكار الواعية ، والعقول الناضجة ، الا في الصفحات الناصعة من تاريخه العظيم .

ولعل الكلمة الجامعة المانعة في تحديد حقيقة هذه الكلمة بين حقائق

الكلمات ، وتمييزها عن غيرها تمييزا تنفرد به عن سواها . ما تحكيه السيدة عائشة رضی الله عنها . وقد سئلت عن أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - . فقالت كان خلقه القرآن ، ولا يشك المسلم في أن القرآن احتوى الكمال الانساني . والأدب الالهي . والخلال الحميدة . ورسم الله سبحانه تعالى به للبشرية الطريق الواضح . والمنهج الصحيح . والسلوك القويم . للسعادة الحقبة التي يمكن أن تصل اليها الانسانية في هذه الدنيا اذا أخذت به ، وعملت بما فيه . وجعلته دستوراً في صحوها ونومها ، وطمعها واقامتها ، وصحتها ومرضاها ، وكل حال تعثر بها . وهكذا كان - صلى الله عليه وسلم - المذكورة التفسيرية للقرآن . يطبق دستوراً ، ويحقق في نفسه قانونه . فلا يخرج عن هديه . ولا ينحرف عن خطوطه ، ولا يتجاوز دروبه التي جعلها المولى جل جلاله معالم للخير والشر . والفضيلة والرذيلة . وحسب محمد - صلى الله عليه وسلم - أن اسمه مأخوذ من الحمد الذي هو غاية الإنسان من سعيه ، وخاتمة مطافه في عمله ، وقصارى جهده اذا أراد أن يعلن شكره لربه ، الذي ترادفت عليه نعمه . وتوالت اليه آلاؤه ، وأحاطت به وسائل رحمته ورضوانه ، اذ لا يجد سبيلاً للاعتراف بهذا الفضل وراء قوله سبحانه « الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » وليس بعد هذا الشرف الذي وصل اليه من ربه ، والفضل الذي حصل عليه من خالقه ، الذي رفعه في المنزلة ، وايداه بالمعجزة ، واختاره دون سائر عباده . وجعله سيداً على الناس ، وأرسله رحمة للعالمين ، واصطفاه من ولد آدم عليه السلام . ليكون لسانه الصادق ، وحجته البالغة . .

نسبه الشريف

كان للأسباب عند العرب تقديرها واحترامها ، اذ كانوا لا يجعلون زمامهم في يد لصيق ، ولا يتركون قيادهم لدعى • ولا يعولون في أمورهم على متهم ، ولا يطمثون الى حكم انسان يجهلون نسبه فيهم ، أو مكانته لديهم • وكان هذا النسب عند الرجل منهم بمثابة الرصيد الذي يستعين به على الوصول الى الغاية التي يطمح اليها • أو المنزلة التي يريد الحصول عليها ، ولا يكفي لنباهة الشان ، أو تبوء المراكز أو المناصب توقد الدهن • وسرعة الخاطر ، وذلاقة اللسان ، وخصوبة البيان ، وسعة العقل • وبعد النظر ، وما يشبه ذلك مما يضفى على الأشخاص سمات العبقريه ، وأوصاف التنوع ، ما لم يكن ذلك كله مصحوبا بنسب لا ينكره أحد ، ولا يفتى له انسان ، وهذا هو السر في أن المؤرخين لسيد الخلق يحرصون الحرص كله أن يتتبعوا نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم بالتقصي والسرد رجلا رجلا حتى لا يتناول عليه سفيه • أو يجوز حده أحق • فيلحق بالنبي ذاما • أو يدس عليه عيبا ، أو يشوه في تاريخه سطرًا ، ولا يكتفى المرحوم الشيخ الخضري أن يذكر آباءه - صلى الله عليه وسلم - دون أن يذكر الأمهات اللائي قد انحدر منهن هذا النسب فيقول « هو محمد ابن عبد الله » من زوجه أمية بنت وهب الزهرية القرشية بن «عبد المطلب» من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية وكان عبد المطلب شيخا معظما في قريش يصدر عن رأيه في مشكلاتهم ، ويقدمونه في مهماتهم ابن « هاشم » من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية المخزومية بن «عبد مناف» من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية بن «قصي» من زوجه حبي بنت حليل الخزاعية ، وكان الى قصي في الجاهلية حجاب البيت ،

وسقاية الحاج ، واطعامه المسمى بالرفادة ، والندوة وهى الشورى لا يتم أمر الا فى بيته ، واللواء لا تعقد راية لحرب الا بيده ، ولما أشرف على الموت جعلها فى يد أحد أولاده - عبد الدار - ولكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد الأمر يفضى الى القتال ، لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم الى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده ، أما الحجابة فبقيت لبنى عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهى فيهم الى الآن ، وهم بنو شيببة بن عثمان بن أبى طلحة ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار . وأما اللواء فقد دام فيهم حتى أبطله الاسلام وجعله حقا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحا ، وكذلك الندوة ، وقصى هذا ابن « كلاب » زوجة فاطمة بنت سعد وهى يمانية من أزد شنوءة بن « مرة » من زوجة هند بنت سريز من بنى فهذ ابن مالك بن « كعب » من زوجة محشية بنت شيبان من بنى فهز أيضا بن « لؤى » من زوجة أم كعب مارية بنت كعب من قضاة بن « غالب » من زوجة أم لؤى عاتكة بنت يخلد من بنى النضر بن كنانة بن « فهر » من زوجة أم غالب ليلي بنت الحارث من هذيل . وفهر هو من قريش فى قول الأكثرين . وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة - بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار بن قصى ، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة ابن كلاب ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو عدى ابن كعب وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب ، وبنو جمح بن هصيص ابن عمرو بن كعب ، وبنو عامر بن لؤى وبنو تيم بن غالب ، وبنو الحارث بن فهر ، وبنو محارب بن فهر . والمقيمون منهم . بمكة يسمون قريش البطاح . والذين بضواحيها قريش الظواهر - بن مالك من زوجة جندلة بنت عامر من جرهم بن « النضر » من زوجة عاتكة بنت عدوان ابن قيس عيلان بن « كنانة » من زوجة برة بنت مر من بنى تميم بن « خزيمة » من زوجة عوانة بنت سعد بن قيس عيلان بن « مدركة » من زوجة سلمى بنت أسلم من قضاة بن « الياس » من زوجته خندف المضروب بها المثل فى الشرف والمنعة بن « مضر » من زوجة الرباب بنت جندة بن معد بن « نزار » من زوجة سودة بنت عك بن « معد » من زوجة معانة بنت جوشم من جرهم بن « عدنان » وبعد أن انتهى الى عدنان هذا ذكر أن ذلك هو النسب المتفق عليه ، وأما ما زاد عليه فلم يوضح فيه طريق وان كانوا يجمعون على أنه ينتهى الى اسماعيل عليه السلام . وهو نسب - كما ترى - كله شرف . آباء طاهرون وأمهات طاهرات . لم يزل عليه الصلاة والسلام ينتقل من أصلاب هؤلاء الآباء وأرحام أولئك الأمهات حتى اختاره الله هاديا ومبشرا ونذيرا . من بيوت سيادة ، ويطون

قيادة ، من جهة الرجال والنساء ٠٠٠ وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يندرك تمام الإدراك عناية الله به ، وفضله عليه ، ورفعته له ، فيقول « أن الله اصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريش ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » وفي بعض الروايات يحيى منه التعقيب على ذلك بقوله « فانا خيار من خيار » ٠٠٠ وربما كان في بعض المناسبات يصرح بأنه لم يكن في سلسلة نسبه سفاح قط من لدن آدم الى أن ولدته أمه ، وهذا معنى من معاني الطهر الذي كان الناس يفاخرون به ، لأن الأنساب على هذا النمط ، والتناسل على هذا النحو ، لم تتوفر لكل انسان ، وانما كان هنالك اتصالات جنسية أخرى ينكرها الذوق ، وتبأها الأخلاق ، وينفر منها الطبع ، وصيانة نسبه عن هذا الدنس ، وخلوه عن تلك المخازي ، كان بمثابة الارهاص الذي يسبق المعجزة ، وان كان اختيار الله جل جلاله للأشخاص ليس بلازم أن تكون له مبرراته « وهو القاهر فوق عباده » الا أن ذلك كان أشبه بالتأييد لرسوله ، حتى لا يكون هنالك اعتراض من متعنت ، ولا انكار من جاحد ، ولا شك من متردد ، مادامت هذه المقاييس التي يعتبرونها ، أو الموازين التي يزنون أمورهم بها ، وعلى الرغم من أن المرأة مجرد وعاء فقط لا أكثر ولا أقل ، وأن كثيرا منهم كان مجدهم مقرونا بالأباء لا الأمهات الا أنهم كانوا في هجاء بعضهم لبعض يتناولون الأمهات ، ويعيرون بها ، لذلك كان طهارة نسبه - صلى الله عليه وسلم - من الجهتين معا ، قاطعا لالسنتهم أن تتناوله ، ومانعا لهم أن يلزموه ٠٠٠ واشتدت حسنومتهم له ، ومنازلتهم اياه ، وظلت الحرب الضروس بينهم وبينه زمنا طويلا ، كادوا له فيها بكل ألوان الكيد ، وطافوا للبحث عما يؤله أو يؤذيه في كل ناحية ، دون أن يتورعوا عن باطل ، أو يكفوا عن فحش ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخوضوا في نسبه لأنهم يعلمون علم اليقين أنهم سيرمون بالافتراء ، ويواجهون بالانكار ، ويواجهون بالتكذيب ، ولا يجدون من يقرهم على هذا الادعاء ، أو يؤيدهم في ذلك التناول .

وإذا كان أقرب الأشخاص الى المرء في سلسلة نسبه أباه الذي يقترن به مجده ، وينتهي اليه فخره ، ويناط به حسبه ، فان عبد الله كان في سلسلة هذا كواسطة العقد ، التي يزدان بها ، ويتكامل له شكله ، وحسن مظهره ، وتنعته كتب التاريخ بأحسن ما تنعت به الرجل الذي تشرئب اليه الأعناق ، ولا تمل من النظر اليه العيون ، ولا تنفر منه الطباع ، حسن السمات ، مهيب الطلعة ، جم الحياء ، وقور المنظر ، كثير الأدب ، واضح الميل والاتجاه لا غموض فيه ، ولا غبار عليه ، يحبه من يعرفه ومن لا يعرفه ، ألقى الله عليه معنى من الاجلال والاحترام ، لم

يكن للسادة ، ولا للوجوه ، وكان أبوه قد نذر اذا تكامل له من الذكور عشرة أن يذبح أحدهم قربانا للأصنام فلما بلغ عدد أولاده هذا النصاب أجرى القرعة ليخرج له الذبيح منهم وكانت القرعة - فى كل مرة - تصيب عبد الله فلما أخذه ليذبحه للأصنام قامت قيامة قريش ولم يرض أحد أن يكون عبد الله « كبش الفداء » وقاوموا عبد المطلب مقاومة شديدة وأبدوا استعدادهم لأن يذبحوا للآلهة مائة بغير ابقاء على حياته ، وكان هذا تقديرا كريما لعبد الله الذى يحبونه غاية الحب ، ولا يرضون له الا أن يكون زهرة تضوع بينهم بالعطر ، وتخطر بينهم بالحسن ، وقد كان لجمال منظره ، وسحر طلعتة ، ترضى كل امرأة أن تكون زوجته ، ومع ذلك لم تستطع أنثى أن تخدعه ، أو أن تملك قلبه ، لعفته وأدبه ، وورعه وحيائه ، ويقولون ان امرأة نصبت له الحبال لتوقعه بها فأبى كل الاباء ، وأنشدوا أبياتا من الشعر يسجل فيها حزمه وعزمه ، وكفه وامتناعه ، وأنه لا يمكن أن يكون أسير شهوته ، ثم أنهى هذه الأبيات بقوله « أما الحرام فالملات دونه » وهكذا كان كل رجل فى سلسلة نسبه - صلى الله عليه وسلم - يملأ قلوب الناس بمهابتة وطهارته ، ونظافة صحيفته ، ونقاء سريره ، وكمال رجولته ، ليس فيهم شيء من الاسفاف ، ولا معنى من الدنس ، ولا بعض من الريبة . ولا لون من الفضول ، وانما هم الى جانب كونهم يملأون الأماكن التى يتحيزونها ، تلهج الألسنة بالثناء عليهم والحديث عنهم كأنما جعلهم الله منارات للسايرين بالليل ، يلتمسون منهم الهداية ، وينشدون عندهم الأمثلة ويرون أن فيهم القدوة الطيبة لنظافة الضمير ، وطهارة العرض . وسلامة القلب ، وعزة النفس ، وحب الخير ، واباء الضيم ، وسمو الروح ، وعدم الاسفاف فى قول أو فعل .

الاعداد الالهى

مهما قيل فى المعجزة الالهية التى يؤيده الله سبحانه وتعالى بها أنبياءه وأوليائه فان الرسول الذى أرسله ربه الى خلقه فى حاجة ماسة الى التعامل مع هؤلاء الناس الذين كانت رسالته فيهم ، ودعوته اليهم ، ولا بد من أن يكون على بصيرة من سياستهم أو السلوك معهم حتى لا يقع فى العنت ، أو يضطلم بما لم يكن فى حسبانته ، أو يجر بخاطره ، وهناك لا تسير الأمور على سنن الحياسة المألوفة ، أو تخرج عن طوق الداعى واحتماله ، ويتحدث النبى - صلى الله عليه وسلم - الى بعض أصحابه . أنه كان يرعى غنيمات لبعض أهل مكة على أجر يأخذه منه ، ويرد صاحبه عليه كأنما ينكر عليه ذلك ورعى الغنم يا رسول الله فيقول له نعم . وما من نبى قبلى الا رعى الغنم ، ويقول الذين فسروا هذا الحديث ان فى رعى الغنم كثيرا من الكياسة فى السلوك ، والسياسة فى الأخلاق ، والاعداد الالهى على الجلد والاحتمال ، والاغضاء والصفح ، والحلم والتسامح . واليقظة والانتباه ، وهى معان يحتاج اليها الراعى ، وتكمل بها قيادة القائد ودعوة الداعى ، وزعامة الزعيم . ويحكى - كذلك - عن حلف الفضول فيقول « لقد شهدت مع عمومتهى حلفا فى دار عبد الله ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت » وهو حلف تعاهدت فيه قريش وغيرها من أهل مكة على أن يجندوا أنفسهم للحق والعدل والانصاف وكف الأذى عن الناس والا يشهد أهل مكة وغيرهم منهم الا البر والمعروف ومنع الظلم والوقوف الى جانب المظلوم . وكان ذلك فى اثر ثورة طائفة فى داخل مكة بين قريش وقيس كادت تطيح بالأخضر واليابس ، ولما أن تدارك الله الطرفين برحمته وكف كل منهما يده عن إيذاء أخيه وتصالحا رأيا أن يردفا هذا الحلف - بحلف آخر يكون بمثابة ضمان دائم بكف الأذى ، ورفع الظلم ، وانصاف

المقلوب ، وتوفير الأمن والسلام لمن تقله أرض مكة من أهلها أو غير أهلها . ومما لا شك فيه أن حضوره - صلى الله عليه وسلم - هذه الأخطاف وشبهها من التدريب العملي على الفصل في القضايا ، والحكم في الخصومات . والادلاء بالرأى . والاصلاح بين الناس . وليست مهمة القواد والرواد والمصلحين شيئا وراء ذلك ولعل هذا الاعداد الذي تلقاه - صلى الله عليه وسلم - مبكرا كان من عوامل الارتياح الى حكومته فيما كان يجد من نزاع بين العرب يتولى هو فضه أو الفصل فيه ، كما حدث في الاختلاف الذي كادت ناره تندلع على حمل الحجر الأسود ليوضع في مكانه وكل جماعة كانت تريد أن يكون لها شرف حمله ووضعه ، ثم وضع هو الثوب تحته وقال لهم لتأخذ كل جماعة بطرف من الرداء وبهذا تشنى للكل أن ينال شرف الحمل وأن تهذا في نفسه حدة غضبه . كل هذا والعرب أنفسهم قد ملوا الصراع الداخلي الذي كان قائما بينهم . والذي كانت ضحاياه تتجدد في كل يوم من سفك للدماء . وتفريق للكلمة ، وتشتيت للشمل ، وطمع للدول التي تتناخم حدودهم ، أن تمتلك زمامهم ، وتستولى عليهم ، وتتحكم في مصيرهم . الروم في الشمال ، والفرس في الشرق . والأحباش في الجنوب . وحين تيقظ فيهم هذا الوعي ، وتنبه فيهم ذلك الشسور . وأدركوا في قرارة نفوسهم أنهم بحاجة شديدة الى قائد روحي يملك ضمائرهم ، ويسوس أفتداتهم . ويحمل بيده المشاعل التي تنير لهم مواضع أقدامهم ليسيروا على محجة واضحة المعالم ، بينة المسالك ، ظاهرة الهداية ، ليطلبوا الخير ، وينشدوا البر . ويعملوا على أن تكون حياتهم محفوفة بالأمان والاطمئنان . والسعادة واليمن . هنالك كانت أعناقهم تتطلع الى هذا المنقذ الذي يتولى زمام السفينة وسط هذه الأمواج . وتلك العواصف . عسى أن تنجو من الغرق ، وأن يكتب الله لهم النجاة من هذه المخن التي أهدت بهم . وتمكنت منهم ، وتغلغلت في صفوفهم ، فأصابتها بالفرقة والكراهية ، ويقول الدكتور أحمد ابراهيم الشريف « في هذه البيئة العربية الخالصة ، وفي هذه الظروف المواتية ، ومن بين رجال تلك القبيلة التي تعظمها العرب ، ظهر ذلك المصلح الذي كانت تتطلع اليه النفوس ، ففي مكة ومن قريش ظهر محمد بن عبد المطلب بن هاشم نبيا يدعو الى رسالة جديدة جوهرها الاقرار بالالوهية لاله واحد ، هو الله الخالق المبدع الذي تنزه عن الشريك والصاحبة والولد « ولم يكن له كفوا أحد » . وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، والآدميون جميعا أمام الله سواء مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ومراكزهم الاجتماعية ، وهم لذلك يجب أن يتساوا في الحقوق والمعاملات .

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - اذ بعث نبيا كانت له صفاته

الشخصية التي هيأته للاطلاع بدور الزعيم والنبى - فى آن واحد - وإذا قرأنا كتب السيرة القديمة وجدنا هذه المصادر تقدم لهذا الدور بنوع من التفسير لعبقرية الأشخاص ، فهم يوردون أخبارا تدل على اكتسابه أنواعا من الخبرة التي يستفيد بها كل إنسان من تجاربه ، ثم يوردون أخبارا تدل على أن النبى - صلى الله عليه وسلم - نال من العناية الإلهية ، والفضل الربانى ، والعلم اللدنى ، الذى يلقىه الله فى نفس العبد بدون واسطة كثيرا ، وأن هذه النفحات الإلهية أتمت للنبى شخصيته ، وأكملت تجاربه ، ويذكر المؤرخون أنه - صلى الله عليه وسلم - شارك فى الحياة العامة فى مكة منذ طفولته مشاركة كان لها أثر كبير فى حياته ، فقد اشترك فى الحياة السياسية فى حلف الفضول ، وكان هدف هذا الحلف سياسيا لم تألفه القبائل المعتزة بعصبيتها ، هذا الهدف هو نصره المظلوم ، بصرف النظر عن قرابته وقبيلته ومن قبل ذلك كان قد اشترك الى جانب أعمامه من بنى هاشم وقريش فى حرب الفجار فاكسب الى جانب خبرته السياسية خبرة حربية ، ثم انه اشترك فى تنظيم القوافل التي كانت تسوقها قريش للتجارة فى الشام ، فسافر مع عمه وهو صبي ، وسافر فى تجارة لخديجة وهو شاب ، كما مارس التجارة فى مالها بعد أن تزوجها ، واستفاد من ذلك كله خبرة فى المعاملات التجارية ، والعلم بطبيعة الانسان علما يساعده على تقدير قيمة الرجال ، كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس ، ثم انه كان قد اشتغل برعى الغنم حينما كان صبيا ، فأفاده ذلك التواضع ، وتوجيه العمل أيا كان نوعه ، واشتهر بالأمانة حتى سمي بين الناس - قبل البعث - بالأمين ، فكانت له الى جانب تجاربه أخلاقه المرصية التي تحببه الى الناس قبل أن يعارض آراءهم ، وئمة معنى آخر اشتهر به ، ذلك هو القدرة على الحكم ، وسرعة البديهة فى حسم الأمور ، يشهد بهذا حكمه بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة ، واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء ، فأظهر من سرعة الخاطر ، وقوة البديهة ، ما حسم به الموقف ، وأرضى المتنازعين ، كما كشف هذا الموقف عن قيمته فى الحياة الاجتماعية فى مكة ، إذ ارتضاه أهلها حكما ، ونزلوا على ما قضى به ، وقد كان الى جانب تلك الأمور يتيما فقيرا ذا طبيعة دينية على ما يمكن أن يدل عليه اعتزاله للناس واعتكافه بفار حراء مستغرقا فى التفكير والتأمل ، فهو رجل اكتسب صفات على نحو ما يكتسبها الناس جميعا ، وتلقى من الله - جل وعلا - توفيقا يحدث مثلها للناس جميعا ، فالنبى - صلى الله عليه وسلم - بشر ارتفع على ما يرتفع اليه كبار الفلاسفة عن مستوى الناس ، الا أنه كان يرتفع بعقله وقلبه فى آن واحد ، على حين كان يرتفع الفلاسفة بعقولهم لا غير ، ويجدر بنا أن نضيف الى ما يقوله الدكتور الشريف شيئا آخر يشبه أن يكون من قبيل

المعجزة وان كانت المعجزة لا يبد أن تقترن بالتحدي - كما يقولون - وليس هنالك تحد ، ذلك ما يرويه هو عن نفسه في بعض الأحاديث فيقول انه وهو يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع - ابن حليلة السعيدة - استأذنه في أن ينفرد برعى الغنم . والاهتمام بها ، والقيام عليها ، الى أن يذهب هو الى بيت قريب كان فيه عرس ليشارك أهله غببتهم وأقراهم ، وليمتع خاطره هوناما ، من الوقت بما عساه أن يكون هناك من الغناء أو المزار ، وما هو الا أن وصل الى مكان العرس حتى أخذته سنة من النوم جعلته في عالم آخر فلم ينتبه الا في الصباح وقد تفرقت الجموع ، وانقض العرس ، وصار ذلك كله خيرا من الأخبار . . كذلك يقول انه كان يلهو مع جماعة من الأطفال في سنة - حينئذ - وكانوا يجمعون في حجورهم الطوب والحجارة ويقتضيههم ذلك أن يكشفوا عن سيقانهم فلما أراد أن يجاريهم في ذلك سمع صوتا ينهائ بالكف عن ذلك ويصرخ في أذنيه ألا يعود الى ذلك أبدا فأشاع ذلك الزجر - بهذا الصوت - في نفسه الهلع والفرع - وكان منه أن لم يعد الى مثل ذلك ولم تحدثه نفسه أن يعود ، وفي هذين الحادثين - على الرغم من حداثة السن - ما يدل على أن الاعداد الالهية كان معه خطوة خطوة منذ ولدته أمه - وقبل أن تلده أمه - وإذا نحن أنعمنا النظر في حياته كلها قلنا انها استمرار على هذا الخط ، وسير على هذا الدرب ، فشق صدره الشريف وهو في كنف حليلة ثم تكرر ذلك ليلة الاسراء والمعراج ، وموت أبيه ، وموت أمه بعد ذلك ، وكل هذه الشدائد التي كان - صلى الله عليه وسلم - يلاقها ، ليست كلها الا اعدادا ولقد كانت الحادثة الواحدة من سفاهة السفهاء ، وكيد الأعداء وتناول الحمقى جديرة وحدها أن تحول وجهه ، وتعوق سيره ، وتصده عن المضي الى الغاية ، لو أنه استسلم وألقى سلاحه لكنه كان يعلم أنه الابتلاء الذي تجتازه الأبطال ، ويمر به المصلحون ، ولا يصادف الا أولى العزم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . .

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد كسبت وجهه سبحانه من الحزن ، أو غمامة
 دكناء من الشعور بالذل أو الانكسار ، كأنما قلبه تقطعت به أسباب الحياة .
 وتخلت عنه العناية الالهية والعياذ بالله ، فظل جامدا مكانه يود لو أن
 الكون فغر فاه فابتلعه ، أو نفخ في الفضاء فأطارته أعاصيره . وذهبت
 به الى حيث لا يعرف أحد موضعه ، ليطمئن على أن الدنيا التي يعيش
 فيها قد انتهت ، وأن الأرض التي تقله قد اختفت ، ولا أمل بعد ذلك كله
 في نعيم أو نعمة ، ان مرح زملاؤه كما يمرح الأطفال سرورا بالحال ،
 وابتهاجا بالعيش ، واحساسا بالسعادة ، أو نشوة بما يتاح لهم من
 اللذة ، أو جرى في وجوههم دم الطفولة البريئة ، أو ماء الصبا الرقراق ،
 كان هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير في البستان الذي جف عنه
 الماء ، وغاب عنه الغذاء ، وتخلت عنه عناية البستاني ، فسارع اليه
 الذبول ، وتجاهلته الحياة ، على الرغم من أنه باق في مكانه يحسبه الناس
 متمكنا في الأرض يمتص ماءها وغذاءها وهي تلفظه في الخفاء ،
 وتنفصل عنه في صمت ، وتدير ظهرها له في غير ضوضاء ولا جلبة .
 لتتركه هشيما تدوره الرياح .

ان كنت قد رأيت ذلك اليتيم ففاضت عينك بالدموع ، وثار قلبك
 من الحزن والتهب الدم في عروقك أسفا وأسى ، وملأت الحسرة نفسك .
 وبكيت لتلك الروح الانسانية المعذبة ، يتجهم لها الوجود ، ويقسمو عليها
 المجتمع ، فلا يمسح عبراتها . ويدفع عثراتها ، أو يخفف ويلاتها ، أو
 يأخذ بيدها الى سبيل النجاة من المهالك . والبعد عن مضار الأذى
 والضرر ، والبغض للدنيا ، والنفور من الحياة ، والكراهية للعيش ، فذاك
 هو اليتيم الذي ينظر اليه العالم من حوله نظرة الازدراء والاحتقار ، ويود

لو أنه لم يكن ، لأنه عالية على الأرض ، وزائدة دودية في جسم البشرية
التي هو فرد منها . .

وإذا كان لنجاح الانسان في هذا الميدان الصاحب ، والمعترك
المائج ، والقضاء الذي يتصارع فيه على البقاء كل كائن حي ، من الوسائل
والاسباب ما يساعده على الوصول الى ما يريد ، والانتهاء الى ما تصبو
اليه نفسه - مشروعة كانت هذه الاسباب وتلك الوسائل أو غير مشروعة -
فان انكسار القلب باليتم . وهوان صاحبه على الناس . وانزواءهم عنه ،
ونفورهم منه ، لا يجعل هذا النجاح ذا شأن ، ولا يضيف عليه بهجة
الانتصار ، ولا يلهم صاحبه الارتياح له ، أو السرور به ، أو استقباله
باللذة والاعتباط ، والاطمئنان الى أنه نجاح وكفى ، ذلك لأن الجور القاتم
الذي يملأ ضمير صاحبه غطي على كل معنى يحس به الا معنى الذل والحزن
والآلم والانقباض والمنظار الأسود الذي يرى به الكون والناس
وقد رأينا كثيرا من أولئك الذين فقدوا العائل ، وعدموا الراعي . وفارقهم
من كانوا يرأموهم ، ويجدون عليهم ، أو يمسحون على رؤوسهم ، كان
اليتم حجر عثرة في طريقهم ، والعقبة الكأداء في سبيلهم ، فكيف وقد
كان محمد - صلى الله عليه وسلم - مع اليتم الذي ابتلاه الله به فقيرا
من المال الذي هو عصب الحياة ، وشريان هذا الوجود . ومع فقره من
المال هكذا ، والشظف الذي كان يقاسيه من الحاجة والحرمان الى حد
المضاضة والآلم . لم يكن المجتمع من حوله مهذبا ، ولا البيئة التي هو
فيها رحيمة ، والشأن في المجتمعات أو البيئات أن تكون ملاذا للأفراد ،
وظلا ظليلا على الأشخاص الذين يعيشون في حماها . ولو أنه - صلى
الله عليه وسلم - وجد من حوله حنو الرحيم ، وحذب الانسان ، ورقة
الآدمي . لكان له من ذلك كله الدواء والعزاء . .

وقد حدث التاريخ أن أباه فارق هذه الحياة بعد حمل أمه به بشهرين
اثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد خمس أو ست سنوات من وضعه ، وأن
أمه لما أرادت أن تجرى به على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم
الى المراضع لينشأ الناشئ منهم على الخشونة التي تقتضيها الرجولة ،
والاباء الذي يقتضيه النبيل . والنجابة التي توصى بها حياة الاغتراب عن
الأهل ، لم تجد من ترضي بضمه اليها ، وولت كل امرأة عنه بوجهها «
بعد أن عرفن أنه لا أب له من أهل الشراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ،
وأن المرأة التي تقبل على نفسها أن تأخذه تتقرب به الى الأوثان ، أو ترمي
بجهدا الذي تبدله في وجه الشيطان ، ولقمة الحيش لا تشتري بالمعروف ،
والحياة لا تستقيم الا لمن يدفع لها الثمن غالبا من المال . . ولولا أن حليلة
صادفها الجسد العائز ، والفأل الغادر ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه ،
لتعود الى رجلها بصفقة المغبون . . اللهم الا أن تكون قد أردت أن تعود

بشيء وكفى ، لتدفع عنها تهمة الخيبة . وشبهة شؤم الطالع . . . ويروى ابن اسحق أنها قالت « قدمت مكة في نسوة من بنى سعد بن بكر نلتبس الرضعاء في سنة شهباء ، على أتان لي ، ومعى صبي لنا ، فقدمنا ، فوالله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتأباه اذا قيل انه يتيم من الأب ، وذلك أنا كنا انما فرجو المعروف من أب الصبي . . . فكنا نقول يتيم ، ما عسى أن تصنع أمه وحده ، فكنا نكرهه لذلك ، فوالله ما بقي من صواحبى امرأة الا أخذت رضيعا غيرى - فاني لم آخذ - فلما لم أجد سواه قلت لزوجى « الحارث بن عبد العزى » والله انى لاكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . . . لأنطلقن الى ذلك اليتيم فلاخذنه ، قال لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة فذهبت ثم أخذته بما هو عليه الى أن جئت رحلي ، فأقبل عليه تدياى بما شاء الله من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب أخيه حتى روى . فودع النساء بعضهن بعضا . وودعت أنا أم النبى ، ثم ركبت أتانى وأخذت محمدا بين يدى . ثم مشيت أتانى حتى سبقت دواب الذين كانوا معى . وصاروا يتعجبون منى ، وقدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها . فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا فنحلب ونشرب » وتروى كتب السير أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ظل عند حليمة حتى فطمته عن ثديها بعد حولين كاملين . وكان قد مشى وحده ، وأكل وحده ، ونام وحده ، وليس ثيابه وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بدورهم من الرجال والنساء ليجدوا هنالك من رعاية الوالد ، وحنان الأم ، ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجدهوا الا منها ، وفى جوارهما ، وتلفت الطفل ليجد رعاية الوالد . وحنان الأم فلم يجد ، وبقي عند حليمة التى كانت بدورها قد طلبت من أمه بنت وهب أن يبقى محمد عندها لأن خيرها قد اقترن به ، وخصب مرعاها قد جاء معه ، ولبن غنمها قد در على مقدمه ، وما لبثت أن استجابت أمه حتى دعى داع آخر أن تفكر حليمة فى أن يكون محمد فى جوار أمه لأنه مهدد اذا بقي عندها بالاغتتيال والقتل وهى لا تحتمل أن ترعى طفلا يطارده أعداؤه ، ويتربص به خصومه . وهى المسئولة عن دمه أمام أهله وذوى قرابته ، وكانت حادثة شق صدره - صلى الله عليه وسلم - قد حدثت وأثارت رعبه ورعب ابن حليمة الذى ذهب الى أمه ليقص عليها خبر أخيه القرشى ، ولم يدر بذهنها - ولا ذهن أحد - أن ذلك هو جبريل ، ولم تقرأ فى قواميس علمها شيئا اسمه جبريل ، وانما امتألت يقينا أن محمدا يتهدده الخطر ولا بد أن تبرأ ذمتها منه ، لذلك لم تجد مخلصا وراء رده الى أمه - ثانيا - والتحلل من تلك الأمانة الثقيلة التى تتحملها ، ولم يمض الطفل بعد رجوعه لأمه فى هذا الوقت أكثر من عامين حتى وجد أن أمه قد اختارت جوارا آخر غير جواره

وجوار الناس أجمعين . ولم يكن هنالك بد من أن يتراعى الى أحضان الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جنبه أحب الناس اليه ، يرأه ويعطف عليه ، ويوفر له أسباب الراحة ، وألوان السعادة ، ويملا قلبه دائما بالرضا والارتياح ، ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير يشعر بشيء من الفراغ الواسع الذي تخلف عن فقد أبيه وأمه . . . وعلى الرغم من الانكسار الذي كان يلزمه ، والهوان الذي كان يلاحقه ، ما ذلت نفسه ، ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائما أبدا يشعر أنه يعيش في غير دنيا الناس . ويحيا في عالم غير هذا العالم الذي لا ترتفع درجات الناس فيه الا بالمادة الحقيرة . والحطام الفاني ، والعرض الزائل ، وما رآه راء من زملائه وأقرانه الا حملة ترفعه عن السفاسف ، وبعده عن الدنيا أن يحترمه احتراماً يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ، ويطلبون السؤدد . . . وسبب ذلك يرجع الى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية ، أو ينزل الى مستوى السوق والدهماء . وكانتما كان ينظر من عالم الغيب الى الموقف الذي سبقه من مقاومة الخرافات ، وتلك الحرب الشعواء التي سيجعلها صارخة على هذه الخزعبلات ، فكان سلوكه القويم الذي يسلكه ، ومعاملته الحسنى التي يعامل بها من كان حوله على طراز من الأدب ، ومثال من الكمال ، ونمط من الذوق ، يعتبرونه فيما بينهم عنوانا صحيحا للرقى الأخلاقي ، والنضوج الانساني . . . وفي هذا كله دليل على حفظ الله له ، واهتمامه به ، ورعايته آياه ، وكونه كان يجعل منه المثال الذي يقاس عليه . والنموذج الذي تنشده الحياة . . . أما تلك العظمة التي كانت تسيطر عليه . وتملاً جواتحه ، وتزحم قلبه ، وتفيض بها وجداناته وعواطفه فانها تظهر في كثير من طباعه التي كانت تحكمه والتي كانت لا ترده موارد الصغار ولا تنزل به الى حدود الاسفاف ، أو تنحدر به الى مستوى الدهماء ، ولقد كان لجده عبد المطلب بساط لا يجلس عليه غيره ، ولا يقعدده أحد سواه ، وهو تقليد متوارث عند العرب أخذوه عن الآباء والأجداد ، فان تعدى انسان على ذلك التقليد اعتبروه متمردا على الأوضاع ، خارجا على الحدود ، وقد حكوا أن محمدا في طفولته تعدى على هذا التقليد . وتمرد على هذه السنة ، وتجاوز تلك العادة ، وسارع الى مكان جده ليسبقه اليه . فلما هم بعض الحاضرين من أعمامه وذوى قرابته أن يرده عنه ، أو يوبخه على صنيعه . قال له عبد المطلب دعه فان دم السيادة يجري في عروقه ، وروح المجد تملأ نفسه ، والنزوع للرفعة ، والطموح للسؤدد ، هو الذي يشغل باله . ويضني قواده . وكان الذي جعل عبد المطلب يؤمن بذلك . ويعتقده اعتقادا جارفا أنه رأى في منامه رؤيا فسرها له العازفون بتأويل الأحلام أن رجلا من صلبه تدين له العرب بالطاعة . وتعترف له بالفضل . وتدعن له بالسيادة ، وتؤمن له بالسلطان ، وتلهوى دعوته لهم في أرجاء الدنيا . . . وكذلك كان يفعل

الطفل مع عمه أبى طالب بعد أن انتقلت إليه كفالته اياه ، ورعايته له .
وهى روح ان دلت على شىء فهى انما تدل على أن تلك الروح العالية كانت
تسبق الزمن . وتستعد للمستقبل ، وترعاها عناية خفية عن أنظار
البيئة التى يعيش فيها . . . وربما خطر بذهن سائل أن يسأل لماذا اختارت
الإرادة الالهية هذا المخلوق الذى طحنته الحوادث وعركته الخطوب ،
ولوعته صروف الزمن ، ونشأ تلك النشأة المليئة بالأهوال . المتزجة
بالشدائد ، وهو سؤال يعرف الجواب عليه من يدرك أن الله سبحانه
وتعالى لم يشأ الا أن يكون رسوله الذى يرسل به الى الناس كافة قد
شرب من الكأس المترعة لتنطبع نفسه على الرحمة ، وتمتزج جوارحه
بالعطف ، وتآلف طباعه الحذب على الضعفاء والمساكين ، ويتسع صدره
لما عسى أن يصادفه بعد ذلك من محن ، أو يلاقه من عنت ، أو يواجهه
من مصاعب ومتاعب ، وهكذا ينشأ الأبطال والعظماء ، ويحيا حياة القسوة
من يريد أن تنقاد له الحوادث ، وتخضع له الظروف ، وتذل له الأيام
والليالي . . . وتدلنا تلك الأساليب الربانية على أن الأب والأم جميعا لم
تكن الا أسبابا ظاهرية للعناية والاهتمام ، والرعاية والتربية ، والتهذيب
والتقويم ، والصيانة والحفظ ، والارشاد والنصح . ولو شاء لجعل أسبابا
غيرها تؤدي عملها ، وتقوم بدورها ، وتنهض بوظائفها ، تباركت آوؤه ،
وجلت نعمه ، وعظمت قدرته ، لا نحصى ثناءنا عليه ، ولا نعلم أسراره
فى خلقه ، ولا نفقه سياسته فى ملكه ، ولا نعقل من قضائه وقدره الا
ما يكشفه لنا النظر الكليل ، والتفكير الواهى ، وننتهى بعد هذا المطاف
الى الايمان العميق . والتسليم المطلق ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ،
وسيئات أعمالنا ، ونقف أمام عناية الله بأنبيائه وأوليائه موقف الذى
يسبح بحمده ، ويؤمن به ، ولا يستعظم على قدرته التى تخرق العادات ،
وتتجاوز السدود والحدود ، أن تفعل ما يذهل الناس ، ويخرج عن طوقهم ،
ويتأبى على استطاعتهم . لتكون له وحده الألوهية التى لا شك فيها ،
والربوبية التى ينفرد بها . والجلالة التى لا يزاحمها شريك عليها « وعنده
مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من
ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى
كتاب مبين » وهكذا تكون عقيدة المسلم فى ربه الذى خلقه من طين ،
وجعل له السيادة فى الأرض .

عصاميته

كان من أدبه - صلى الله عليه وسلم - الذى كان يؤدب به أمته .
وهديه الذى كان يهدى به الناس . ألا يكون الرجل عالة على غيره ، يعيش
على حسابيه ، أو يرتبط مصيره به ، أو يقعد ليعمل له سواء ، واليد
العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء ، والمرسلين
الذين تقدموه فى الدعوة ، وسبقوه بالرسالة ، أنهم كانوا يحصلون
أرزاقهم بأنفسهم ، ويأكلون من عمل أيديهم . حتى لا يطوقهم أحد
بفضل ، أو يدينهم بمعروف ، أو يقتضيهما ما أسدى إليهم من بر وخير .
ولهذا لم يعرف عنه منذ كان طفلاً ولا شاباً ولا رجلاً أنه استراح لصدقة
تدفع إليه ، أو معونة يبذلها له باذل ، وروى أنه كان يأخذ الهدية دون
الصدقة . . وظل حياته كلها قبل البعثة يعمل بالأجر فى رعى الغنم
تارة ، وفى التجارة تارة أخرى ، لياكل من كده ، ويرزق من جده .
فلا يكون عنواناً سيئاً للمتواكلين الذين يشيعون الكسل والقعود عن
طلب الرزق ، وإصابة المجتمعات بأمراض الاسترخاء . . ويقول الشيخ
الخصرى « ولا بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع
اخوته من الرضاغ فى البادية ، وكذلك لما رجع الى مكة كان يرعاها لأهلها
على قراريط - كما ذكر البخارى فى صحيحه - ووجود الأنبياء فى حال
التجرد عن الدنيا ومشاغلتها أمر لا بد منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم
الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية - التى نصبهم الله جل جلاله
لها - ولذلك نرى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد
فيها ، والتباعد عنها ، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك ،
فقد كان عيسى عليه السلام أزهق الناس فى الدنيا ، وكذلك كان موسى
وابراهيم ، وكانت حالهم فى صغرهم ليست ذات سعة بل كلهم سواء

وتلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا فى الامتناع
عن التكالب على الدنيا والتهاافت عليها .

ولما شب - صلى الله عليه وسلم - كان يتاجر وكان شريكه السائب
ابن أبى السائب ، وذهب بالتجارة لخديجة رضى الله عنها - الى الشام
على جعل يأخذه ، ولما شرفت بزواجه وكانت ذات يسار عمل فى مالها وكان
يأكل من نتيجة عمله ، . . وكان وهو فى كفالة عمه أبى طالب بعد أن
أحس من نفسه بالقدرة على مزاوله البيع والشراء - فى التاسعة من عمره -
يتعلق به ، ويلج عليه ، ليأخذه معه الى الشام وهو ذاهب اليها للتجارة ،
وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتياح ، ويقابلها بالقبول ،
ويأخذها منه قضية مسلمة ، وبخاصة بعد أن أحس منه أنه انما يفعل
ذلك فرارا من التواكل . وهربا من أن يثبت لحمه من احسان غيره اليه ،
أو تفضيله عليه وهو الامر الذى يتنافى مع الاء العربى . والكرامة
الانسانية . . وأول مرة تعلق به هذا التعلق كانت تلك التى استقبله
فيها « بحيرا الراهب » وحذره من اليهود . وأفهمه أنهم يطلبون دمه
ان ظفروا به ، لأن فى كتبهم نعتة . وفى شريعتهم تحديده مصرهم الذى
يتربهم على يديه . وهم لهذا يجدون فى قتله ليقطعوا عليه الرسالة .
ويخلصوا أنفسهم من شر يدبر لهم . وكأنما كانوا يكررون مأساة فرعون
مع أطفال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه بزوال ملكه
على يد غلام يولد فى هذا الوادى . وحينئذ أمر بقتل كل مولود ذكر ، وأن
كان ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره . فقد زال ملكه على يد
موسى الذى تربى فى ملكه بعنايته واهتمامه . ورعايته وصونه واجلاله
واحترامه ، وحده وعطفه .

ولم يزل - صلى الله عليه وسلم - على هذا الخلق . يعمل لأصحاب
رؤوس الأموال بين مكة والشام . وهو فى هذه الآونة الرجل العظيم ،
والانسان الكريم ، يتسابقون الى طلبه ، ويتنافسون فى وده ، ويزاحم
بعضهم بعضا على الدنو منه ، والارتباط به ، لأن الأمانة التى تحلى بها .
والصدق الذى غلب عليه . والخبرة التى اكتسبها ، والبصر الذى كان
له . والخلال الطيبة التى برزت فيه . كانت العامل الأول فى اعجابهم
به ، واكبارهم له ، وحديثهم عنه ، فجعلوا يعتبرون الظفر به مغنما عظيما .
والسيدة خديجة لم تكن من دهماء الناس . ولا عامة الشعب ،
لأنها من أشرف قريش ، وأغنياء العرب . وكثير من وجوه مكة كان
يتمنى أن يطلب يدها ، ويخطب ودها ، وكانت هى تقابل ذلك بالاباء ،
وتدفعه بالامتناع والصلف . والتعالى والكبرياء ، لأنها لا ترى أحدا من
هؤلاء جميعا يكافى فضلها ونبلها ومجدها وطهاره عرضها . . الا أنها
لم تملك أمام ذلك الخلق العظيم والأدب النجم ، والرأى السديد ، والفكر

الواعى ، والعقل الكبير ، والقلب النقي ، والأمانة النادرة ، والرجولة التامة ، والكياسة الحازمة ، الا أن تعرض نفسها عليه لأنها - مع إعجابها به ، وحبها له - لم تجد له مثيلا بين ذويها وعشيرتها ، وليس هذا كله لما بينها وبينه من فارق السن - اذ كانت فى الأربعين وهو فى الخامسة والعشرين - ولكن لهذه المعانى من النبل ، والسجايا العظيمة من الأخلاق . على أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يعرف عنه أنه وقد أسلمت له خديجة زمامها . وملكته قيادها ، وجعلت فى يده هذا المال ، أنه كان مستغفلا لنفوذه ، أو مختصبا لحق لا يملكه ، بل كانت يده دائما أبدا فى هذا المال بين الأمان ، ونفوذه نفوذ الوكيل ، وتصرفه تصرف العامل ، فلم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ، ولم يخطر يوما ما فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولا الى هذه البشرية ، وفتحت له الدنيا ، فلم يخدمه منها زخرف ، ولم يقتنه جاه ، ولم يطغنه سلطان ، وهذه عائشة رضى الله عنها تحكى لنا هذا الخلق ، وتسجل هذا الطبع ، وتصف لنا فيه ذات الزهد ، اذ تقول « ما شبع آل محمد - صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض » .

ولعلك بعد هذا السرد الذى عرضناه عليك من ألوان حياته قبل أن يبعث الله به رسولا الى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يكون كلا على أحد ، أو عالة على انسان ، وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ويصفون بها أولئك الأفاضل ممن كانوا لا يطأطئون رؤوسهم ، ولا يذلون نفوسهم ، لأنهم لا يمدون أيديهم ، ولا يعيشون تحت رحمة غيرهم ، يأكلون من فضلات طعامهم . أو فتات موائدهم . وكأنما كانت ارادته سبحانه أن ينشأ يتيما فقيرا لتكون هذه العصامية أبرز خلاله ، وأوضح صفاته ، وأميز خصائصه ، وليكون ذلك امتحانا لرجولته ، وتربية له . واعدادا لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره . والمهمة العظمى التى كانت تترقبه والذى يقرأ تاريخه الرائع ، ومواقفه الخالدة ، وثباته العجيب ، وبطولته الفذة ، وجهاده الذى دوخ الكفر ، وهزم الشرك ، ونكس راية الباطل ، وجعل خصومه يرمون بسلاحهم فى الأرض ، يؤمن أن ذلك كله لم يكن الا لانسان علمته التجارب ، وربته الحوادث ، وامتحنته الخطوب ، وعركته الشدائد ، وتعاهدته الأيام ، والليالى ، وهكذا كان العصاميون الذين تحدث عنهم التاريخ . ومجدتهم الأجيال ، وأحنت الرؤوس لهم الأوطان والشعوب

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق جافة ، وأبواب الكسب جامدة ، وسبل العيش محدودة ، وطرق السعى لتحصيل الأوقات لا تتجاوز رعى الغنم أو الابل ، وشيئا قليلا من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك من البواعث للمتعطلين هنالك أن يحترفوا قطع الطرق ، والسطو على

القبائل ، واغتصاب الأموال ، ونهب المتاع . ولهذا ظهر الشطار ، وكثرت
 اللصوصية . وانتهاج الأقوياء ما بأيدي الضعفاء ، وكان آخر الروايات
 التمثيلية على خشبة المسرح هنالك ما كان يعرف عنهم باسم الصعلكة وهي
 حياة تقوم على البطالة من العمل والخلو من الحرفة ، والقيود عن السعي
 غلى المعاش ، والاكتفاء من ذلك كله ، أو الاستعاضة منه ، والاستغناء
 عنه ، بقطع الطريق على المارة ، وأخذ ما كان في أيدي الناس . اعتمادا
 على قوة العضلات . وحمل السلاح ، وإشاعة الذعر والخوف ، وكان
 على هذه الشاكلة الشنفرى صاحب « لامية العرب » وعروة بن الورد
 والسليك بن السلعة وغيرهم ممن كانوا يحملون في قومهم وذويهم هذا
 اللقب « الصعاليك » . ولم يكن - صلى الله عليه وسلم - يبغض أحدا
 مثل بغضه لهم لأنهم عنوان الخمول ، وصورة مزرية للبطالة ، ولون كريمة
 من ألوان القعود عن طلب الرزق ، وعلى الرغم من كون دينه يبحث على
 الصدقة ، ويأمر بالبذل ، ويطلب الأحسان إلى الفقراء والمساكين ، كان
 يرى أن هذه أوساخ يجب أن يتعفف عنها المسلم ، ويترفع عن أخذها
 المؤمن . ويفر منها كل ذي همة عالية ، ونفس حرة كريمة ، وخير للرجل
 أن يأخذ حبله إلى الجبل ليحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم
 منعه ويناديه ألا يكون طلبه إلا من الله . ولا افتقاره إلا إلى الله ،
 ولا اعتماده إلا على الله . وألا يكون ركوعه وسجوده وقيامه وعبادته
 موجهة إلا لخالق السموات والأرض ، وهذه كلها تحتم على المسلم أن
 يكون كريما على نفسه وعلى الناس . فلا يمتحن آدميته بسؤال ،
 ولا يستندلها بحاجة ، ولا يهينها بطلب ، ولا ينزل بها بضاعة ،
 ولا يبتذلها بشره أو حرص ، ويقول - صلى الله عليه وسلم - ما ملأ ابن
 آدم وعاء شرا من بطنه ليرسم للناس الحياة الكريمة التي لا تكون حاجة
 البطن فيها عنوانا على الخضوع والذل ، والصغار والهوان ، لأن ذلك
 يتنافى مع الآدمية العريزة .

اعتكافه

في كتب السيرة شبه اجماع على أنه صلى الله عليه وسلم - . كان قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي من عند الله ، فيالا الى الخلوة . مجبا للعزلة ، عيوفا لتلك المجتمعات الصاخبة ، والمجالس العامة ، والأندية التي ينتابها القول والفعل في شئون الناس . وسياسة الأفراد . يميل بطبعه الى العزلة . والانتقاطع عن مزدحم الحيناة ، لا يحب الصخب ، ولا يآلف الضوضاء ، ولا يستريح الى الأمكنة التي تصطك فيها الأقدام . وتتلاقى فيها المناكب ، ويشتهب فيها الحابل بالنابل ، ويعلو الضجيج والعجيج . أو يكثر الهذر واللغو ، فلما تكامل وعيه ، وتناهى تفكيره ، ونضج عقله . وقوى شعوره بالكون وخالقه ، والحياة ونظامها . والعالم وما فيه من حيوان وانسان ، وكان قد عرف شيئا عن ملة أبيه ابراهيم عليه السلام فصارت العبادة همه ، والانتقاطع الى الله جل جلاله شغله . والنقمة على الأوضاع الفاسدة ، والخلال النازلة ، والطباع المسفة ، والعادات المرذولة . والروابط المفككة ، والقلوب المريضة ، والعقائد المدخولة ، والخرافات المتحكمة ، والعبادات الموضوعة ، والعقول الضالة ، والحقوق المضئعة ، والحرمان الموهودة . والدماء المراقاة ، وغطيط البشرية في نومها دون أن يشور أحد على تلك التقاليد البالية . والوثنية الضاربة ، والكرامة المهذرة ، والانسانية المعذبة ، والأدمية التي تفتقد الحق . وتنشد الانصاف ، هي كل ما يقلق باله . ويتعب خاطره ، ويحملة على التفرغ للعبادة . والاعتزال للناس . والاعتكاف في غار حراء الليالي ذوات العدد . بعيدا عن البشرية . نائيا عن العمران ، غائبا عن وجوه الخلق ، منقطعا عن ضراخ العيش ، وزحام المطامع ، وتلاقى الأهواء . وشتره الحياة ، وتفاق القلوب . وحقد النفوس . وكأنما كان هذا الاعتكاف عن الناس ، والغراب من العالم . والاتصال بالخالق ، والخلوة في الغار .

والهرب من الكون . والسخط على هذه الأوضاع ، لا للانسلاخ منها ،
والبعد عنها والانقطاع كل الانقطاع عن أسبابها ، وعدم الوقوف ببابها ،
وانما كان للاندماج فيها والاقتراب منها . والاحساس بها ، والألم لها .
والرجاء الحار أن يهيئ الله لها من أمرها رشداً . وينقذها من تلك الضلالة
التي كانت ممعنة فيها ، جارية عليها ، مرتبطة بها ، لا تفارقها أو تتخلى
عنها

أما حقيقة هذه الشريعة التي كان يتعبد بها ، أو يعبد الله سبحانه
وتعالى على نسقتها . فمما يدخل في باب الجسد والتخمين ، والظن
والاجتهاد ، لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها شريعة - ككل شرائع
السماء - تضمنت هدفاً واعياً . ونصحا سامياً ، وإرشاداً قوياً ، وأن
القرآن الكريم وصفها بكونها « دينا قيماً ملة ابراهيم حنيفاً » . واليهود
كانوا يزعمون أنها صورة مكرورة للتوراة ، والنصارى - كذلك - كانوا
يزعمون مثل هذا الزعم ولقد بالغ هؤلاء ، وهؤلاء في أن ابراهيم عليه
السلام - كان على تلك الملة التي كانوا عليها ، ترويجاً لدينهم الذي
مسخوه بالعبث ، وغيره بالهوى . وبدلوه بالبهتان ، وحرفوه بالباطل ،
وألحقوا به ما ليس منه ، وأدخلوا فيه ما هو أجنبي عنه ، وفضح كتاب
الله سبحانه وتعالى دعاواهم المزورة واقترأهم الكاذبة ، حيث يقول
« ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان
من المشركين » وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتأديب ، وهداية
وتقويم . ونور وضيء ، وإرشاد وإصلاح . ولا يمكن الا أن تكون علاجاً
للبشرية ، ونهوضاً بهذه الانسانية ، وفي هذا الظلام الدامس الذي كان
يخيم على الأفئدة ويطمس معالم الحق . كان - صلى الله عليه وسلم -
مبشراً الى البعد عن الناس . واعتزال مجالسهم . محباً للوحدة والانفراد ،
رجاء أن يكون ذلك الصفاء . وتلك الروحانية ، وسيلته الى ربه الذي
امتلاً قلبه به ، ويقينه منه . وأمله فيه . وحب له ، وتطلعه اليه . وهناك
تحول هربه من الناس ، وفراره من صحب الحياة ، وبعده عن ضوضاء
الدهماء ، واعتزاله لأمكنة اللهو . ومجالس الزور والبهتان ، الى تفكير
عميق في انقاذ الانسانية الحيرى ، والبشرية الضالة ، والأدمية المعذبة .
فتطلع ببصره الى السماء أملاً في قبس ترسله ، أو نور تبعث به أو ضياء
يكشف له معالم الطريق . وساقته قدماء الى مكان عال يجعله مع الكواكب
في ارتفاعها . والنجوم في أبراجها . فكان في غار حراء يغذى فكره
بالعزلة ، ويمنى حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف ، وطابت له
هذه الإقامة . ولذت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحي الذي
تفتح له قلبه . وانشرح به صدره . وطاف فيه خياله . وحلق فيه
شعوره ، لم تكن لتعدله لذة ، أو تساويه حياة . ولذلك صار كلما فرغ

زاده ذهب الى أهله ليتزوج مرة أخرى وأخرى : ليواصل المسيرة . ويبدأوم
العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر محمد - صلى الله عليه وسلم - الى
جانب كونها رصيذا ضخما امتلا به يقينه . وأقبلت به نفسه وجوارحه
على الله جل وعلا . مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث ، ويستهن بالأيام
والليالي ، وينفض يديه من الدنيا ، ويرتبط بالملأ الأعلى كل الارتباط في
هواجسه وأحلامه . ونومه وصحوه ، وحركته وسيكونه ، وصحته ومرضه :
ثم كانت له بعد ذلك كله متعة لا تعد لها متعة ، ولذلك يقول في بعض
أحاديثه « جعلت قرّة عيني في الصلاة » لأنها صلة بينه وبينه - سبحانه -
حيث يناجيه ويناغيه . وبينه لواعجه وأشواقه ، ويطلب منه الرضوان ،
ويطلب اليه الطاعة . ولم تكن تلك الصلاة وحدها هي تلك الفرصة التي
يرضى المولى فيها خواطره . ويطمئن فؤاده ، ويحقق أمانيه . من ذلك
الارتباط الذي ينشده . والتعلق الذي يبغيه . بل شرع له الصوم الذي
هو امسك عن الأكل والشرب والجماع واللذة ، وفيه يتجلى كبح النفس
بالطاعة ، وكفها بالحرمان ، وتهذيبها بالرياضة . وتأديبها بالجوع ،
وهو - كما ترى - سمو بالروح ، وترفع عن المادة . وبعد عن الخلق .
واتصال بالخالق ، لا يقل عن ذلك الذي يحيى عن طريق الخلوة . وينشأ
عن الانقطاع عن الناس ، والتجرد من الدنيا ، والزهد فيها ، والفرار
منها . . . وكانت الشريعة في حملتها عناية بالروح . وتطهيرا للقلب ،
وتزكية للنفس . وتربية ، للجوارح ، وكانت النية في العبادات وهي
معنى وجداني بحث شرطا في صحتها . وعاملا مهما في قبولها ، ويحاسب
الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواء بسواء .
فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت
هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه . .
بل ان في هذه الشريعة كثيرا من المعاني التي ترضى نزوعه - صلى الله عليه
وسلم - الى الخلوة ، وميله الى التأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء
خلقه ، وحننا صارخا على النظر في النجوم والكواكب ، والصحارى
والبحار ، والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة ، والحظوظ
والأرزاق . والصحة والمرض . والشقاوة والسعادة ، وهي سياحة طويلة
في ملكوته ، وسفر مترام في كونه ، ونظر دقيق في مدى قدرته ليكون
وراء ذلك كله التسليم له . والايمان به ، والاتجاه اليه ، والخوف منه .
وقصر العبادة عليه وحده لا شريك له « له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف في المساجد ، وفي السبعة الذين
يظلمهم الله بظله يوم القيامة حيث لا ظل الا ظله - كما جاء في حديث
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل تعلق قلبه بالمساجد لا يغادرها
الا على نية العودة اليها . وكان صلى الله عليه وسلم اذا دخل في العشر

الأواخر من رمضان شمر عن ساقيه ، واعتزل أهله ، واعتكف في المساجد .
 والاعتكاف وحده انقطاع الى الله وتفريغ له ، وارتياب به ، وتفكير فيه .
 وهجرة اليه ، وذلك من غير شك لا يختص بمكان دون آخر لكنه قد
 صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن المساجد بيوت الله . وقد
 جرت العادة أن الضيف اذا حل بمنزل الانسان . وقصده في بيته ،
 وجبت له الكرامة ، وكان موضعاً للحفاوة ، وأهلاً للاجلال والاحترام .

ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول - صلى
 عليه وسلم - ، الذي كان يتردد عليه ، أو يفزع اليه ، كلما حزبه أمر .
 أو نزل به هم - غار حراء - هو المنطلق الذي ابتدأت منه الرسالة ،
 وجاء اليه فيه الملك . وكانت منه الخطوة الأولى الى الزحف المقدس الذي
 أراد الله به خلاص هذه البشرية من الفوضى . وانقاذها من الضلال .
 والأخذ بيدها الى حيث تخطو بخطى وثيدة الى حياة أحسن . وعيش
 أفضل ، وسلوك أحزم وأكمل . ولقد جاء جبريل الأمين يبلغه اختيار
 ربه له . ليتحمل الرسالة . ويؤدي الأمانة . ويكون همزة الوصل بين
 الله جل جلاله وبين عباده . وكان ذلك تشريفاً لا يتسامى اليه مخلوق .
 ولا يصل اليه أحد ، ولا يبلغه أرباب التيجان ، ولا أصحاب السلطان ،
 وقد تناولته أحقاد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وظلوا يكيدون له
 جهد ما يستطيعون . رجاء أن ينزلوا بقدره ، أو يشوهوا حقيقته ، أو
 يثيروا في وجهه الغبار ، ولكن الله الذي رفعه على الناس . وفضله على
 العالمين . لم يشأ أن يكون لهم النصر عليه ، أو الغلبة دونه ، وانما رد
 اليهم كيدهم في نحورهم ، وخذلهم أعظم خذلان ، ونصر عبده ، وأعز
 جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وكذلك كانت سنة الله « وان جنودنا لهم
 الغالبون » وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق .

قصة القراءة

جاء في البخارى وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « أول ما بدئ به - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حيب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك ، فقال اقرأ ٠٠ قال ما أنا بقارىء ٠ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ٠ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال اقرأ ٠ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ٠ فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم الخ السورة ٠٠ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ٠٠ فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة ، كلا والله لا يخزيك الله أبدا ٠٠٠ انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ٠ فيكتب من الانجيل ما شاء الله له أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ٠ فقالت خديجة يا بن عم ٠٠ اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة يا بن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيرا ما رأى ، فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، يا ليتني كنت فيها جذعا ، ليتني كنت حيا اذ يخرجك قومك ٠٠٠ فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما آتيت به الا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي . . . ونحن أمام هذه القصة التى تروىها عائشة رضى الله عنها نقف موقف المتأمل أمام تلك الأمور .

أولاً : اقرأ لانسان لا يقرأ ولا يكتب تكليف بما لا يطاق - كما يقول علماء الأصول - وهو محال . فكيف يأمره جبريل بشيء لا يتأتى تحصيله - أو حصوله - فان كان المراد بالقراءة متابعة المتكلم فيما يتلفظ به . فهو لم يتلفظ بعد . فكيف يكون الأمر أو يتأتى . . اللهم الا أن يكون معنى اقرأ تهيأ للقراءة - بمعنى المتابعة - ليكون قلبه خالياً من كل الشواغل التى تحول بينه وبين القراءة . وهى أشبه بأداة الاستفتاح أو التنبيه التى تسبق الحديث وتثقله . . ولا يصح أن يفهم هذا الأمر الا على هذا الوجه . . .

ثانياً : تكرر الأمر بالقراءة - مع إبهامه عليه - وهو لا يدري أهى قراءة بمعنى نطق بالفاظ وحروف مكتوبة « وما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » أم هى قراءة بمعنى متابعة فى النطق وفيه نظر .

ثالثاً : تلك المشقة التى كان يعانىها - صلى الله عليه وسلم - وهو يغطه - أى يضمه الى صدره - حتى بلغ منه الجهد ، وهى أمور تحتاج الى تأمل وبصر ، وتحليل وتعليل . . .

وفى هذه القصة - على كل حال - دليل قاطع على أن الطابع الذى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام ، والفقه فى الدين ، والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة ، وخيرات سخرها الله للانسان ، وذلكها للناس . ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه - صلى الله عليه وسلم - « اقرأ » ومتى أزال المرء عن عينيه غشاوة الجهل ، وظلمات الأمية ، وقبس من نور العلم ، وزاد المعرفة . كان من السهل عليه الى حد بعيد ، أن يتجه الى الخير ، وأن يسلك سبيل الصواب ، وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله ، محكوماً بسلطان الحق ، وقانون الواجب ، ودستور العدالة والانصاف ، وميزان العقل والرأى ، والذوق والفكر ، والايثار والحب . وكانما العلم فى هذا الوجود هو الشعاع الهادى . والمصباح المضى ، والرائد الذى لا يكذب أهله .

وهنا لفظة جميلة تدل عليها الاضافة فى قوله « باسم ربك » والذى جرى عليه القرآن الكريم هو بسم الله يستفتح بها السورة . وما من سورة - باستثناء سورة التوبة - الا كان العنوان البارز فى أولها بسم

الله الرحمن الرحيم . وكانما يذكره جبريل عليه السلام بهذا الابتداء وفيه هذه الاضافة « ربك » بتربية الله له . واهتمامه به ، وحفظه اياه ، مع فقد العائل ، وموت الوالد . وتخلي القرابة . وعدم الثروة . وضيق ذات اليد . وهو سبحانه وتعالى جدير بذلك كله لانه الذى خلق ، خلق الانسان من علق . . على ان لفتة اخرى لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو تخطر به الخطور الخاطف ، وانما يتأملها التأمل الذى يليق بها ، ويتروى فى اخذ العبرة منها ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو المرة . ليفهمه - صلى الله عليه وسلم - ويفهم أمته معه ، أن الذى يطلب الأمر العظيم لابد أن يحتال له . . ويجد فيه ، ويتحمل من أجله المشقات ، ويقاسى الأهوال ، من غير ملالة ولا سأم . أو ضجر وقلق . ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون الاخفاق فيه . وعدم الحصول عليه للمرة الأولى أو الثانية ، سبيلا الى الانصراف عنه ، والزهد فيه ، والياس منه ، أو قطع الرجاء ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، وكل انسان يدعو الى مكربة ، أو يحاول تقويم معوج ، أو ينادى بمبدأ من المبادئ ، أو يوجه جماعة من الجماعات الى خطة مثلى ، أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات ، وتواجهه الصعاب ، وتقف فى سبيله العراقيل ، فليوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والتغلب عليه بالجلد والاستهانة ، ومعاودة العمل ، واستمرار العلاج والمزاولة ، والاستخفاف بالجهد المبذول . والتعب الحاصل . والشدائد الطارئة . التى يكون من أهونها المظاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ، فان ذلك من الضرورى أن يحصل ، ومما جرى به الالف والعادة . . ولقد كان من حديث ورقة للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليتنى كنت حيا اذ يخرجك قومك . . لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودى « بمثابة التأويل لهذا الضم الشديد الذى حصل من جبريل عليه السلام له - صلى الله عليه وسلم . فان التاريخ الذى مر به ، والأهوال التى لاقاها ، والعنف الذى واجهوه به . والخصومات التى أيقظوها . والحروب التى خاض غمارها . كانت تطبيقا لتلك الصورة التى مثلها أمين الوحي . وتصديقا - كذلك - لقول ورقة بن نوفل لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودى . وقد دأب الناس على مقاومة الحق . والمظاردة لأصحابه ، والعداوة لأهله ، وقديما قال القائل أن قول الحق لم ينع لي صديقا . . . ولكن محمدا - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل ، والخوف الذى اعتراه ، والهلع الذى أصابه . وتنبى ورقة باخراج قومه له ، وعداوتهم اياه ، لم يشن ذلك من عزمه ، أو يقلل من طموحه ، أو يطفىء نار شوقه لبلوغ الغاية التى كان مترقبا لها ، متلهفا عليها ، وظل بعد هذا العنف والعناء ، والجهد والتعب . يترقب بفارغ الصبر أن تتكرر تلك الحادثة ، وكان بصره دائما أبدا متطلعا الى السماء التى بزغ منها النور ، ولبع فيها النجم .

وطلعت منها الشمس . . . وكان قلبه مرتبطا بغار حراء الذى كان يمنا عليه ، والذى كان ميدانا لهذا التجلي . وموطنا لتلك الرحمة . فلما فتر عنه الوحى ظلت جوانحه تغلى ، وعروقه تفور بالدم ، وفؤاده يضطرب ، وأخذ اليأس من الخير يعاوده ، والكراهية للدنيا تعتريه ، الا أن كلمات خديجة « والله لا يخزيك الله أبدا الخ » كان لها صدى طيب . ووقع حبيب ، ورجع موسيقى حلو . يرددها بينه وبين نفسه فيعاوده الرجاء بعد اليأس . والأمل بعد الاخفاق ، والاطمئنان بعد القلق ، والاقبال بعد الادبار ، ويحس كأنها تلامسه يد العناية الالهية فتملأ قلبه - من جديد - ايمانا به . وثقة فيه . واقبالا عليه ، وتراميا على أعتابه . ومعاودة للصلة به أقوى مما كانت وبخاصة اذا شعر أن هذا الفراغ الذى يملؤه باليقين منه لا يزال عامرا به . متجها اليه . لا يزاحمه فيه شريك ، ولا يطارده عنه مسلط ، أو يغلبه عليه جبار . .

وهذه البطولة التى تبنت من السيدة خديجة رضى الله عنها - مع أن الزوجة أسبق الى الجزع والفرع من الرجل ولا سيما اذا كان زوجها - تدل على العزيمة القوية ، والإيمان الصادق ، والعقل الراجح . والرأى السديد ، وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجم بلسم لجراحه ، وراحة لنفسه ، وظل له اذا اشتدت حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفق الأيام والليالى ، وصدق الله العظيم اذ يقول . . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فان الرجل قد تصيبه المتاعب . وتعتريه الهموم والآلام . وتضيق الدنيا فى وجهه . وتلتوى المسالك أمامه . فلا يجد بصيص النور الا فى وجهها ، ولا تمسح عنه الدموع الا يدها ، ولا يداوى جراحه غيرها . وهى التى تحمل همه . وتزيل غمه . وتخفف مصابه ، وأوصابه بما تضمه له من اخلاص ، وتختزنه من ود . وترجوه من خير . وكذلك كانت سنة الله فى خلقه لا ليكمل أحدهما الآخر وكفى . ولكن لتكون سعادته منه ، وهكذا جرى نظام الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا . .

ما ودعك ربك

وعلى الرغم من الخوف الذي اعتراه - صلى الله عليه وسلم - حينما رأى الوحي للمرة الأولى وجاء الى خديجة رضى الله عنها يرجف فؤاده قائلاً زملونى زملونى وقولها له والله لا يخزيك الله أبداً . فان الحنين اليه كان يملأ قلبه . والتفكير فيه كان يستنفد فراغه ، والخوف من انقطاعه عنه كان لا يفارقه ، ولقد كان شعوره بالشوق الحار الى معاودة الوحي اياه ، وملاقة جبريل له . يقض مضجعه ، ويملك عليه تفكيره ، ولهذا كان دائم الرغبة فى تكرار ما حدث ، ورجوع ما كان . وبلغ من حنينه الى الملك ، وظمئه الى مشاهدته ، أن كان يذرع الأرض بقدميه صاعداً الى حراء ، أو هابطاً منه . متلفتاً تارة ، أو ذاهلاً فى نفسه تارة أخرى ، كأنما هو قد افتقد شيئاً فهو يبحث عنه ، أو يفكر فيه ، وربما أرهف سمعه لصوت يطرقة ، أو تداء يدوى فى أذنه ، ولكنه لا يعود من ذلك كله الا بالحرمات . ولا يؤوب الا بالحسرة ، ولا تزال سحابة هذا الحزن فوق رأسه ، لا تفارقه ولا تخيم بعيدة عنه ، ثم يزيد من ذلك كله ، ويضاعف منه . قالة السوء من المرجفين الذين كانوا يتريصون له الآلام والأحزان . والذين كانوا يملأون مكة أن محمداً قد قلاه ربه وتركه ، فلم يعد بينه وبينه من الاتصال ما كان يزعمه ، ولا من الوحي ما كان ينقل اليه أوامره . ولقد انقطع عنه خبر السماء ، وأصبح لا يروى خبراً . ولا ينقل حديثاً ، ولا يؤلم المرء ، أو يحز فى قلبه ، أو يكدر صفوه . أو يسىء الى نفسه . كالشدة بعد الرخاء ، والاحجام بعد الاقدام ، والنقمة بعد النعمة . والضيق بعد الفرج ، والشر يحيى بعد الخير . . . ولقد ظل هذا الحرمان مدة تتراوح الى أربعين يوماً أو أكثر كانت أشد ما لاقى - صلى الله عليه وسلم - من عنت الأيام . وصروف الليالى . الى حد أنه كان من كثرة ضيق احتماله . وقلق خاطره . وحيرة نفسه ،

والم قلبه ، وخوفه أن تنقطع صلته بربه التي كانت متمثلة في هذا الملك الذي يربطه به ، والوحي الذي كان يدنيه منه . أن هم أكثر من مرة أن يلقي بنفسه من قمة الجبل ارضاء لخالقه الذي غضب عليه . فكف عن الاتصال به ، وقطع همزة الوصل التي كانت قائمة بينه وبينه ، ولا يحوله عن تلك الخطة الانتحارية الا صوت ذلك الهاتف الذي يقول له لا تفعل يا محمد فأنت رسول الله حقا . . . ونحن من جانبنا نتصور هذه الفترة أسلوبا من أساليب التشويق الذي يقول عنه علماء التربية انه أحسن الوسائل للتعلم بالمطلوب والبحث عنه ، والتطلع اليه ، والرغبة فيه . والحرص عليه ، والتلقى له . ووعيه وعيا لا يخامره شك ، ولا يدانيه ريب ، ولا يداخله تردد . . . وقد كانت كل خطوات جبريل معه - صلى الله عليه وسلم - تهديبا وتأديبا ، وثقافة وتربية ، وارشادا وتعلينا ، ليكون بعد ذلك أحسن الأمثلة والنماذج للانسانية كلها في طموحها وتطلعها . ورقبها وتقدمها . وتقويمها واصلاحها » لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

على أن الوحي بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه . وشفى غيظه ، وأذهب غليله . وأرضى خاطره ، وبيد همومه وأحزانه ، مما أسبغ عليه من بر . وما منحه آية من احتفال واحتفاء ، وأعطاه آية من خير . وقدمه له من عون ، وأضفاه عليه من معروف ، وأثساعه فيه من أمل ورجاء ، وجعله له من تقدير واحترام ، وقد ظلت قرينش بعده تكاد تميز من الغيظ على أن ينال هذا الفضل ، ويصل الى تلك المرتبة ، وأنه ينزل عليه القرآن الذي يواسي أحزانه . ويطارد همومه ، وينوره به ، ويعلمه أن ربه لن يتخلى عنه . ولن يتركه وحده لعصاة البشر تكيد له . أو تنال منه « والضحي والليل اذا سجي ما ودعك ربك وما قلا . وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - باجماع المنصفين من فحول البلاغة وأساتذة البيان ، لا يدانيه أديب ، ولا يدرك شأوه فصيح . ولا يجري في حلبته عبقري ، وقد وجدنا في هذا الخطاب الذي وجه اليه ، والأسلوب الذي تحدث به الوحي . نمطا من القول ، ولونا من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل . سخره بيانه ، وامتلأت به نفسه ، واحتز له وجدانه ، وطرب له فؤاده ، وقوى به يقينه ، وتيقظ به أمهه ، وارتفع الى سماء عالية من اعتزازه بالله ، وارتباطه به ارتباطا أنساه ما كان يعانيه من مرارة الحرمان ، ومضاضة الفراق . ولوعة القطيعة . . ورأى

صلى الله عليه وسلم فى تلك الآيات من سورة الضحى خطابا يلامس شغافه • ويثير أحاسيسه ، ويزيل ما كان يشكو منه ، فهو يقسم له بالضحى والليل • وبهما يذكر ليل همومه • وظلام غمومه • وضيق صدره • وحرج نفسه ، وتراكم هواجسه وأحزانه ، وكأنها كان يتخيل باقترانها ، ومجئ الضحى أخذًا بتلابيب الليل ، أن مع العسر يسرا ، ومع الضيق فرجا ، فيطامن شامسه ، ويبدأ تأثره • ويسكن بلباله • ويسكت عنه الغضب الذى كان يتحكم فيه • وفى ذلك العرض الاجمالي لتاريخه يتبين فأوى • ووجدك ضالا فهدى • ووجدك عانا فآغنى • تأخذه الدهشة ، لأن ذلك تصوير ناطق ، وتعبير صادق ، لم ينحرف عن الواقع وكأنما كان حاضرا معه • يلامس أحاسيسه • ويسجل آماله وآلامه • ويحصى عليه نبضات قلبه • وهواتف نفسه ، وينتقل من تلك الدهشة التى تبعث فيه الرهبة والخشية ، والمهابة والفرع ، الى قول المولى جل جلاله ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر • وأما بنعمة ربك فحدث • فيجد الخنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف • ويستريح الراحة كلها لتلك الوصية النبيلة التى يؤكده الله طلبها منه ، وحنه عليها ، لأنه ذاق اليتيم • وعانى مرارة الحرمان وذل الفقر ، وكأنما كان يناجيه فؤاده بأن شيئا من ذلك كله لا يكون منه أبدا ، ثم يعود الى ذلك الصوت الذى يهز ضميره • ويحرك عواطفه « وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » فينمده سبحانه وتعالى على هذه المنن ، وتلك النعم • وذلك الفضل وهذا الوعد المملو • والبشارة الصادقة ، التى تصدر عن الكبير المتعالى • •

وهكذا جو من البهجة والرضا ، والسرور والفرح ، والغبطة والسعادة • والأمل والارتياح ، والحب والود ، والإقبال والقبول ، ليئسى - صلى الله عليه وسلم - بشدائده التى كانت • وكروبه التى مضت ، وهو ما بين الاحتفال بشأته ، والعناية بأمره • والإهتمام بشخصه • والوعود التى تضعك فى وجهه ، والرعاية التى تحيط به من كل جانب فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض • • لكنه - صلى الله عليه وسلم - الى هذه اللحظة كأنما كان يقف وحده فى الميدان ، لا أحد يبادل الشعور بهذا الصراع الذى يعانیه ، أو الشدائد التى يقاسمها ، فإذا جامله انسان بكلمة طيبة يهدى بها نفسه ، أو يسكن بها قلبه ، أو يخفف بها مصابه • فهى لا تعدو أن تكون عزاء تقليديا لا يتجاوز طرف اللسان • وهو اذا تذكر تلك الفجوة التى تفصله عن الناس • والمسافة التى تجعل قلوبهم فى ناحية وقلبه هو وحده فى ناحية عز عليه ذلك وآله ، لأن المشاركة بالوجدان غير المشاركة باللسان • فلما آمنت زوجته خديجة ، وشساركنه فى وجدانه وشعوره • وعقيدته

وإيمانه ، وصارت تصلى معه الصلاة التى علمه اياها جبريل ، وتسببها
 بالوضوء والطهارة ، وتقرأ ما يقرأ - صلى الله عليه وسلم - من القرآن ،
 وانحصر تفكيرها كله فى الوقوف الى جانبه بمالها وأهلها وذوى قرابتها ،
 وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر اليه كزوج ، الى مؤمنة مخصصة
 صادقة تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معانى الزوجية ، تترضاه
 وترجو أن يشملها بما أفاض الله عليه من الهبلى والارشاد ، والايان
 واليقين ، والثقة والاعتزاز . وكان احساسه منها بذلك كله ، يشهد
 أزره ، ويقوى ساعده ، ويملأ نفسه سخرية من هذا الذى يلاقيه من
 العنت والكيد والايذاء والصد . والاعراض والانصراف . والوقوف فى
 وجهه ، وتكذيب الناس له ، واتهامهم اياه بالسحر أو الشعر . وأن
 هذا الذى يدعوه به أساطير الأولين اكتتبها ، صار مع كل خطوة يخطوها ،
 أو حركة يتحركها لا يشك قليلا من الشك فى أنه منتصر لا محالة طال
 الأمل أو قصر وقد آمن به بعد ذلك من الغلمان على بن أبى طالب
 الذى كان يعيش فى بيته ، ويتربى فى كنفه ، ويترعز فى جواره ،
 والذى أراد النبى - صلى الله عليه وسلم ، بهذا الصنيع معه أن يرد
 لعنه أبى طالب احسانه اليه ، ومعروفه له . ونعمته عليه ، اذ كلفه
 صغيرا بعد موت جده ، وكان يرأمه ، ويحذب عليه . ويهتم به ، ويبالغ
 فى اكرامه ورعايته . وعلى على صغر سنه كان صورة طيبة لاستقامة
 الشبان . وحسن خالهم ، وطهارة أعراضهم ، وكمال أديهم ، وقوة
 ارادتهم ، وحدة ذكائهم . وبعدهم عن سفاسف الأمور ، ومرذول العادات ،
 ولم يتدنس بدنس الجاهلية ، كما آمن فى هذا الوقت مولى النبى
 - صلى الله عليه وسلم - زيد بن حارثة ، وحبيبه أبو بكر رضى الله عنه ،
 وكان وجيها فى قريش يهابونه ويحبونه . ويكبرون رأيه وتفكيره ، وكان
 لايمانه هذا أثر بارز ، وفائدة عظمى . حيث قفى على أثره عثمان بن
 عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى
 وقاص . وغيرهم من الصناديد الذين كانوا أشبه بطلائع الجيوش الذين
 يتوقف عليهم نجاح الجولة الأولى ، والانتصار فى المعارك ، ولقد كان
 لهم الى جانب فضل سبق الفضل فى كثرة سواد المسامير لأن اسلام
 كل واحد منهم كان باعثا لأهله وعشيرته وأصحابه أن يكونوا على
 دينه ، وفى الجانب الذى يختاره وينحاز اليه

ثبت يدا أبي لهب

مما لا شك فيه أن ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من ظلم غيرهم كما يقول القائل وذلك لأن الانسان فى موقفه معهم بين أمرين: أحلاهما مر • اما أن ينتقم لنفسه منهم وهو بهذا يهدم بناء القرابة • ويقطع حبل الرحم • ويفقد بعداوته لهم درعا كان من حقها أن تدفع عنه الأذى ، وترد الكيد ، أو يسكت على الأذى الذى يصيبه ، فيستند وجهه • وتزيد آلامه • لأن احساسه بأن ما يصيبه من الأهل أو القرابة سيجعل الوخز شديدا • والألم مضاعفا ، والوجع عميق المدى • ولقد كان أبو لهب اللعين عما للنبي صلى الله عليه وسلم يجتمع مع أبيته فى عبد المطلب جده ، تربطه به آصرة القرابة ، ووشيجة الرحم ، وصلة اللحم والدم • والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم ، وأكثر حمية لما ينال أهلهم وذوى قرباهم • لا يسكتون على ضيم يسيبهم • أو ضرر يلحق بهم • أو مكروه ينزل بساحتهم ، ومعظم تلك الحروب التى كانت تراق فيها الدماء ، وتزهق فيها النفوس ، يرجع سببها الأصيل الى الحمية للقرابة ، والدفاع عن العرض ، والانحياز الى جانب النسب ••• والعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور كيف كانت سخيمة نفس هذا الرجل ، على ما بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم من صلة القربى التى كان من حقها عليه ألا يتناوله بالأذى ، أو يتناول عليه بالعدوان ، أو يلحق به الضرر • ولا أن يحقد عليه هذا الحقد ، ويبغضه ذلك البغض ، أو يشتغل بعدوانه عليه ، والصد عنه ، والتنفير منه ، وإقامة الأشواك فى طريقه ••

وحين يقارن العقل البشرى بين أبي لهب وهذا وأخيه حمزة • وكلاهما أبوه عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم • وكلاهما عمه كذلك ، وقرابته منهما واحدة ، وصلته بهما على حد سواء •

يأخذه العجب ، ويزداد غرابة ودهشا ، إذ أن أحدهما خصم لدود ، وعدو كاشح . والآخر صديق حميم تأخذه بالنبي صلى الله عليه وسلم الشفقة ، وتعطفه عليه القرابة ، ويبالغ في الوقوف الى جانبه ، والدفاع عنه ، والغضب للغياب الذي ينال وجهه ، أو يلوث ثيابه ، ولقد دفعت الحمية « الحمزة بن عبد المطلب » ان يعلن ايمانه بإبن أخيه ، والتصديق لدعوته ، والانصواء تحت رايته ، والدخول في دينه ، ردا على ما بلغه عن أبي جهل من تطاوله على محمد صلى الله عليه وسلم وسخريته به . يقول الدكتور هيكل ، لقد مر أبو جهل بمحمد يوما فاذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فأعرض محمد عنه . وانصرف ولم يكلمه ، وكان حمزة عمه وأخوه من الرضاع ، ما يزال على دين قريش ، وكان رجلا قويا مخوفا ، وكان ذا ولع بالصيد ، فإذا رجع منه طاف بالكعبة قبل أن يعود الى بيته ، فلما جاء في ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أبي جهل ملأه الغضب ، وذهب الى الكعبة ، ولم يقف مسلما على أحد ممن كان عندها كعادته ، ودخل المسجد فألقى أبا جهل فقصد اليه حتى اذا بلغه رفع القوس فضربه فشجبه شجرة منكرة . وأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسما للشر . وخوفا من استفحاله ، معترفا أنه سب محمدا سببا قبيحا . ثم أعلن اسلامه . وعاهد محمدا على نصرته والوقوف الى جانبه والتضحية في سبيله حتى النهاية وهذا هو فرق ما بين حمزة وأبى لهب التي نزلت في سورة . . فهل يدور بخلدنا أن القرابة غير القرابة ، والوشيجة غير الوشيحة ، والدم غير الدم ، أم ان الجهل هو الذى يطمس على البصائر . ويحول بينها وبين الحق . ويكفى أن التاريخ انذى لا يظلم أحدا ، أنزل كل انسان المنزلة التي تليق به ، وبوآه المكانة التي تناسبه . وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من النار التي يصلها . الى جانب ذلك الذل الذى أصابه ، والعار الذى لحق به ، وامراته حمالة الحطب في جيدها جبل من مسد وهو ازدرأ لم يكن محمد ليقدر عليه . ولا يستطيع أن يلحقه بأبى لهب . ولو أن أحدا صنع ذلك بأبى لهب لزمجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعدها . وجعل الأرض ترتوى بدماء القتلى ، وبخاصة لهذا الذى نال زوجته من المهانة التي لا تحتمل والازدرأ الذى لا يطاق ، وللمرأة عند زوجها تقدير واحترام يجعلانه بوجوده بنفسه من أجلها ويضحى بحياته في سبيلها . وهي بعد لم تكن امرأة من دهما الناس ، ولا من سوقة العرب ، وإنما هي من السادة « العوراء أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان بن حرب » ولم تكن تحصل حظيا ولا تمتهن عملا من الأعمال التي تزرى بها . أو تنال من شرفها . ولكن هكذا جرت عادة العرب أن يقولوا فلان يحطبل فلان اذا كان ينم عليه ويعزى به . وقد ساهمت في خصومتها للنبي صلى الله عليه وسلم لتكون في جانب

أخيها وزوجها .. ولقد ذهل أبو لهب ودهش لما نال منه محمد هذا المنال الذي جعل القرآن يفضحه ، ويهتك عرضه ، ولم يكن هو يملك إلا الحقد الدفين ، والعداوة الكاشحة ، أما زوجته فقد صنعت ما تصنعه المرأة ، وذهبت من غيظها بسلي جزور ، ورمت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد لربه في إحدى صلواته .

وسبب هذه القصة الطريفة أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتر عنه الوحي تلك المدة الطويلة التي كانت مجالا لتقولات الأعداء . والاشاعات المغرضة التي أرسلها خصوم الدعوة ، وأعداء الرسالة . وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من صناديد الرجال وأبطال الحروب ، وذوى المكانة المرموقة في العرب ، وكانت الدعوة ، الى هذه اللحظة - في الخفاء لا يجروا أحد على إعلانها . ولا يستطيع انسان أن يرفع رايها ، وقد اتخذ المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم مخبأهم الذي يجتمعون فيه ، ويتدارسون أمورهم ويرسمون خطوطهم لئلا يتعرضوا للأذى ، أو يستهدفوا للضرر ، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات فلما نزل عليه قوله جل جلاله ، وأنذر عشيرتكم الأقرين « امتثل أمر مولاه وصعد الصفا والمروة ونادى « يا صباحاه » وهي الكلمة التي كانوا يقولونها عند الدعوة الى الحرب ، والنفير للقتال . وكانوا يرون تلبيتها ، والاجتماع لها ، من أوجب الواجبات ، وأقدس الأمور ، فلما سألت عليه شعاب الحى من كل ناحية ، وغص بهم المكان ، قال لهم « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى .. قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا .. فقال صلى الله عليه وسلم انى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، انكم لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالاحسان احسانا . وبالسوء سوء . وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا » والى هنا كان المنطق الفطرى يقضى بصحة الموقف ، وسلامة العاقبة ، وقبول الدعوى . لأنها صميم الحكمة ، ومحض العقل ، وعين الصواب ، اذ أتى صلى الله عليه وسلم - البيوت من أبوابها - كما يقولون - وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد ، وقد أخذ منهم صكبا بصدقه ، واستقامة أسلوبه ، وسلامة أهدافه ، وكون دعواه خالية من الغرض والهوى ، ولم يكن اصرارهم على الباطل بعد ذلك كله الا مكابرة مكشوفة ، وعنادا مفضوحا . وكان من اللائق بهم - لو أنصفوا - أن يتحاشوها ، ولذلك كان هذا الرد من أبي لهب « تبا لك ألهذا جمعتنا » عنوانا على الطيش والحمق ، والهزال والضعف والعته والجهل ، لا يستحق الا هذا الردع القاسى ، والزجر الأليم ، والتوبيخ البالغ « تبت يدا أبا لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد »

ولم يكن في جديدها ذلك الحبل ، وإنما هو التصوير المزرى الذى يحيط من شأنها ويجعلها فى ابتذال حالها وانحطاط قدرها أشبه بالسوقة الذين يحترفون الخدمة ، أو يمتنون أتفه الأعمال ، ويقول الشيخ مخلوف فى التعليل على قوله تعالى « فى جديدها حبل من مسد . » الجيد العنق . والمسد ما مسد أى قتل فتلا شديدا من الحبال من ليف أو جلد ، أو من لحاء شجر باليمن يسمى المسد . أى فى عنقها حبل مما مسد من الحبال ، وهو تصوير لها بصورة الخطابة التى تحمل الحزمة وتربطها فى عنقها بحبل ، تحقيرا لها لتمتعض من ذلك هى وزوجها ، اذ كانا فى بيت العزة والشرف . ومنصب الثروة والجدة ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها تكون فى جهنم على الصورة التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل حزمة الشوك لتلقيها فى طريقه - صلى الله عليه وسلم - ايداء له ، فلا تزال على ظهرها فى النار حزمة من حطب شجرة الزقوم ، أو من الضريح ، وفى جديدها حبل مما مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله من جرمه ، وقد هلكت هى وزوجها كافرين » . . .

وقد كان فى الشعر الجاهلى هجاء يتناول الأخلاق والأعراض . وينال من العلية والسفلة ، والكبار والرؤساء . والعظيم والحقير ، وكان العرب يثورون ثورة عارمة لهذا الهجاء . الا أنه كان فى الكثير الغالب من ذلك النوع المبتذل . أو الأدب المكشوف . يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه ، وهذا الهجاء الذى أصاب أبا لهب كان من طراز جديده . وهو مع هذا كله لم يعد أن أظهره مع ماله وأهله فى هيئة الدليل الحقير ، أمام عقاب الله يوم القيامة « ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ؟ » . . . وأمام هذا التهديد لرجل من صنائيد العرب كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تبندى عهدا آخر ترفع فيه رأسها ، وتجار فيه بصوتها ، وتسفه فيه معبودات المشركين ، حتى اذا ما بلغ عدد المسلمين نحو الثلاثين . أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة قائلا له . . . « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . وهناك تجاوزت مرحلة الهمس الى مرحلة الاعلان والتصريح . . .

رجالان

رجالان كانت الدعوة الاسلامية تترقب بفارغ الصبر لحظة انجياهما اليها ، ووقوفهما الى جانبها يدافعان عنها ، ويشدان أزرهما ، ويجعلان كفتها ترجح على سواها ، لتأخذ سبيلها الى الاستقرار ، وطريقها الى الظهور ، وكلا هذين الرجلين كان بألف رجل ، ثبات جنان ، وقوة حجة ، وشجاعة نفس . وصرامة رأى ، ومثل هذا اللون من الناس يكون له أثره البالغ في الجبهة التي يعمل فيها ، والميدان الذي يكون مجالاً لكره وفره ، ومحمد صلى الله عليه وسلم اذا ما كان في معسكره هذان الرجلان يستطيع أن يطمئن الى أن خصومه يحسبون حساب ما عساه أن يحصل بينه وبينهم من خلاف . أو يحدث بينه وبينهم من عداوة ، وأحد هذين الرجلين الحمزة بن عبد المطلب عمه وأخوه من الرضاع وصديقه الحميم الذي كان يفتح له قلبه ، ويخلص له وده ، ويتمنى أن يطوى عليه جوانحه ، وثانيتها عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي كان من الأفاضل في ذكائه وعقله وشجاعته وأقدامه وانصافه وعدله ، ورجولته وحميته وغيرته للحق ووجه له ودفاعه عنه .

أما الحمزة فان سبب اسلامه - كما علمنا - غضبه لابن أخيه ، ودفاعه عنه ، ووقوفه الى جانبه ، حتى لا يتناول عليه سفيه ، أو يسئ اليه أحق ، أو ينال منه دعي ، أو يعتدى عليه سليط . وقد رووا أن أبا جهل قسح الله وأخزاه تلاقى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ولطمه على وجهه . وسرى ذلك الخبر في شعاب مكة ، وقابله الناس بما يستحقه من الاستنكار والسخط ، والوجوم وعدم الارتياح . وكان الحمزة في لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالرياضة في الصحراء . فلما أب من رحلته ، وانتهى اليه هذا الخبر .

لم يستطع الاغضاء عنه ، ولا السكوت عليه ، ولم يحتمل مع كفره •
 وكونه جنديا من جنود المعارضة لابن أخيه أن يصبر على هذا الضيم الذي
 أصابه في رجل من أهله ، فذهب الى المسجد ، وأخذ بتلابيب أبي جهل
 وضربه بالقوس على ناصيته • ولما أراد بعض أصحاب أبي جهل أن يشاروا
 له أمرهم أن يكفوا وقال لهم أنا الباغي وعلى الباغي تدور الدوائر ،
 وأفهمهم أنه تطاول على محمد ظلما وعدوانا ، وفي هذا الوقت رأى الحمزة
 أن يواصل سعيه لشفاء الغليل الذي كان في نفسه من أبي جهل ليريه
 أنه لن يتخلى عن ابن أخيه • فذهب الى محمد - صلى الله عليه وسلم -
 وأعلنه أنه قد دخل في دينه ، وأنه منذ ذلك اليوم صار جنديا من جنود
 الله في ميدان الدعوة الى دينه ، والدفاع عن شريعته ، ثم ظل الى جانبه -
 صلى الله عليه وسلم - وكان الرسول يحبه حبا لأمزيد عليه ، وسيمر بنا
 في الحديث عن مقتله كيف كان حزنه عليه شديدا •

وأما ثاني هذين الرجلين الذي هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
 فقد كان لاسلامه اتصال وثيق باسلام حمزة بن عبد المطلب ذلك أنه أخذته
 الحمية لما فعل حمزة بأبي جهل وهو خال عمر لكنه لم يشأ حينئذ أن
 يواجه حمزة لما يعلمه من شجاعته وغضبه كثير من أبناء عبد المطلب ، فأخذ
 سبيله الى محمد ليقتضى على أصل الداء ، ويقتل ميكروب هذه العلة •
 وبينما هو في الطريق لقيه أحد أصحابه ، فقال الى ابن يا عمر ، فأخبره
 الخبر ••• فأنكر عليه قصده ••• وقال له كان أولى بك أن تفعل ذلك مع
 أهلك وأقرب الناس اليك ، لقد صببت أختك هي وابن عمك زوجها •
 وما كان عمر يدري من ذلك قليلا ولا كثيرا ••• فغلى دمه في عروقه ،
 وأحمر وجهه ، وبدأ عليه الخجل والارتباك ، وتحول غضبه على محمد
 الى غضب على أخته وزوجها ، وهنالك حول وجهه اليهما ليرى ماذا
 أصابهما ، ودخل عليهما كالأسد الهصور • يريد الفتك بهما ، ولما أن
 أشبعهما ضربا نظر الى وجه أخته فوجد الدم يسيل منه ، فأخذته الرحمة
 بها ، والاشفاق عليها • وسكن ثأره ، وهدأت حدته ، وكانت قد أخفت
 عنه بعض صحائف من القرآن كان يقرئها منها هي وزوجها خباب بن الأرت
 الذي اختفى عن وجهه حتى لا يناله منه عنف أو قسوة ••• فلما قال عمر
 لأخته ما هذا الذي وارثه عني ، قالت انه كلام رب العالمين • وطلب أن
 تمكنه منه • وتعطيه اياه ليقرأ فيه ، وكانت فاطمة في هذه اللحظة قد
 فهمت من ملامح وجهه • ونبرات صوته ، أن الله قد فتح قلبه ، فأخذت
 تبادلته عنفا بعنف ، وغلظة بمثلها ، فقالت أنت على الشرك والشرك نجس •
 وكتاب الله لا يمسه الا المطهرون • فطلب منها أن تقرأ هي ، فظلت تقرأ في
 سورة « طه » الى أن وصلت الى قوله جل جلاله « اننى أنا الله لا انا
 فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس

بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ، وهنالك
سكن غليانه . وهدأت ثورته ، وذهبت حدته ، وتحولت غلظته الى رقة ،
وكرهيته الى محبة ، وجحوده الى ايمان ، وأحس كأن الأرض تميد به ،
وأن السماء تنطبق عليه ، وأن يوم الحساب قد حضر ، وأنه قد قذف به
فى جهنم ، فصاح بأعلى صوته أين الطريق الى محمد ، وهنالك ظهر خباب
ابن الارت ، وقال له يا عمر انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة
نبيه صلى الله عليه وسلم . فانى سمعته أمس وهو يدعو ويقول
« اللهم انصر الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم بن هشام » فالتف
الله ياعمر ، فقال عمر عند ذلك ، دلنى يا خباب على محمد حتى اعلن اليه
اسلامى . وأخذ سيفه وجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم - وكان هو
وأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم « دار الندوة » فضرب عليهم
الباب . فقام رجل منهم ينظر من خلل الباب فرأى عمر متوشحا سيفه .
فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال حمزة أئذن لى يا رسول الله
أن ألقاه ، فان كان قد جاء لخير بذلناه له ، وان كان لشر قتلناه ،
وربما قال غير حمزة مثل قوله هذا الا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال
أنا أكفيكم شأنه . حتى اذا لقيه أخذ بتلابيب ثوبه ، ومجامع رداؤه وهزه
هزة انخلع لها جسمه ، وقال له ماجاء بك ، أما أن لك أن تنتهى حتى
ينزل الله عليك قارعة ، فقال عمر يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله .
فكبر النبى - صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف بها كل من كان فى داخل
الدار أن عمر قد أسلم . ويقول بعض المؤرخين ان عمر مشى الى المسجد
يعلم من فيه باسلامه ، فقام اليه نفر منهم يقاتلونه ويقاثلهم . فبينما هم
كذلك اذ أقبل شيخ عليه حلة فقال ما هذا فقالوا له صبأ عمر . قال رجل
اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون منه . أترون بنى عدى يسلمونه لكم ،
خلوا عن الرجل . وكان هذا المتكلم هو « العاص بن أبى وائل السهمى »
قال عمر وجئت أبا جهل بعد ذلك فلما طرقت بابه فتح لى وقال مرحبا
بابن أخى ، ما جاء بك ؟ قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت ، وأمنت
بمحمد . فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله ، وقبح ما جئت به . .
وأنت ترى كيف تغير موقف كل من الرجلين للآخر ، فلقد ابتدأت ثورة
عمر - أولا - من أجل خاله أبى جهل ، ثم كانت ثورته - ثانيا - من
أبى جهل وضد أبى جهل ، وهكذا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم » ولم يستغرق التاريخ الذى مثلت فيه قصة عدوان أبى جهل
على النبى صلى الله عليه وسلم وغضب حمزة من جراء العدوان على ابن أخيه
واعلانه الاسلام - كرد فعل لذلك - واسلام عمر وطرقه لباب خاله الذى
رده أسوء رد قائلا له قبحك الله . وقبح ما جئت به ، أكثر من أسبوع
واحد . . وعلى كل حال فقد أشاع خبر انضمام عمر الى معسكر المسلمين

الهلح والفرع فى نفوس المشركين ، وأخذ المسلمون يطوفون به على مجالس قريش ومنتدياتها ليقوعوا فى قلوبهم الرعب ، ولم يرض منذ أعلن إسلامه أن تظل الدعوة خفية يتوارى بها أصحابها . . وقال للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله السنأ على الحق وهم على الباطل ، قال له نعم يا عمر . فقال له علام نرضى الدنية فى ديننا ، وهنالك نزل عليه قوله سبحانه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وابتدأ - صلى الله عليه وسلم - مرحلة جديدة هى مرحلة الجهر بالدعوة والاعلان الصريح لها ، وهكذا كان تاريخ عمر بن الخطاب حافلا بالأمجاد . مليئا بالكمارم . يعطى الصورة الرائعة عن المسلم القوى . والحاكم العادل ، والجندى المجهول فى مؤازرة الحق . ومعاونة الانصاف وأداء الواجب . . وفى الوقت الذى ورم أنف كثير من الناس على أبى بكر أن تكون له الخلافة من دونهم كان هو يسانده ويعاضده ويقف الى جانبه . وينصح له ويشير عليه ، وكان أبو بكر لا ينسى له ذلك ولا يغمط له حقه ، وكان كلما أشار عليه بالرأى أو أضاء له الطريق ، قال له لقد كنت أولى بها منى يا عمر - يعنى الخلافة - ولعمري فضل التحرر والانطلاق ، وعدم الجمود فى الشريعة الاسلامية ، لأنه كان - حتى والوحى ينزل على رسول الله - إذا لم ينقدح الحكم فى ذهنه ، ولم يطمئن اليه ، ولم تظهر فيه حكمة التشريع ، يسأل ويستوضح ويعترض ، ولا يرضى أبدا أن يتقبل الحكم قضية مسلمة . وكأنما كان هو نفسه مدرسة للمسلمين يتعلمون منها حرية الرأى ، والعلة تدور مع الحكم وجودا وعمدا ، وأمثلة ذلك من القضايا والمسائل التى تدل دلالة واضحة صريحة على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان . . ولقد كان تاريخه كله رضى الله عنه ناصح البيان ، واضح السطور ، ليس فيه ثغرة ينقذ منها خصم ، أو يدخل منها عدو . والمسلمون يعتبرونه من الأفاض الذين يرجع اليهم الفضل فى تمكن دولتهم . ورفع رايتهم ، واعزاز مكانتهم وجعل المناوئين لهم ، أو الخارجين عليهم ، يحسبون لهم ألف حساب وحساب اذا أرادوا أن يعلنوهم العداوة أو الحرب .

والله يا عمى

كان لزاما على محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمره ربه بالجهر بالدعوة • وعلان الرسالة ، وبخاصة بعد أن انضم الى معسكره كبار الرجال ، وصناديد العرب ، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وحمزة بن عبد المطلب ، وهم قوم لهم منازلهم المعروفة ، ومكانتهم المحترمة ، وتقديرهم العظيم ، وبعد أن صار أبو جهل وأضرابه من المشركين المعاندين يشتغلون بالكيد له • والتنفير منه ، والتشويه لدعوته • والصد عنه • كان لزاما عليه أن يبرز في المحافل • ويظهر فى الأسواق • ويعتلى كل منبر يمكن أن يكون وسيلة من وسائل إيصال صوته الى الأذان والقلوب • ليستجيب له من يقتنع بصدقه ، ويدعن لدينه • ويؤمن بدعوته • ويطمئن الى أنه رسول رب العالمين • • وكانت هذه الحال بينه وبين قريش أشبه بالحرب الباردة التى يتناول فيها كل فريق خصمه بما يستطيع من ألوان الكيد ، وصنوف الإيذاء ، ومعانى الإيلام • التى يقلم بها أظافره ، ويقص أجنحته ، ويضعف قوته ، ويقطع الطريق عليه الى الرقى والنمو والتقدم والازدهار ، لكنه لا يرفع سيف الحرب عليه • ولا يعلن التعبئة العامة ضده ، لأنها وجدت أن محمدا تنعطف الى دعوته أفراد ، وتلتف به رجال ، وتدخل فى دينه أفواج ، والى جانب ذلك لا يخذله المنطق ولا ينقصه الحججة ، ولا يتجافى عنه العقل ، وهنالك أيقنوا بأن جاههم فى سبيله الى الزوال ، وسلطانهم فى سبيله الى التقلص • وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لامحالة ، لأن الدين الجديد الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم • وان لم يكن ملكا سيقوم على أنقاض ملكهم ، ولا سلطانا سينازعهم السيادة وهو يذيب الفوارق • ويمزج الطبقات ، ويكره التسلط ، ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب ، والثروة المعتصبة ،

والغنى عن طريق غير مشروع ، ولا يمكن للأناية . الجوفاء ، ولا الأثرة .
البغيضة . وقد كانت السدانة على البيت الحرام ، والرياسة على العرب ،
وحق الفصل فى الخصومة ، والحكم فى الديات . والتقدم فى المجتمعات .
سمات بارزة لهم على غيرهم ، واذا ما استرسل ذلك الداعى فى دعوته
الجديدة . فسوف يكونون سوقة بين الناس ، لا يمتازون بفضل ولا شرف .
ولا يسبقون بجاه ولا نفوذ . ولا يشرفون بحسب ولا نسب ، لأن محمدا
يقول الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى
الا بالتقوى . . وأمام ذلك أجمعت قريش على الوقوف فى وجه محمد ،
والكيد له ، والصد عن سبيله ، مهما كلفهم ذلك كله من ثمن ، وقد
شرعوا ينظرون فى كل الأساليب . ويجريون مختلف الأنواع التى يمكن
أن تكون حربا باردة . وأخيرا وجدوا أن أبا طالب يمكن أن يساعدهم على
ذلك ، وبخاصة وهو لا يزال على دين الأشياخ . يؤمن باللات والعزى ،
ويسجد للأوثان والأصنام . وقد ظنوا أنه يحدب على محمد ويعطف
عليه ارضاء لرغبة التبنى لا أكثر ولا أقل فعرضوا عليه غلاما وسيم
الشكل ، جميل الطلعة ليجعله منه فى مكانة محمد الذى يتبناه ، على أن
يسلم اليهم محمدا ليفعلوا به ما أرادوا فقال لهم أبو طالب بنس الرأى
ما ترون ، فقالوا له يا أبا طالب ان كان محمد يريد ملكا ملكناه علينا ،
وان كان يريد مالا أعطيناه المال ليصبح من سراة الناس . وعليه بعد ذلك
أن يكف عن آلهتنا التى ازدرأها . ومعبوداتنا التى حقرها ، والا كان
لنا ولكما شأن آخر . وما كان أمام أبى طالب أمام هذا القول الا أن يظل
واقفا موقف الحيرة ، فابن أخيه لا يمكن أن يتركه لهم ينالون منه ،
أو يكيدون له . وفى الوقت نفسه لم يكن من السهل عليه اغضاب العرب ،
ولا الوقوف فى وجههم ، وتحمل مسئولية عداوتهم ، وفى تيار هذه
الوجدانات المتناقضة ، والعواطف المضطربة ، يذهب الى محمد صلى الله
عليه وسلم ليأمره أن يكف عنهم ، فلا يبألخ فى ايلامه لهم . وعدوانه
عليهم ، واحراجه اياهم . وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذى
عرضوه ، والعدة الطيبة التى وعدوا بها . وفهم صلى الله عليه وسلم من
حديث عمه له أنه يريد أن يتخلى عنه ، فلا يقف الى جانبه ، ولا يمد يده
اليه ، ولا يفضب من أجله ، ولا يرد كيدهم الذى يدبرونه له فى الخفاء .
فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ، ويعول على خالقه ،
ولا يستعين الا برب السماوات والأرض . ثم قال له فى لهجة المظمئن
الواثق « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى . والقمر فى يسارى ،
على أن أرجع عن هذا الأمر . مارجعت عنه أو أموت دونه » . وحينئذ
رق قلب أبى طالب وقال له يابن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك .
ولا أخذك . ولا أسلمك لعدوك ، ولا أجعلك تقف وحدك فى الميدان .

ومن حق الأديب الماهر ، والفيلسوف الكبير ، واللوحى العظيم .
والناقد البصير ، أن يقف أمام هذا الرد الذى صدر عن محمد صلى الله
عليه وسلم فى الوقت الذى تبيض فيه الأحلام ، وتزل العقول وتختل
البيصائر ، وتذهل الأفكار . وتضل الأبواب ، ويحتاج المرء ازاء هذا التيار
المتضارب الى التروى والامعان . والمقارنة والترجيح ، والنظر والتأمل ،
على أنه مهما تروى وتأمل وقارن أو قدم رجلاً وآخر أخرى - كما
يقولون - فإنه لا يصل الى هذا الرد الحاسم ، ولا الى هذه الحكمة
« والله ياعبى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى » ولا يمكن
أن يكون هناك ابناء نزيه ، ولا كبرياء عظيم ، ولا ترفع كريم ، وراء هذا
الرفض الذى جعله محمد صلى الله عليه وسلم عنواناً على الرجولة الكبيرة .
والطهارة البريئة ، والنظافة الكاملة ، وهو رفض نبع من قلب امتلاً بحلال
مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة . ولا لاكذيب السلطان ،
ولا لدنيا الناس . فهل كان يتروى فى نسجها . أو يتأنق فى صوغها .
ويقول قبل أن تصدر منه . لتنتلق انطلاق السهم ، وتدوى دوى المدفع .
وتسير مسير الشمس . فلا فم الا وهو يرددها ، ولا رأس الا وهو واعياها .
ولا عقل الا وهو مكبرها ، ومعجب بها ايما اعجاب . أم صدرت عن
طبع . وانحدرت عن سجية ، وحدثت من غير تكلف ، وكان شأنها شأن
الشهيق والزفير تستجيب له النفس من غير عناء ولا مشقة . وهى وحدها
تطوى ذلك التاريخ طياً فى ماضيه وحاضره . وتبرز لهذه الأمة سيرة
منقدها واضحة لا غبار عليها . ناصعة لا غموض فيها ، بسيطة ليس
عليها طابع التكلف ، الذى يلتجئ اليه الضعفاء أو المزورون . وفى
الحق أن اليقين الذى عمرت به نفسه ، والايان الذى نارت به بصيرته ،
والثقة بالله التى امتلأ بها قلبه ، واعتقاده الضخم فى بارئ النسم .
ومصرف الكون ، جعلته يسخر من كل هذه المظاهر ، وما الشمس
والقمر ، والنجوم والكواكب ، والأرض والسماء ، والجاء والسلطان ،
والنفوذ والحكم ، والرياسة والملك ، وما سوى ذلك وذلك . أليست
كلها صنعتها جل جلاله ، ومن اثر قوله كن ، ونتيجة حتمية لاوامره ،
وأثرا بارزا لقدرته ، ولو لم يشأها لم تكن . سبحانه خالق كل شئ ،
وهو على كل شئ قدير ، بيده مقاليد السماوات والأرض .

على أن الذى امتلأت يده به ، واطمأن قلبه اليه ، وظفر به من ربه
كان أعظم قدراً ، وأعلى شأنًا ، وأغلى ثمنًا من الشمس والقمر ، وقد حظى
برضاه سبحانه وتعالى عنه . واختياره له ، وأقم قلبه الكبير
بالارتباط به ، والتفكير فيه ، والتسبيح بحمده ، وهى ثروة -
كما نرى - لا يكون الشمس والقمر بجانبها الا هباء . وما المال والجاء

والسلطان والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه الا كمالا نفسيا يطلبه المرء ليجبر به نقصا فيه ، أو يغطي عوارا لحقه ، أو خللا أصابه ، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - صنعه خالقه على عينه ، وجملة بقدرته . وكملة بعنايته ، ووقع منزلته ، وأعلى مكانته ، وجعله سيد انصطفين الأخيار ، لم ينله رجس الشيطان ، ولم يصبه سفاسف الناس ، ولا دنس الخلق . ولا طمع الصغار ، فكان قلبه طاهرا . وفؤاده نظيفا ، وضميره نقيا ، وهيمته عالية . ونظره بعيدا ، وعقله رشيدا ، وإيمانه صحيحا ، ودينه قويا ، ونفسه كبيرة . وكل هذه معان اذا أضفى الله رداءها على انسان صار بها من الأبرار الأخيار الذين لايسعون في غاية ، ولا ينزلون في غرض ، ولا ينحرفون في قصد ، ولا يلتوون في سنن ، ولا يقصرون في واجب ، ولا ينامون عن مكرمة ، ولا تقف جهودهم عند غاية . وهذه الكلمة التي قالها - محمد - صلى الله عليه وسلم - الى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف ، واحتقارا لما كان لديهم من دنيا ، وازدراء لما كان عندهم من موازين ، ترسم للمصلح الاجتماعي التصميم الجزم الذي يتحنم عليه أن يلتزم به ، ويسير عليه ، والعزيمة القوية التي يجب عليه أن يأخذ نفسه بها ، والا كان جهده ضائعا لا أثر له ، وهباء لا فائدة منه ، ورخيصا لا ثمن له ، وذلك هو المنطق الذي وصل به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى القمة . وانتهى به الى الغاية ، مع قلة عدده وعدته ، وكثرة خصومه . وقد علمتنا سيرته - صلى الله عليه وسلم - أن الحق لا تخذله ارادة الله . ولا تتخلى عنه عنايته ، ولا يتركه جل وعلا للمفسدين ينالون منه ، أو يكيدون له . أو يصعدون عنه ، وفيه من معاني الفطرة ، وقوة المنطق ، ونبل الهدف ، ووسائل البر والخير ، والاصلاح وال عمران ، ما يضمن له الغلبة ، ويؤكد له الفوز والانتصار ، ويجعل له التمكين والخلود من غير شك ولا ريب .

البشارة به في الكتب السابقة

الرسالات السابقة على النبي - صلى الله عليه وسلم - كانت كلها خطوات أولى لرسالته ، مهد الله سبحانه بها . وجعلها أشبه بالارهاص الذي يسبق المعجزة ، وإذا كان التدرج في التربية والانتقال من حالة الى أخرى تكون أشد أو أشمل أسلوبا لما تتطلبه الفطرة وتدعو اليه ضرورة الانتقال ، فإن الجهود التي بذلها الأنبياء والرسل قبله - صلى الله عليه وسلم - كانت من هذا القبيل . ولم يكن ذلك من قبيل الاتفاق أو المصادفة ، أو خبط عشواء ، وإنما كان جاريا على سنة الحياة ، وطبيعة الكون في هذا الوقت . لأن البدائية القائمة ، والهمجية السائدة ، وعيشة الأدغال والغابات التي ابتدأها الانسان ، وتنقل فيها من طور الى طور . ومن خطوة الى التي تليها . لم تكن معها تكاليف والتزامات ، أو أوامر ونواهي . وإنما المعقول أن يكون معها ارشاد وتوجيه ، وتهذيب وترغيب ، من غير تكليف أو ايجاب ، حتى اذا ما تجاوزت البشرية هذه المرحلة انتقل بها الرسول الى أخرى وهكذا ، وهذا النمط الذي ينتهجه الأستاذ في درسه مع التلاميذ ، اذ كان ذهنهم خاليا من ألوان العلم ، وضروب المعرفة . ومعاني الثقافة يلتزم هذا المبدأ . والأنبياء والرسل لم يخرجوا عن كونهم أساتذة للبشرية ، ومعلمين لهذه الانسانية ، يسرون على طريقة التدرج والانتقال ، ولهذا كانت رسالة الرسول في بعض الأحيان اقليمية محدودة بالزمان والمكان . وفي سورة هود من القرآن الكريم ما يدل على هذا التحديد ، أو النطاق الضيق الذي كانت فيه هذه الرسالات ، ولقد أرسلنا نوحا الى قومه . . . والى عاد أخاهم هودا . . . والى ثمود أخاهم صالحا . . . والى مدين أخاهم شعيبا . . . ويصور النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى في حديث من أحاديثه الشريفة

مضمونه - على الجملة - أن مثل ما بعثه الله به والأنبياء من قبله كمثل بيت تكامل بنيانه ، وارتفعت جدرانها ، ولم يكن ينقصه الا موضع لبنة واحدة . فجعل الناس يطوفون به ، وينظرون اليه ، وهم معجبون به ، مأخوذون بحسنه ، وكانوا يقولون كلما طافوا به ، ونظروا اليه ، ما أجمل شكله ، وأحسن منظره ، وأروع ابداعه ، لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة التي يكمل بها البناء غير أنه لا نبي بعدى ، والمهمة التي من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تكاد تكون واحدة فى الغرض والغاية ، والمغزى والمقصد ، وهى الايمان بوحدهانيته وافراده بالخضوع والطاعة والاعتقاد فى كماله الذى لا حد له ، ولهذا يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه - صلى الله عليه وسلم - « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك » ومما لا شك فيه أن عيسى عليه السلام كان يبشر برسولنا عليه الصلاة والسلام . ولقد سجل القرآن الكريم حكاية ذلك عنه اذ يقول « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » ولقد مر بنا ما جاءت به كتب السيرة جميعا - من غير استثناء - من تحذير بحيرا الراهب لابي طالب وهو ذاهب معه الى الشام فى تجارة له ، اذ قطع عليه الطريق وقال له ان اليهود يعرفون نعتهم من كتبهم التى تخبرهم بأنه هو النبي الذى يقضى على نفوسهم ، ويحطم سلطانهم ، ويذيل دولتهم ، وهم لذلك يطلبون دمه ، ويريدون قتله ، وفى سورة القصص قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نمتغى الجاهلين » وهى تحكى قصة الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وقد كان لهم علم سابق بمنقدمه الى الدنيا ، ورسالته الى الناس « آمنا به انا كنا من قبله مسلمين » وربما كانت هذه الآية أيضا من سورة الفتح من قبيل ما نحن بصدده « محمد - رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » فانها تسجل على أهل التوراة والانجيل - اليهود والنصارى - أن أوصاف محمد وأصحابه المذكورة عندهم فى التوراة والانجيل وحكاية القرآن عنهم ذلك دليل قاطع لا يتطرق اليه الشك : ويقول سلمان الفارسي صحبت قسيسا ، فكان يقول يا سلمان ، ان الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد يخرج من حبال

تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة » وكان حديث هذا
المقسيس من أسباب اسلام سلمان . . . وكان عاصم بن عمرو بن قتادة
ينقل عن رجال من قومه أنهم قالوا انما دعانا الى الاسلام ما كنا نسمع
من أحبار اليهود ، وكانت بيننا وبينهم عداوة وكانوا يتهددوننا بنبي يبعث
سيقتلوننا معه قتل عاد وارم . فلما بعث سارعنا اليه حينما دعانا الى الله
فأمانا وكفروا . . . وكان أمية ابن أبي الصلت - الشاعر - يقول اني لأجد
في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . . . وقد أخبر النبي - صلى الله عليه
وسلم - عن وصفه في التوراة فقال « عبدى أحمد المختار ، مولده مكة ،
ومهاجره بالمدينة ، وأمنه الحمادون لله على كل حال . . . وروى القاضى
عياض فى كتابه الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص
عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال « أجل والله انه
لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يا أيها النبي انا أرسلناك
شاهدا ومبشرا ونذيرا » وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك
المثوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صحاب فى الأسسواق ، ولا يدفع
السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة
العوجاء ، بأن يقولوا لا اله الا الله . ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ،
وقلوبا غلغا . »

وقد دأب بعض اخواننا الذين يتناولون هذا الموضوع « البشارة
به فى الكتب السابقة » أن ينقلوا لنا نصوصا من التوراة والانجيل
لتكون بمثابة الشاهد أو الدليل على هذه الدعوى فى حين أن مصدر
الشاهد نفسه غير موثوق به . . . وقد كان كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه بجانبى ، ولما فتحت على غير ترقب لما يسعفتنى به
من الآيات البيّنات ، واذا بتظرى يقع على هذه الآيات من سورة البقرة
« ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الدين أوتوا
الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . . . ما يود الذين كفروا
من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص
برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . . . ود كثير من أهل الكتاب
لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين
ألهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شيء قدير
. . . وقالت اليهود ليست النصارى على شيء . . . وقالت النصارى ليست
اليهود على شيء . . . وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم
قاله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » وهى سهيحة فى
أنهم على علم سابق برسالته - صلى الله عليه وسلم - ولكنهم - كما تقول
الآية الكريمة أيضا - « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ويظهر أن هذا

الوجود كان لهم من ورائه مصلحة تتصل بنفوذهم وسلطانهم ، فان هؤلاء جميعا تحول بهم الوضع الدينى الذى كانوا يتبوؤونه من دعوة الى الله ، وتخوين من عقابه ، وترغيب فى ثوابه ، الى نفوذ دنيوى ياكلون به لقمة العيش ، وجعلوا أمر الحلال والحرام « قراطيس تبذونها وتخفون كثيرا » ولقد أثبت التاريخ أنهم فعلوا ذلك ، واشتركوا مع رجال الحكيم والسلطان فى امتصاص دماء الناس ، وظلم طبقات الشعب ، وتسخير الرعية لخدمتهم ، باسم الدين وصوت الملائة الأعلى ، وهذا هو الذى يرحى به قوله تعالى « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » وربما كان هذا أيضا من عوامل الصراع القائم بينهم - فيما بعد - « وقالت اليهود ليست النصرارى على شىء وقالت النصرارى ليست اليهود على شىء » وقديما قالوا اذا اختلف النصفان ظهر المسروق . . ونحن نترك ذلك كله للتاريخ يلعنهم ، ويسفه آراءهم ، ويهزأ بهم ، ويزدرى تفكيرهم وعقولهم ، ونقول لهم بعد هذا وهذا ما الذى جعلكم تصكون أسماعكم ، وتغلقون قلوبكم ، وتعرضون بوجوهكم ، وتجعلون بينكم وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - هذه الحرب ، وقد كان شعاره الذى أعلنه ، ومبدأه الذى التزم به « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا » وهى ميزان دقيق فى علاقة الانسان بربه وعلاقته - كذلك - بأبناء جنسه من الناس « فلا يذل أحد لأحد ، ولا يخضع له خضوع العبد لسيده ، والناس كلهم لآدم . وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى الا بالقوى . . وبيننا وبين هؤلاء واحدة من اثنتين . . اما أن يدلونا على نقص شريعتنا فنندارك هذا النقص ونكمله من شريعتهم ، أو ندلهم نحن لياخذوا منا ما يكمل ما عندهم ، وحينئذ يكونون قد استجابوا لهذا النداء « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » الذى ينشد الحق يستهين بكل صعب يحتمله من أجله ويلقاه فى سبيله . . وقد كانت دعوة الرسل جميعا . تهدف الى الحق ، وترمى الى الصواب ، واحتمالهم للأذى ، ولقاؤهم للعنات . كان لونا من ألوان الجهاد لاقرار الحق ، وسيادة الصواب ، وتمكين ما يجب أن يكون . ولم يكن واحد منهم ينكر دعوة صاحبه ، وما كان كل واحد منهم الا حجرا فى البناء « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » .

صراعه مع المشركين

التجأت قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت في كل محاولة ، وخابت في كل سعي . وأخفقت في كل جهد . ظننا منها أن العنت والمكابرة ينطليان على الأعرار . فيتسرب اليأس إلى نفوسهم ، ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ، ولا يكون هذا الرسول في نظرهم إلا صورة للرجل الممرور ، أو الانسان الأحمق ، الذي يقذف الدعوى طويلة عريضة من غير دليل . أو برهان يدعمها ، أو حجة تصدقها . ولم يدر بخلدهم أن زيفهم هذا سينكشف ، وأن سحابة الصيف لا بد أن تنقشع . كما لم يدر بخلدهم - كذلك - أن الخصم الذي يلتجئ إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن افلاسه . وضيق عطنه ، وسفاهة رأيه ، وطيش عقله ، وأنه لا يزيد شيئاً - في ميزان الحق - عن دموع المرأة التي تفرع إليها حينما يدركها الاعياء . وتلحق بها الهزيمة ، وهم أهل لدد ، وأرباب بيان - ودهاقين منطلق ، وأساطين بلاغة ، وما كان يظن ظان أنهم سيلجأون إلى هذا الانحدار ، أو يعتمدون على هذه المغالطة ، أو يفرون إلى ساحة الاسفاف ، ويتهافتون إلى ذلك الحد . . والذي يتتبع القرآن الكريم ليوقف على ما كان منهم من عنت أو مكابرة يجد الأعاجيب من هذه الأغاليط ، وتلك الأكاذيب ، وربما كان ذلك يبرز في صورة واضحة إذ كانوا يتهمون ما ينزل به الوحي ، ويحییء إليه من ربه ، أنه كان من املاء رجل رومي يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمي » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومي من قوم لهم تشريع ، وثقافة ومعرفة ، وأن هذا الذي يردده - صلى الله عليه وسلم - فيه من المنطق . وله من سيما التهذيب والتربية ، وعليه من ملامح التفوق والأدب ، ما يروج لتلك الشبهة القائمة ، وتناسوا أن ذلك

الذي يقرؤه محمد - صلى الله عليه وسلم - من معين عربى بحث ، وبيان
يعربى محض ، ليست عليه سحنة الترجمة ، ولا فيه طابع النقل ، وقد
كان أولى بهم وهم نقدة الكلام ، وأصحاب الذوق الأدبى ، ودهاقين البلاغة ،
أن يلتفتوا الى البون الواسع بين الجنسين ، والفرق البعيد بين البيانين
« لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » وكان الله
سبحانه وتعالى قد أراد بذلك أن يفضح حالهم ، ويكشف للناس أمرهم
« ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . . . » ولهذا كانت محاولاتهم
واضحة التلفيق ، ظاهرة التزوير ، حتى بينهم وبين أنفسهم ، وليس
أدل على ذلك من أن القرآن الكريم لسحر بيانه ، وعضوبة لفظه ، وقوة
منطقه ، وشدة أسرته ، ودقة تصويره ، وروعة تعبيره ، كان يستهويهم
جماله ، ويبهتهم نسجه ، ويأخذهم حسنه ، فلا يملكون أن يتحولوا عنه ،
أو يميلوا الى غير ناحيته . وكانوا لذلك يختلسون الخطى ، ويتكبرون
فى أشكالهم حتى لا يعرفهم أحد . ويتحنون الفرصة السانحة ليستمعوا
منه بعضا مما كان يقرؤه - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه . حتى
إذا ما فشا ذلك فيهم . وعرف عنهم . وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة .
وأن يتحولوا جميعا الى مفتونين بجرسه . مأخوذين بسحر ألفاظه .
وجمال معانيه . تعاهدوا على الكف عنه . وعدم الاصغاء اليه . أو الاختلاف
الى مجلسه ، وأكدوا بينهم الموثيق على ألا يفعلوا ، ثم كانت النتيجة أن
كبارهم يتلبسون بالجريمة كل يوم . فان عاتب بعضهم بعضا فى ذلك .
أو لامه على أنه خاس بالعهد أو نقض الميثاق ، ادعى أنه كان يتجسس
ليرى هل يذهب أحد ، وكأنما صاروا كلهم جواسيس .

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن قصصا جاء بها للاتعاض . وهو
نوع من التربية الحكيمة ، يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة
أبنائهم . كما قال سبحانه « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب
ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وظنوا هم أن محمدا
يؤلف ذلك من خياله ، ويخترعه من وهمه ، قصدا الى التلهى ، وشغل
الوقت . ليلتف حوله الفارغون من العمل . والمتعطلون عن الوظائف .
بعثوا النضر بن الحارث ليطوف الممالك والأمصار . فذهب الى الروم
والفرس ليحجى اليهم بما يشبه كتاب « ألف ليلة وليلة » ليعارض محمدا -
صلى الله عليه وسلم - ويحول وجوه الناس عنه « ومن الناس من
يشترى لهُو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك
لهم عذاب مهين » وفاتهم أن الذى يقصه القرآن الكريم برهان قائم على أن
محمدا لا يختلق ولا يخترع ، ولا يدعى ما يجيء به ، ولا يزعم ما ينقله .
« ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين

... وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا انشأنا قرونا فتناول عليهم العسر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتتذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » وهو تاريخ ليس عندهم علمه ، ولا بأيديهم كتبه ، ولا بين ظهرانيهم رواته « ان هو الا وحى يوحى » .

وما كانوا يصدقون ان يكون الرسول من أبناء آدم ، وانما كانوا يتوهمون انه من الملائكة « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » ونسوا ان الجنس أميل الى جنسه ، وان الانسان انما يأنس الى الفه ، ويميل الى من كان على شاكلته ، « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وضعف هذا الرأي ، وسقوط تلك الدعوى ، اتجهوا اتجاها آخر « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يقصدون مكة والطائف وقد رد الله عليهم بما يقطع تعنتهم ، ويقضى على اعتراضهم ، بأنه هو الذى يضع الأمور موضع الصواب ، ويصرف الأشياء التصريف اللائق « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الاتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه ، والتسليم له ، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة والاغداق وكثرة الثمر ، فان حديثه يطول ، وحسبنا أن نقول ، انه تحداهم فعجزوا عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولم يبق بعد ذلك الا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار ، والصراط والميزان ، والجزاء على الأعمال يوم القيامة ، واعادة الأجسام بعد فنائها ، التى تعرض لها - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته ، ليوقع الرهبة فى نفوسهم ، والهلع فى قلوبهم . عسى أن يتخوفوا المصير ، ويحذروا سوء العاقبة . وقد كانت هذه - أيضا - محل تندر عندهم - ومجال تكذيب وشك فيما بينهم ، ولا سيما الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، لياكل منها أهل النار ، فيشتد بهم الظم . ثم لا يجدون ماء يرتون منه ، مبالغة فى العذاب والايلام « ان شجرة الزقوم طعام الأنيم كالمهل يفل فى البطون كغلي الحميم » . والتى جاء ذكرها فى مكان آخر حيث يقول جل جلاله « انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعا كأنه رؤوس الشياطين » ولم يعقلوا أن تنبت شجرة فى النار ، وتعيش فيها مع شدة اللمب ، وسبب ذلك أنهم فاسوا الدنيا على الآخرة ، وقدرة المخلوق على قدرة الخلق ، وما علموا أنه تعالى على كل شئ قدير . وكان لخباب بن الأرت دين على واحد من هؤلاء الكفرة فلما طالبه به قال له

يا خباب سأدفعه لك يوم الحساب • يريد بذلك أن يتخلص منه • مع أن عقلاءهم تحدثوا به كما جاء في خطبة قس بن ساعدة الايادي • ولم ينكره الا هؤلاء الملاحدة الذين حكى عنهم القرآن بقوله « ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » ويقول المرحوم الشيخ الخضري « ولما جهر عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخروا منه ، واستهزؤا به ، فكان اذا مر عليهم يقولون هذا ابن ابي كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء • لايزيدون على ذلك • فلما عاب آلهتهم ، وسفه عقولهم • وقال لهم والله يا قوم خالفتم دين ابيكم ابراهيم ثارت في نفوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الالهة التي كان يعبدونها آباؤهم • فذهبوا الى عمه ابي طالب سيد بنى هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه • فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه ، أو يكفه عما يقول • فردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله لما يريد ، لا يصدده عن مراده شيء ، فتزايد الامر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - • وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشوا الى ابي طالب مرة أخرى • وقالوا له ان لك سن وشرفا ومنزلة منا ، وانا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا ، وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا ، فانهم كانوا اذا احتجوا في استمرارهم على علم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له • ولما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آباءهم بعدم العقل وعدم الهداية « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فهاج ذلك أضغانهم وقالوا لأبي طالب اما أن تكفه أو ننزلك وإياه ، فعظم على ابي طالب فراق قومه ، فرجاه أن يكف ، فظن أنه خاذله • فقال له والله يا عمي الخ • فقال أبو طالب قل يا بن أخي فوالله لا أخذك ولا أسلمك •

أما الأستاذ الدكتور أحمد الشريف فإنه يلخص هذه المواقف فيقول « لقد اتخذت قريش أساليب مختلفة في مقاومة الدعوة الجديدة ••• بدأت المقاومة سلبية أول أمرها ، فقد أظهر رجال الملام عدم الاكتراث بالدعوة الجديدة ، ونظروا اليها نظرة استخفاف ، فلم تعنهم كثيرا وظنوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل وزيدا بن عمرو بن نفيل من الساخطين على الأصنام الباحثين عن الحنيفية أو غيرها من الأديان الأخرى ، وان كان يختلف عنهم في أنه يخبر أنه يتلقى من السماء الوحي ، وكان يحلو لهم أن يشيروا اليه كلما رأوه « هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء » ••• لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن الأمر أخطر مما تصوروا ، فان محمدا يكتسب كل يوم أصحابا من رجالهم ومواليهم يتابعونه ويؤمنون به نبيا ورسولا ،

وأن هؤلاء الأصحاب ينشطون معه في الدعوة لدينه ، ثم يروونه يجمع عشيرته من بني هاشم ، ويدعوهم الى الايمان بما يقول ، ويحاول أن يجعل منهم كتلة حوله . ويرون عمه أبا طالب زعيم البيت الهاشمي ، وإن كان لم يتابعه الى ما يدعو اليه . فهو يشجعه ويقف الى جانبه . ويرون محمدا يكثر الاجتماع بأصحابه الذين آمنوا به . وهم رجال كل البطون القرشية . وهو يتعرض للأصنام يسبها . ولقريش يسفه أحلامها . ويكفر آباءها ، واذن فهو أمر بقريش لا يصح السكوت عليه . ولما كان رجال الملائ يدركون قيمة العصبية ، ويخشون خطرها لو تعرضوا لمحمد بالسوء فقد لجأوا الى أبي طالب يطلبون اليه أن يتدخل لمنع ابن أخيه من التعرض بالمهانة لمقدسات القبيلة وحرمانها ، فهم لا يطيقون صبورا على شتم الآلهة ، وتسفيه الأحلام ، وتضليل الآباء . ويلاين أبو طالب قومه ويردهم بالحسنى ، ولكنه لا يمنع محمدا ، ولا يتوقف محمد عما أخذ فيه ، ويعاود رجال الملائ الطلب ، ويشفعون طلبهم بالعرض . فهم يعرضون أن يتركوا محمدا وما يدعو اليه على ألا يتعرض لسب الآلهة ، وشتم الآباء ، ثم يعرضون أن يقدموا رجلا من خير أبنائهم بدلا عن محمد يتبناه أبو طالب على أن يسلم اليهم محمدا ليقتلوه ان كان قد عجز عن رده ، فانه يدمر وحدة القبيلة ، ويهدد مكانتها ، ويستنكر أبو طالب هذا العرض . ولقد فكر رجال قریش بحسب ما يفهمون من مثل الحياة عندهم ، وظنوها من محمد عملا للوصول الى غرض من أغراض الحياة وحسبوا من وقوف بني هاشم الى جانبه نزعة الزعامة ، وغاية الى الرياسة ، فاستجابوا لاقتراح تقديم به عتبة بن ربيعة - أحد سادات قریش - حيث قال ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا . فقالوا بلى يا أبا الوليد قم اليه فكلمه . فقال عتبة حتى جلس الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال يا ابن أخي . . انك منا حيث قد علمت . . من السلطنة في العشيرة ، والمكان في النسب . وانك قد أثبتت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباءهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قل يا أبا الوليد . . قال يا ابن أخي ان كنت انما تريد بما جئت من هذا الأمر ، مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رثيا من الجن لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، وحين أتم عتبة كلامه ، لم يزد النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن تلا عليه شيئا من القرآن بهره فرجع الى

قومه فقال لهم ، انى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو
بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . . وقد يشتت قريش من اغراء محمد
فاتخذت طريق الجدال والانكار والاستهزاء والتعجيز بالأسئلة . واللاحاح
فى طلب المستحيل من الأعمال مع التصميم على الانكار ، لكن ايمان محمد
برسالته وبما يوحى اليه كان أعظم من أن ينال منه انكار المنكرين ،
واستهزاء المستهزئين ، عند ذلك لجأت الى طريقة الاضطهاد والتعذيب
للمسلمين حتى تخيفهم فتردهم عن دينهم .

المعذبون

لما لم تفلح قريش في رد محمد - صلى الله عليه وسلم - عن طريقه الذي سلكه ، ولا عن دعوته التي آلى على نفسه الاستمرار فيها حتى النهاية ، لا تحوله عنها قوة ، ولا يصدده طغيان ، وقد خاب ظنهما في أبي طالب الذي لم يرض أن يتخلى عن ابن أخيه أو يخذله أو يسلمه ، وإنما يقف بجانبه ويدافع عنه ، مهما كلفه ذلك كله من ثمن ، وقد كانت ترجو وهو لا يزال على دينهما أن ينتصر لها ويضرب بسيفها ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، وكان من الضروري - والحرب لا أخلاق لها - أن تستعمل معه - صلى الله عليه وسلم - أحقر الأساليب ، وأقذر الأسلحة ، فلا تتورع عن إيلام ، ولا تتعفف عن كيد ، ولا تتأبى عن ضرر ، ولم تكتف بما كانت تلجأ إليه من قبل ، مثل القاء الأوساخ عليه وهو مار في الطريق ، أو ساجد في الصلاة ، ولا أن يكون ذلك من الصبيان والنساء ، وإنما يكون من الكبار والوجوه والأعيان ، وكان الباعث الأول على ذلك أن ينفض أصحابه من حوله ، وأن يتصرف أتباعه عنه ، وأن يتفرق المسلمون الذين كانوا يلتفون حوله ، ليقف وحده في الميدان أشبه بفلول الجيش المهزوم ان لم تهرب من ساحة المعركة تتعرض للأسر والتنكيل ، ولقد نجحت في ذلك كله إلى حد ما ، وأصبحت مكة كلها تنكره وتتوارى بوجهها عنه ، فلا تفتح أبوابها له ، ولا تبادلته التحية ، ولا يقبل كفارها بحال من الأحوال أن يرتفع صوته فيهم ، أو تدوى دعوته بينهم ، كما أصبح المسلمون هنالك مهتدين بالردة والانسلاخ عن عقيدتهم الجديدة ، ولقد عاد إلى الكفر قوم من ضعاف الإيمان حينما أحسوا أنهم معرضون للموت ، وهكذا يكون العنت الفاجس ، والإيلام القدر ، والكيد الوضيع ، والخصومات التي يسودها البغى والفجور ، إلا أن النبي -

صلى الله عليه وسلم - لم يكن ليشتك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون
 الهوان . ويحتلمون الضيم ، ويمتحنون أشد أنواع الامتحان وأقساها
 « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم
 البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى
 نصر الله » والايامن الصادق ، والعقيدة الراسخة ، واليقين القوى .
 والاذعان الصحيح . اذا عمر بها قلب المسلم لا يبالي بالصعب ، ولا يابه
 بالشدائد . ولا يهتز للمحن ، وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت
 ضماثرهم بهديه وضاعت بصائرهم بهدينه . وامتلأت أفئدتهم ثقة به .
 فلما هددهم فرعون بالقتل لم يكثرنوا بتهديده ، ولم يضطربوا لوعيده .
 وقالوا له « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت
 قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا
 وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » . وكذلك فعل أصحاب
 العزائم القوية من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فلم يفرطوا في
 دينهم ، أو ينجحوا عن نبيهم على الرغم من المشقات التى كانت تتوالى
 عليهم . والايام الذى كان يحبل بهم . وهذا هو بلال الحبشى مؤذن
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقد كان مملوكا لأمية بن خلف
 النجمنى يلاقى من مولاه هذا ما لا تحتلمه الجبال ، ولا تصبر عليه النعال ،
 ثم لا يؤثر ذلك فى عقيدته ، ولا يصرفه عن طيبته ، ولا يجعل قناته تلين
 لغامز ، إذ يخرج به أمية إلى الرضاء فى وهج الظهيرة ، ويأمره أن يرمى
 بحميدته العارى فوقها ، ثم يكلفه حمل الحجر الثقيل ، ويقول له . . .
 مستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين محمد ، فلا يكون رده عليه الا أن
 يقول أحد أحد . . . والتاريخ يحدثنا أن أبا بكر رضى الله عنه أنقذ كثيرا
 من الموالى بشرائهم واعتاقهم أمثال بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم . ولعل اسلام هؤلاء الموالى مع تعرضهم لهذه القسوة من اسيادهم
 دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ، ويقطع الحديد ، ويقترحم
 الأسوار ، ولا يغلب سلطانه جنزوت الطغاة ، ولا ارادة المتكبرين ،
 ولا بطش المنسلطين . وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التى
 تحالفوا على انجازها ، وتعاهدوا على تنفيذها ، من غير محاباة ولا استثناء ،
 وللبك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ، ولا بى من الأحياء دون
 أن يتدنس بعارها . حتى عمر بن الخطاب انحدر فى ذلك - قبل اسلامه -
 فنكل يجارية له . وبالغ فى تعذيبها . وطلب اليها أن تعود الى عبادة
 اللات والعزى ، ولم يفك خناقها ، ويحل وثاقها ، غير أبى بكر الذى
 اشتراها وأعتقها . أما آل ياسر عمار وأبوه وأمه فانهم صورة أخرى
 للفساد والتضحية ، والشباب على المبدأ ، والتمسك بالحق ، والتفانى فى
 ذات الله ، والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب ،

وتملأ الصدر ، وتحيا بها الروح في دنيا السعادة والبهجة ، والرضا والارتياح ، استبد بهم بنو مخزوم ، يسومونهم الظلم ، ويحملونهم على الكفر . وينكلون بهم التكنيل الذي لا ترضى به الانسانية ، ولا تقبله الكرامة ، ولا تستسيغه الأخلاق ، والذي كان أقله التعذيب بلفح الشمس ، وحرارة الرمضاء . وهو الأمر الذي لم يتحملة الرجل المتهدم أبو عمار - ياسر - اذ لفظ أنفاسه في حرارة الشمس ، وطبأ القلب ، وجوع البطن ، وإيلام الروح ، وتعذيب البدن . ولا سيما وقد رأى أبا جهل اللعين يطعن زوجته في بطنها الطعنة التي أودت بحياتها ، وليس بعد ذلك كله طغيان يضدر عن نفوس قاسية . وقلوب جاحدة . ممعنة في الشر ، متناسية للاخلاق . ولعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أمله أشبه لأنه لم يكن يملك لهؤلاء جميعا سوى الرثاء والحسرة ، والألم والحزن . والملوعة والجزع « صجرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » . وقد كان يقول لخباب بن الأرت حينما ضج من الألم ، وضجج من التعذيب ، وطلب منه أن يدعو الله له ليكشف عنه هذه الغمة . ويفرج عنه تلك الكربة . « يا خباب إنكم تتمجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشيط بأمشاط الحديد فلا يرده ذلك عن دينه » . وفي الحق إنها لمحنة ليس بعدها تلك التي أصيبه بها المسلمون في هذا الوقت لكن الذي يتذكر قذف الثمرود لابراهيم عليه السلام في النار . وقصة أصحاب الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » يؤمن أن الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، وأن العقيدة كانت في كل وقت عند أصحابها الشيء الذي لا يستهان به ، ولا يتهاون فيه ، وأن أصحاب العقائد كانوا أبدا المثل الأعلى للثبات والصمود وعدم التحول أو الانحراف . وقد يكون من المألوف في الصمود والثبات واحتمال الأذى . والاستهانة بالشدائد في سبيل العقيدة أو المبدأ أو ما شاكل ذلك أن يكون أصحاب هذه المواقف من الرجال لامن النساء فان الرجال كانوا دائما أبدا أصحاب هذا الاحتمال . لكن المرأة وهي هذا المخلوق الضعيف الذي لم يألّف المشاق ، أو لم يتعود الشدائد ، كأن الزج بها في هذا الميدان ظلما صارخا . وهو في الوقت نفسه عنوان على أن الذي يزج بها في هذا المعترك قد تجرد من المروءة وخلا عن اندوق ، وخربت نفسه من معاني الانسانية . ولذلك فان الذي يقرأ قصص هذا التعذيب الذي لاقاه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقع بصره وهو يتابع هذا القصص على اسم جارية من الجوارى أو امرأة من النساء لا يسعه الا أن يقابل ذلك بالامتعاض الشديد . وقد كان يظن أن أم عمار بن ياسر انما تناولها التعذيب لأنه كان موجها للأسرة كلها رجالا

ونساء • على أن المفروض في المرأة على الجملة ألا تكون زعيمة يقلدها الجمهور • أو يتأسى بها العامة • لهذا كان التعرض لها بالايلام أو التعذيب غير جائز •• وقد ذكرت كتب السيرة أسماء اناث تعرضن لهذا الامتحان كما تعرض الرجال سواء بسواء وهو ان دل على شيء فانما يدل على القسوة والغلظة وأن الروح الباعثة على الايذاء كانت من الضراوة والقسوة بحيث تخلع على أصحابها القاب السفاكين أو الفجرة على الأقل •• من هؤلاء الاناث « زبيرة » التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل اسلامه • وقد انضم اليه في تعذيبها أبو جهل الذي ظل ينكل بها حتى عميت • فلما عميت قال لها ان اللات والعزى فعلا بك ذلك • فقالت وما تدري اللات والعزى من يعبدهما ، ولكن هذا الأمر من السماء ، وربى قادر على رد بصرى : فأصبحت من الغد وقد رد بصرها ، ومنهن بثينة جارية بنى المؤمل ، والنهدية مولاة بنى نهد •• ومنهن « أم غنيس » أمة لبني زهرة كان سيدها يعذبها •• وأخبار التعذيب هذه وان كان تسيء الى الخلق العربى • والضمير العربى ، فإنها باتصالها بالنساء تكون أكبر اساءة • وأعظم عارا • ويبقى بعد ذلك كله سؤال فوجهه الى هؤلاء الذين زعموا أن دين محمد - صلى الله عليه وسلم - قد انتشر بالسيوف لا بالحجة ، وبالالغاء لا بالاختيار ، وبالعتف لا بالدليل • وهو كيف كان هؤلاء المعذبون يسخرون من القوة المسلطة عليهم • والجبروت المتحكم فيهم • ثم ألم يكن تمسكهم الى هذا الحد بالعقيدة دليل على ان هنالك ادعانا واختيارا وايمانا خالط اللحم والدم •• واذا كنا ونحن نذكر هؤلاء الأسماء من الرجال أو النساء كصور للتعذيب الذى لاقاه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سبيل العقيدة أو المبدأ ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أروع صورة مدى حياته كلها منذ أول يوم حمل فيه الأمانة وأدى الرسالة وجاهد فى الله حق جهاد •

المستهزئون

كانت حروب المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - متعددة
 الميادين ، متنوعة الأسلحة • لأن عداوتهم الشديدة : وحقدهم الكالح ،
 وغيظهم الدفين • وما سوى ذلك من ألوان الكراهية • شغلت تفكيرهم ،
 وملأت قلوبهم ، فجعلوا يبدعون ويخترعون في الكيد له - صلى الله عليه
 وسلم - ، وتعكير صفوه • وجاء ألا يهدأ له بال ، أو تستقر له حال •
 وقد باشروا في حربه ، والتنكيل به • والخصومات له • والتنغيص
 عليه ، والصد عنه • كل لون يدور بخلد الأشرار • ويخطر بذهن
 عصابات الاجرام الا أن القرآن الكريم خص جماعة من هؤلاء باسم
 المستهزئين في قوله جل جلاله في آخر سورة الحججر « انا كيفناك
 المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، وأقده نعلم
 أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ،
 واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وذلك لأنهم مع الاعراض عنه ،
 والتكذيب له ، والتشويش عليه ، كانوا يزيدون على غيرهم بنوع من
 الحرب وهو السخرية والاستهزاء • ومن غريب المصادفات أن يكون فيهم
 أحد أعمامه ، وهو ما يضاعف من الجريمة ، ويزيد في ايلامها ، وسوء
 وقعها ، وشناعة ماتاها • • وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره أنهم
 خمسة • • الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ،
 والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، قال جبريل لرسول الله -
 صلى الله عليه وسلم - انا أكفيكمهم ، فأوما الى عقب الوليد فمر بنبال
 فتعلق بثوبه سنهم ولم ينعطف لأخذه فقطعه فمات ، وأوما الى أخمص
 العاص بن وائل فدخلت فيه شوكة ففقال لدغته وانتفخت رجله حتى
 صارت كالرحى ومات ، وأشار الى عيني الأسود بن المطلب فعسى ، وأشار

الى أنف عدى بن قيس فامتخط قبيحا فمات ، وأشار الى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشسوك حتى مات . ثم قال واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين وفى أسمائهم . وفى كيفية طريق استهزائهم . ولا حاجة الى شئ منها ، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على اظهار السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو قدره . وعظم منصبه . وقد دل القسراّن على أن الله أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم » . الا أن الشيخ الخضرى - على عادته من الدقة والتحرى - يتحدث عنهم فيقول « وراى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثير الأذى . وعظيم الشدة ، خصوصا اذا ذهب الى الصلاة عند البيت ، وكان من أعظمهم أذى جماعة سمووا لكثرة أذاهم بالمستهزئين .

قأولهم وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى - خال عمر بن الخطاب - قال يوما يامعشر قريش ان محمدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم ، وشتم آلهمكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم ، انى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله ، فاذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه ، فأسلمونى بعد ذلك أو امنعونى . فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صلاته ، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما ممتعيا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من قريش فقالوا مالك يا أبا الحكم . قال قمت اليه لأفعل ماقلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فجل من الأبل . ووالله ما رأيت مثله قط وقد هم أن ياكلنى . فلما ذكر ذلك لرسول الله ، قال ذاك جبريل ولو دنا لأخذه ، وكان أبو جهل كثيرا ما ينهى الرسول عن صلاته فى البيت ، فقال له مرة بعد أن رآه يصلى ألم أنك عن هذا . فأغظ له رسول الله القول وهديده . فقال له أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ، فأنزل الله تهديدا له فى آخر سورة اقرأ « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطبة فليدع ناديه . سندعو الزبانية . كلا لا تطعه واسجد واقترب » . ومن أذيتة الرسول ماحكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى قال كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبو جهل ألا رجل يقوم الى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد فقال عقبه بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فالتقاء على النبى -

صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا في المسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم . ولم يزل عليه السلام ساجدا حتى جاءت فاطمة ابنته فأخذت القدر ورمته فلما قام دعا على من صنع به ذلك : فقال اللهم عليك الملا من قريش وسمى أقواما قال ابن مسعود وقد رأيتهم قتلوا يوم بدر . . . ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن ابتاع أجملا من رجل يقال له الأراشى فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله . فدلوه على رسول الله لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول ، فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل ، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه ، فقال من هذا . . . قال محمد . . . فخرج ممتعنا لونه ، فقال له الرسول أعط هذا حقه . فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه ، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت . قال ويلكم ما هو الا أن ضرب على بابي حتى سمعت صوتا ملئت منه رعبا وان فوق رأسي فحلا من الأبل ما رأيت مثله . . .

ثانيهم : أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى القدر على بابه لأنه كان جارا له . فكان الرسول يطرحه ويقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا . . . وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية ، إذ كانت كثيرا ما تسب رسول الله وتتكلم فيه بالنائم ، وخصوصا بعد أن نزل فيها وفي زوجها السورة « تبت يدا أبي لهب » .

ثالثهم : عقبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وكان يعمل معه كأبي لهب . صنع مرة وليمة دعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله لا أكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فيبلغ ذلك أمية بن خلف الجمحي القرشي ، كان صديقا له . فقال ماشيء بلغني عنك قال لا شيء دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له . . . قال وجهي من وجهك حرام ان لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبصق في وجهه . وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه من سورة الفرقان « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتنا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » . . . ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال بينما النبي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط

فوضع ثوبه فى عنق رسول الله فحنقه حنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

والبعهم : العاصى بن وائل السهمى القرشى - والد عمرو بن اعاص - كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول عن محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت . والله ما يهلكنا الا الدهر . فقال الله ردا عليه فى دعواه من سورة الجاثية « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » وكان عليه دين لحباب بن الأرت فتقاضاه اياه فقال العاصى أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما يتبغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم . قال حباب بلى ، قال فأنظرنى الى هذا اليوم . فسأوتى مالا وولدا وأقضيك دينك ، فأنزل الله فيه من سورة مريم « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقل لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ؟ » .

الخامس : الأسود بن عبد يغوث الزهرى القرشى من بنى زهرة أحوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان اذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين ، ثيابهم رثة ، وعيشهم خشن ، وكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أما كلمت اليوم من السماء .

السادس : الأسود بن المطلب الأسدى ابن عم خديجة . كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل قوله تعالى من سورة المطففين « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » .

السابع : الوليد بن المغيرة عم أبى جهل . . كان من عظماء قريش فى سعة من العيش . سمع القرآن مرة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لقومه بنى مخزوم والله لقد سمعت من محمد آتفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له حلاوة وان عليه لطاوة ، وان أتلاه لمشعر وان أسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش صبا والله الوليد ، لتصيان قريش كلها ، فقال أبو جهل أنا أكفيكموه ، فتوجه نحوه وقعد اليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام فاتاهم فقال تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ، ويقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط . وتزعمون انه كذاب

فهل جربتم عليه شيئا من الكذب . . فقالوا فى كل ذلك اللهم لا . . ثم قالوا فما هو . ففكر قليلا ثم قال ما هو الا ساحر . . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . فارتج النادى فرحا فأنزل الله فى شأنه فى سورة المدثر مخاطبا لرسوله « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيده ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سارهقه صعودا ، انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر » وأنزل فيه أيضا فى سورة « ن » ولا تطع كل حلاف مهين ، هماغز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمة على الخرطوم . »

الثامن : النضر بن الحارث العبدرى من بنى عبد الدار بن قصي كان اذا جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجلسا للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر هلموا يامعشر قريش فاني أحسن منه ثم يحدث عن ملوك فارس . وكان يعلم أحاديثهم . ويقول ما أحاديث محمد الا أساطير الأولين ، وفيه نزل من سورة لقمان « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى فى سورة الحجر « انا كفييناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون » فمنهم من مات قتيلا كأبى جهل ، والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة هلك منها كأبى لهب والعاص بن وائل السهمى والوليد بن المغيرة . وهكذا يصدق قوله جل جلاله « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا » .

التحدى الباطل

لم تتحرك قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم أبداً من العناد
 إلا ولجته ، ولا أسلوباً من الأيلاف إلا اتخذته . ولا طريقاً للأذى إلا سلكته ،
 وقد تحداها بالعقل فلم تخضع ، وجادلها بالمنطق فلم تدعن ، ودعاها
 بالحسنى فلم تستجب ، وفي كثير من أحوالها معه . ومواقفها منه ، كان
 ضعفاً بادياً ، وهزالها واضحاً ، وصغار سلوكها ظاهراً ، وإذا كانت
 الحرب أنبل ما تكون بين الطرفين حينئذ تكون متكافئة العدد والعدة ،
 والسلاح والميدان ، فإن قريشاً في كل مناوأتها له صلى الله عليه وسلم .
 أو خروجها عليه ، أو عنادها له ، أو مناوأتها إياه ، لم تراخ هذا القانون ،
 أو تلتزم بهذا المبدأ ، وفي الوقت الذي كان سلاحه هو المنطق البحت ،
 والعقل الصراح ، والتفكير السليم ، والرأى الصواب ، والحجة الواضحة ،
 والبرهان القاطع . كانوا هم يعتمدون على بذاءة اللسان ، وفحش القول ،
 واختلاق الدعاوى ، واختراع التهم ، والتخبط في المواقف ، والاعتماد على
 المكابرة ، والالتجاء إلى المهاترة ، وأساليب الصبيان ، وردود الحمقى ،
 ولو كان لهم حكومة عادلة ، أو قضاء نزيه ، أو رأى سديد . لدانهم من
 أول وهلة بأنهم لا يطلبون الحق ، ولا ينشدون الانصاف ، ولا يستريحون
 للأوضاع السلمية ، وقد دل تاريخهم التافه ، وحياتهم المضطربة ، ومنطقهم
 المتخبط ، وسلوكهم الآفن ، على أن في مواقفهم مع النبي صلى الله عليه
 وسلم من التحدى الباطل ما لا يمكن بحال من الأحوال أن ينسب إلى قوم
 فيهم بقية من عقل ، أو أناة من رأى وهل كان من العقل مثلاً أن
 يطلبوا منه أن يتبادلوا وإياه عبادة الآلهة ، يعبدون ربه هوئاماً من الوقت
 ليعبد هو كذلك آلهتهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وهو - كما
 نرى - اقتراح لا مغزى له . ولا فائدة منه ، ولا منطق وراءه « قل يا أيها

الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين « اللهم الا أن يكون ذلك منطق الأطفال ، وتفكير الصغار ، وعبث الحمقى ، ومثل هذه النصرفات ، وذلك السلوك ، لا يحسم خلافا ، ولا ينهي نزاعا ، ولا يصل باثنين يقوم النزاع بينهما على حق وباطل أن يضعوا أيديهما على ضالتهما المنشودة ، وإنما يخرج بالقضية المتنازع عليها الى أن تصير كرة يركلها برجله كل واحد من الطرفين ، وقد كان ذلك لونا من التحدى الذى نزل بأصحابه عن مستوى المسئولية على كل حال . . . وربما كان أكثر من هذه الصورة فى باب الهزال والهراء ، والخرف والحمق ، والسذاجة واللهو ، والطفولة والحدائث ، أن يطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يطرح جانبا من القرآن الكريم تلك الآيات التى تتناول آلهتهم ، وتسفه أحلامهم ، وتتوعدهم بسوء المصير ، كأن ذلك من حقه أن يفعله « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى انى أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » والخصومة التى تصل الى هذا الحد تتحول من كونها خصومة الى تعنت ، ويتحول الصراع الجدل فىها الى ما يمكن أن يسمى مهاترة ، لأن الشأن فى الجدل أن يكون رأيا آخر ، وحجة تقاوم أخرى ، ومنطقا يبطل منطقا ، فاذا خلا من ذلك كله كان هذا أو هديانا أو سفسطة على أن السفسطة تزعم المنطق أو تدعيه ، لكن هذا اللون من الصراع لا يقوم على المنطق ولا يدعيه أو يزعمه ومن هذه الألوان التافهة من الاقتراحات - أو التحدى - طلبهم منه صلى الله عليه وسلم أن يطرد من مجلسه جماعة الفقراء من المسلمين ، ان كان يريد من هؤلاء الاغنياء أن يكونوا على دينه ، يعملون بشريعته ويؤمنون بكتابه ، لأن وضعهم الاجتماعى لا يسمح لهم أن ينزلوا الى هذا المستوى ، أو ينحدروا الى ذلك الوضع . ولكن دينه الذى سوى بين الناس . وأذاب الفوارق بين الطبقات ، وجاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » رفض هذا الاقتراح . ولم يستجب لذلك الطلب . وصرخ فى أذنيه بهذا الصوت « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » وهو الزام للنبي صلى الله عليه وسلم ألا يزن الناس الا بميزان الدين ، غير ملتفت الى جاه أو سلطان ، وثروة أو غنى ، حتى ولو كان ذلك من قبيل تأليف قلوبهم . أو الاغراء لهم بأنه سيجعل لهم فى المستقبل فضل السبق ، أو ميزة التقديم والصدارة ، ولقد حدث مرة أن وفد عليه صلى الله عليه وسلم صناديد قريش فاستقبلهم بحفاوة ، واهتم بهم اهتماما عظيما . وكان يرجو من وراء ذلك أن يسلموا ليكون

اسلامهم هذا سببا في اسلام خلق كثير . وهنالك حضر اليه عبد الله بن أم مكتوم وأخذ يلح عليه أن يعلمه القرآن ، وقد تفاضى عنه صلى الله عليه وسلم مرة وأخرى حتى لا يحول اشتغاله به ، وانصرفه اليه ، بينه وبين هؤلاء الصناديد . لكن عبد الله بن أم مكتوم ألح وبألح في الإلحاح . وحينئذ نزل عليه قوله تعالى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى الخ السورة » فكان الرسول بعد ذلك يكرمه اذا رآه ، ويبسط له رداءه . ويقول له . . . مرحبا بمن عاتبني فيه ربي . وقد استخلفه على المدينة مرتين ، وكان من المهاجرين الأولين ، ومات شهيدا بالقادسية .

وقد كانت حياة كفار مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم دائما أبدا على هذه الشاكلة من الصراع والعناد والاشتراء والسخرية والعنت لا يفرغون من لون الا الى آخر . ولا ينتهون من أسلوب الا أخذوا في غيره وهكذا دواليك ، وكان الرسول مع ذلك كله يستجيب لهم ويجارهم حتى لا تكون لهم حجة عليه ، وحتى يفرغوا من جرابهم - كذلك - آخر ما يظمرونه من عناد واصرار على الباطل ، ولما رأوا أن مثل هذه المطالب لا تصل الى حد الاحراج والايلام انتقلوا بالتحدي الباطل الذي كانوا يشتغلون به الى صورة جديدة تلك أن يكون عندهم فيما يشبه أن يكون خلقا وتكوينا وشيئا مما يدخل في امكان الخالق لا المخلوق وحينئذ طلبوا منه أن يشق لهم القمر نصفين وهم لا يشكون في أن الآيات الكونية ليس مما يدخل في قدرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك مما يعتبره الناس في حدود امكانه لأن التحدي انما يكون بما هو داخل في قدرة المتحدى وامكانه ، أما ما لم يكن في مقدوره ، ولا مألوفاً لئله ، ولا من طبيعته فمن الحمق أن يكلف به ، ولكنه العنت الذي لا منطق له ولا خلق أيضا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم الذي تدعمه القدرة الالهية ، لأنه رسول رب العالمين ، يقف الى جانبه ربه فلا يتركه ولا يتخلى عنه . ويشق له القمر نصفين ، ويراه الناس في جزأين منفصلين كأنما هما كوكبان معلقان في الفضاء ، وكأنما كان هؤلاء الذين قطعوا سببهم للتحدي لا أكثر ولا أقل يشاهدون شريطا سينمائيا لا يعنيه منه الاعتبار وانما يعنيه فقط امتناع خاطر ، أو الترويح عن النفس « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » . . . وصدق الله العظيم في كل ما أخبر به عنهم فانهم لم يؤمنوا بمحمد ولم يذعنوا له ولم يتخلوا عن العناد والكفر « وكذبوا واتبعوا أهواءهم » وحينما رأوا ذلك قال بعضهم لبعض سحركم ابن أبي كبشة . ولم يزدادوا الا عتوا ونفورا ، وظل ضميرهم الميت على برودته لا يحاسبهم

ولا يوقظ فيهم الوعي الصحيح . . وأخذوا يستمرون على هذا الأسلوب ، وينحدرون في هذا التيار ، ويخلقون في صلتهم به ، ومعاملتهم له ، في سماء من الخيال المشوش ، والأحلام الكاذبة ، وجاؤا من جديد يقولون له ان ايمانهم به يتوقف على تلك المعجزات التي يريهم اياها ، ويجعلها ماثلة لهم ، يشاهدونها بأعينهم ، ويلبسونها بأيديهم .

الأولى : أن يفجر لهم من تلك الأرض الصلبة اليباب الموحشة عينا من الماء المتدفق الغزير ، يشرب منها الحيوان والانسان ، ويتمو بها الزرع والضرع ، وتتحول بها هذه الصحراء الى جنة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

الثانية : أن يفتحوا أعينهم لبروه وقد صارت له حديقة من البوان الفاكية ، وضروب الثمار ، وأنواع الزهور والرياحين ، وشتى صنوف النخيل والاعناب ، يتمتع بها الخاطر ، ويستريح لها الفؤاد ، ويجد كل انسان فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وبعد ذلك كله تجرى من تحتها الأنهار .

الثالثة : أن يسقط السماء قطعا متناثرة على رؤوس المخالفين له ، الخارجين عليه ، كما كان يزعم لهم أو يدعيه وهو يجادلهم في أمر دينه .

الرابعة : أن يأتى بالله الذى يؤيئده بوجيه ، وينصره بملائكته ، ليشاهدوه وليلقوا الى جانبه فى دعوته ، ولينصروه فى خصومته .

الخامس : أن يكون له بيت من ذهب يتناسب مع جلال الرسالة التى جاء بها ، والمهمة التى يقوم بها ، لأن الملوك لهم عروش وجند وقصور ويعيشون فى ترف خيالى . . وهو من غير شك أعظم من هؤلاء عند الله فلا أقل من أن يكون له بيت من زخرف . .

السادس : أن يرقى الى السماء التى فيها ربه الذى اجتباه بالرسالة ، وفضله على الناس . وبعث اليه جنبريل ، وأنزل عليه القرآن ، وخصه بالمعراج على أنهم لا يعترفون بصعوده الى السماء . ما لم يؤيده الدليل القوى . والبرهان المتمثل فى كتاب يحمله معه ، يعترف له ربه فيه بركيه اليه . ولقائه له . وهو وجهته اياه « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » كأنما يقول لهم هذه أشياء تخرج عن طوق البشر « هل كنت الا بشرا

رسولا « ٠٠٠ ويظهر من قوله تعالى بعد هذه الآية « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » أنهم كانوا لا يعرفون شيئا عن الأديان السابقة - موسى وعيسى وإبراهيم وهود وصالح وشعيب وغيرهم - فاستنكروا أن يكون الرسول بشرا وقد كان هؤلاء - من البشر - رسلا مبشرين ومنذرين ، وهم من غير شك يعرفون أن ذلك كان من قبيل هذا التحدى الذى وقفوا سبحانه عليه ، وصرقوا جهدهم له . على أن الرسول لو كان - كما يقترحون - من الملائكة للزم أن يكون قومهم - كذلك - من الملائكة ، لأن الجنس انما يطمئن الى جنسه ، فيعيش معه ، ويأخذ عنه ، ويطمئن اليه ، ويبادله المنفعة « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ٠٠ والذى يريد أن يحصى عليهم مثل هذا التحدى لا يستطيع أن ينتهى منه لأنه كان لونا من الحرب الباردة التى ظلوا مدى الحياة يشتملون بها من غير ملل ولا سأم .

الهجرة الى الحبشة

جريت قريش مع محمد صلى الله عليه وسلم كل ألوان المعارضة له ،
والصناد عن سبيله ، والوقوف في وجهه ، والتشويه لدعوته ، والايذاء
لأصحابه والتنكيل بهم ، ثم جريت كذلك ألوان التحدي المكشوف ، والحرب
الباردة ، كما جريت كذلك ألوان الاغراء التي أرادت بها أن تخدع محمدا
صلى الله عليه وسلم ليحول قلبه عن ذلك الطريق الذي انحدر فيه ، وبالغ
في الايمان به ، والاخلاص له ، والتفاني في الدعوة اليه ، الا أنهم على
الرغم من الايذاء الذي أفتنوا فيه ، والسخرية التي لم يتوعدوا عنها ،
وقطعهم الطريق عليه كلما هم بدعوة انسان ، أو أعلن دينه في محفل من
المحافل ، أو مجتمع من المجتمعات ، لم يجرؤوا على أن يتجاوزوا ذلك الى
قتله ، لأن عمه أبا طالب كان واقفا لهم بالمرصاد ، وبنو هاشم كلهم خلفه ،
والاقدام على مثل هذا الطيش يعرض قريشا لحرب لا قبل لها بها ،
ولا طاقة عندها لمثلها ، فكان من الضروري أن تمنع في الغضب عليه
وعلى أصحابه ، وأن تسترسل في الايلام والكيد ، والأذى والضرر ،
والتنكيل والارهاق ، وأن يقفوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن
سبيل الله .

وهناك أذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين في الهجرة الى
الحبشة « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة »
وقال لهم حينئذ « ان بها ملكا لا يظلم جاره ، حتى يجعل الله لكم فرجا
مما أنتم فيه » فتمسللوا في ظلام الليل ، ولما انتهى خبر تسلمهم الى
قريش أسرع لتقطع عليهم منافذ الطرق ، وتردهم الى مكة ، لتواصل
الحملة عليهم ، وتتمادى في تعذيبهم وتسد عليهم كل مسلك ، ليعودوا الى
ما كانوا عليه من الوثنية والشرك ، ولكن قضاء الله كان أسرع من

ارادتهم ، ولطفه كان أسبق من حيلتهم ، اذ مضوا فى طريقهم من غير عائق ولا مانع . . . غير أنهم ما كادوا يصلون الى الحبشة ويستقر بها قرارهم حتى كان الكفار قد غليت مراجل غضبهم ، ونارت براكين حقدهم . وبعثوا عمرو بن العاص . وعبد الله بن أبى ربيعه . وعمرو ابن المفيرة المخزومي بهدايا وتحف الى ملك الحبشة ، وكان معها عمارة ابن الوليد بن المفيرة المخزومي . وقد طلب هذا الوفد من النجاشي أن يرد المهاجرين الى قومهم . وقالوا له فيما قالوا له انهم فارون تركوا دينهم الذى كانوا عليه . واعتنقوا ديننا جديدا يعادى الأديان كلها . ويقول فى عيسى بن مريم قولاً لا يليق به ولا بأمه . . . وقد اهتز النجاشي والبطارقة معه لهذا القول واعتبروه عدواناً على دينهم ، وافتياتاً على المقدسات المرعية ، الا أنه رأى أن من الحكمة ألا يكتفى بالسماح من طرف واحد . فأرسل الى هؤلاء المهاجرين أن يدخلوا عليه ، فلما مثلوا بين يديه ، قال لهم ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دين بعده ، وكان جعفر بن أبى طالب قد أدرك أن رسل قريش قد نجحوا فى الإيقاع بهم . وتشويه مسيرتهم ، فأنبرى له قائلاً « أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة . ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام . ونسى الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً ممننا ، يعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه . . . فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأبائنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم . وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . . . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . . . وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وقتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الحيات ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك » ثم قرأ جعفر بن أبى طالب عليه شيئاً من سورة مريم وفيها الأشادة بعيسى ابن مريم وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم ، وتنزيهه عن الفواحش ، والشهادة لها بطهارة العرض . ونقاء النفس ، وبرائة الساحة ، وشرف المنبت ، وحينئذ أبى النجاشي والبطارقة أن يفرطوا فى المسلمين ، أو يضيخوا الى الوشاية بهم ، أو النيل منهم ، وظل هؤلاء المسلمون - وإن لم تطل مدة الإقامة - يلاقون الرعاية والاهتمام ، الا أنهم مع ذلك قد اشتهد حينئذ الى مكة . وفكروا فى العودة اليها ، لحرصهم الشديد على أن يظلوا الى جوار النبى

صلى الله عليه وسلم يذافعون عنه أعداءه ، ويؤيدون دعوته ، وإلى جانب ذلك فانهم كانوا من السادة الذين لم يألفوا المشقة والاعتراب عن الأهل والوطن ، وكان معهم زوجاتهم وقد خافوا عليهم من مضاضة الاغتراب . وهوان البعد . ولم يكن عددهم من الكثرة بحيث يدفع عنهم وحشة النأى ، أو مشقة النزوح ، إذ كانوا عشرة رجال ، وخمس نسوة ، وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو سلمة وزوجته أم سلمة وأخوه لأمه أبو سيرة بن أبي رهم وزوجته أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجته ليلي ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهل . وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ابن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهيل بن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وجلهم من قريش وكان عليهم عثمان بن مظعون ولحق بهم جعفر بن أبي طالب الذي تحدث باسمهم . . . ويظهر أن هذا الوفد مع قلة عدده ، وقصر مدة اقامته كان له أثره البالغ في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . والتنويه بدينه ، والاعلان عن هذا الزحف الجديد الذي أخذ يأخذ طريقه الى القلوب والأفئدة . . . فان النجاح والبطارقة الذين كانوا معه بعد أن تجلى لهم الحال من هذه الجماعة القليلة التي وفدت اليهم . ثم ارتحلت عنهم . لم يكتفوا منهم بهذا اللقاء ، ولا بتلك المناقشة ، فبعثوا من قبلهم وقدا الى مكة ، جعلوا مهمته الأولى أن يستطلع نبأ هذا الحدث الجديد الذي هزت أخباره أرجاءهم ، أو زلزلت أنحاءهم . وهل هو يتلاقى مع المسيحية على محجة واحدة ، أم يذهب كل منهما الى ناحية يخالف صاحبه ، ثم مع هذا وذاك يشكر محمدا وأصحابه على ذلك التنويه الذي نطق به القرآن عن عيسى ومريم والانجيل الذي جاء به . . . وكان من هذا الوفد أن تأثر الى حد بعيد بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعجبه ما تأخذ به البشرية من اصلاح ، وما تسلكه من هدى ، وتعمل له من نهوض ، وما كاد يستمع الى القرآن الكريم من النبي حتى شعر بسحره ، وأدرك سيطرته الغالبة على النفس ، وهيمته القوية على الضمير ، واستدراجه الغريب للدمع ، وسلطانه القاهر للفؤاد ، ولما خنقته العبرة ، وفاض ماء عينيه ، أعلن ايمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم . والاذعان لدينه ، والانصواء تحت رايته ، وهنالک نوه الكتاب العزيز بهذا الموقف النبيل ، وتلك العاطفة الكريمة وذلك الاحساس العظيم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمننا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأتاهم

الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » . . . وفي هذه الأيام التي كانت قريش تعاني مرارة اللطمة التي أصابتها من الوفد الأول للحبشة كان اسلام حمزة بن عبد المطلب ثم اسلام عمر فطاش صوابهم وأخذت منظماتهم الارهابية تزاول من جديد نشاطها في التنكيل والايلام . حتى لقد لحق ذلك الرجل الطيب أبا بكر رضى الله عنه مع احترامهم له ، ويرجع ذلك الى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهاافت عليه النساء والصبيان . . . وقد خشيت قريش أن يكون هذا الصنيع من أبى بكر غزوا داخلها لها . فضيقت عليه الخناق ، وأقامت في وجهه المتاريس ، أما هو فكأنما تمثلت له الآية الكريمة « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . . ولذلك أخذ طريقه الى حيث يفارق تلك الوجوه ، وينأى بعرضه عن تلك الأقدار ، الا أن رجلا من هؤلاء الذين كانت تمتلىء نفوسهم بحبه واحترامه ، لقيه فى الطريق . وعز عليه أن يفارق مكة . وأن تخلو عرصاتها منه ، فسأله عن سبب خروجه ، ولما عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلايبه ، وقال له لا تفعل يا أبا بكر ، فوالله مثلك لا يخرج ولا يخرج ، ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم ليبلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل فى جوارى ، أذافع عنه ، وأقف الى جانبه ، لا يتعرض له أحد بسوء الا كان بذلك مسيئا الى ، وهنالک قبلوا منه ذلك على أن يقرأ أبو بكر القرآن فى داخل بيته . ورضى أبو بكر بهذا الشرط ونزل عليه ، وكان يقرأ القرآن فى داخل بيته ، الا أن الأطفال والنساء كانوا يقتجمون عليه البيت ليستمعوا لما يتلوه ، وحينئذ عادت شكوى قريش منه ، وخوفها من الافتتان به . فراحوا الى ابن الدغنة الذى هدد بسحب جواره منه ، ولم يكن من هذا الرجل الطيب - أبى بكر - الا أن يقول له . افعل ما بدالك ، فانى ما فكرت يوما من الأيام فى جوار غير جوار الله الذى يدافع عن الذين آمنوا ، فلا تشغل نفسك بى ، ولا تفكر فيما بينى وبينك من جوار . فانى أنا وأنت وكل الناس فى جوار الله الذى خلقهم . . .

الحصار الاقتصادي

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ، لا تقف عند حصر ، ولا ينتهي لها عدد ، وقد يكون أهورها أن تكون وجها لوجه ، أو أن تكون حارة لا باردة ، وفي العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى ، في سبيل استئلال الدول الصغرى ، وكسر شوكتها ، لتنال غرضها من ابتزاز مواردها ، واستنزاف خيراتها . والاستيلاء على ما تغله أرضها ، الى ما يسمى في لغة علماء الاقتصاد السياسي بالحصار الاقتصادي . وهى وسيلة من وسائل الحرب سلاحها الحرمان والتجويع . والحيلولة بينها وبين التجارة أو تبادل السلع مع غيرها ، سدا لحاجتها ، وقضاء لمصالحها . ونهوضا ببلادها ، لتزى تلك الدولة الصغرى نفسها أمام الحاجة القائمة ، والضرورة الملحة . مضطرة للتنازل عن كرامتها ، وعزة نفسها ، وتمسكها بالاباء الخالص ، والحرية البحتة ، والشهم الفطرى . وهنالك لا تعارض فى سلطان يخضعها ، وجبروت يذلها ، وكرامة تملك زمامها ، وتتحكم فى سلوكها ، وهكذا يفعل - الآن - أرباب الجشع الاستعمارى ، والسعار الأجنبى ، مع الشعوب التى تريد أن تتفلت من قبضة أيديهم ، أو تتخلص من نفوذهم ، وتخرج عن طاعتهم الظالمة ، وهو بعينه الذى حدث من كفار مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه . حينما وجدوا أنهم أفرغوا ما فى كنانتهم من السيوف ، وبذلوا كل جهد يملكونه ، وكل حيلة يحكمونها ، وجربوا كل محاولة فى اذلالهم . وقطعوا كل أمل فى الجائهم . وأمنوا ايمانا لا شك فيه أن المطاردة والعنف . والكرامية أو الاستهزاء ، والتعذيب والتهديد ، وغير ذلك من أساليب الحق والطيش ، لم تقف ذلك التيار الجارف الذى كانت تسير به دعوة محمد بن عبد الله الى نفوس الرجال والنساء ، والصبيان والأطفال ، حتى لقد بلغ الحال بهم أن يتغفل بعضهم بعضا فى الذهاب - متكررا -

الى مجلس محمد ليستمع لما أنزل الله عليه . يقول الدكتور هيكل « خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا الى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسه وهو لا يعلم بمكان صاحبه ، وكان محمد يقوم الليل يرتل القرآن فى هدوء ، ومكينة ، فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين الى منازلهم . فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا . فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم . ولنصر محمدا عليكم فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم فى مثل الموعد الذى ذهب فيه أمس كان رجليه تسيران به من غير أن يستطيع امتناعا ليقضى ليلة حيث قضاه أمس وليستمع الى محمد يتلو كتاب ربه ، وتلاقوا عند عودتهم فى مطلع الفجر وتلاوموا من جديد . فلم يحل تلاومهم هذا دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا على الا يعودوا لمثل فعلتهم ، وان ترك ما سيعوا من محمد فى نفوسهم من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم ، وكلهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمدا وقد حدث الرواة أنهم بعد أن عقدها مجالس الشورى ، وتبادل الرأي ، انتهوا الى معاهدة مكتوبة يعلقونها فى الكعبة ، يتفقون فيها على مقاطعة النبى صلى الله عليه وسلم هو ومن اختار سبيله ، واعتنق دينه ، وآمن برسالته ، وكانت هذه الصحيفة تقضى بعدم الزواج منهم ، أو الاصحار اليهم ، أو البيع والشراء معهم ، كما تقضى ألا يجيروهم ، أو يعيشوا المهوف منهم ، وألا يتبادلوا معهم المنافع بحال من الأحوال ، وأن يكون شأنهم واياهم شأن المنبوذين سواء بسواء ، واستتبع ذلك أن ينفصل كل من الفريقين فى الدار التى يمشى فيها دون حرية الانتقال أو الحركة ، وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات ، كانت قسوتها شاقة ، ومرارتها بالغة ، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال والشحوب ، والألم والامتناع ، والاصفرار والنحول ، وفشت فيهم الأمراض والأوبئة . ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الحصار والضغط المفروض عليهم أن يتجولوا أو ينتقلوا الا فى داخل هذا السور المضروب عليهم ، أو السجن الذى يختويهم ، اللهم الا فى الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت اذا أرادوا أو يحجوا اذ رغبوا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يجد متنفسه الا فى موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت ، ليمرض عليهم دعوته وكانت تجد طريقها الى قلوبهم وأفئدتهم ، وشعورهم وعواطفهم . وكان ما يعانىه من قريش فى هذا الوقت سببا فى عطف كثير من الناس عليهم ، وميلهم اليهم ، وتجاربهم معهم . وقد سرى ذلك كله الى صفوف المشركين فكاد

بيد صفوفهم ، ويفرق كلمتهم ، ويشنت شملهم ، ويشيع فيهم التفكك والتخاذل ، ويقول الدكتور هيكل « وهذا الحصار الذي أوقعته قريش ، واحتماله إياه صابرا في سبيل رسالته . كان من ورائه أن كسب كثيرا من الأنصار والقلوب التي لم تبلغ القسوة منها ما بلغت من قلب أبي جهل وأضرابه . . . على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش وهم منهم واخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم جعل كثيرين يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة ، فلولا أن كان من أهل مكة رجال لهم على المسلمين عطف يحملون اليهم الطعام في الشعب الذي احتوا به لهلكوا جوعا . وكان هشام بن عمرو من أحسن قريش في هذا الطرف عطفًا على المسلمين ، كان يأتي بالبعير قد أقره طعاما أو برا فيسير به في جوف الليل حتى إذا استقبل الشعب - الذي حوصر فيه المسلمون - خلع خظام البعير ثم ضرب على جنبه فدخل البعير الشعب عليهم . ولما ضاق صبرا لما يلاقه المسلمون مشى إلى زهير بن أبي أمية وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال زهير ، أقدم رضىت أن تأكل الطعام ، وتلبث الثياب ، وتكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمنا لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله أن لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا ، وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة ، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم ، واتفق معهما المطعم بن عدى ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة ابن الأسود ، وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها . . . وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعا ، ثم نادى في الناس يا أهل مكة ، ناكل الطعام ، ونلن الثياب ، وبنو هاشم لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة الظالمة ، وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به ، كذبت والله لا تنشق ، فتجاوبت أصوات زمعة وأبي البخترى والمطعم وهشام بن عمرو وكلهم يكذبون أبا جهل ، ويؤيدون زهيرا ، وأدرك أبو جهل أن الأمر قضي لبيل وأن القوم اتفقوا عليه ، وأن مخالفتهم قد تثير شرا ، فأوجس خيفة وتراجع وقام المطعم ليشق الصحيفة ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها « باسمك اللهم » وبذلك أتبع لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشعب إلى مكة . وأن يبيعوا قريشا ، ويبتاعوا منها ، وأن بقيت صلوات الفريقين كما كانت ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم من جديد يذيع دعوته في مكة وفي القبائل التي تجيء إليها في الأشهر الحرم ، ومع ما ذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعا ، وما كان من كثرة الذين اتبعوه ، فإنه ظل لا يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولا يستطيع هولهم منعا » . .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ترامى إليه من قبل أن الأرضة

قد أكلتها ، فأخبر بذلك بعض أصحابه ، ولم يلبث الخبر أن تطاير الى صفوف المشركين أنفسهم ، فطنوا لأول وهلة أنها بلبلة يريد بها المسلمون زعزعة الخواطر ، واستنداز عطف الناس عليهم . ليكون ذلك تمهيدا لرضا قريش أن تعود المياه الى مجاريها ، ولكن خبيثا من خبيثاتهم تسال الى الصحيفة في مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر صحيح لا ريب فيه ، وهناك ذهلت قريش ذهولا عظيما . وبخاصة حينما ترامى اليها أن محمدا يقول ان الأرض لم تبق منها الا لقطعة « باسمك اللهم » وفي هذه اللحظة خاصوا خيصة حمر الوحش ، وأخذوا يروحون ويخيئون ، ويفكرون فيما عساه أن يكون ، أو فيما عساه أن يتخذ أمام هذا الموقف الذي صيرتهم اليه الخوادث ، وأوقفتهم عنده الأقدار ، على اعتبار أنه خذلان لهم . وتقهقر الى الوراء في حربهم للمسلمين ، والقضاء على روحهم المعنوية التي كانت تدفعهم الى الأمام ، وتسوقهم للغيرة على محمد ، وعصبيتهم له ، ووقوفهم الى جانبه ، يدافعون عنه ، ويعلنون دعوته ، ويرفعون رايته ، وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبد المطلب يشعرون بأن الصراع الذي كان قائما بينهم وبين قريش عصى لا أثر للدين فيه . ولا صلة للعقيدة به ، وصار هم أبي طالب الاهتمام بابن أخيه ليتمكن نفوذه ، ويعلو شأنه ، وتمضى ارادته ، ويسود رأيه ، ويستقر له سلطانه وحكمه ، فلا تمتد اليه يد آئمة ، أو تتناول عليه نفس شريرة ، أو يقتله سيف ظالم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتابع الدعوة لدينه ، والاعلان عن هديه ، ويواصل سيره لاكتساب أنصار يؤازرونه ، ويكثرون سواده ، ويقوون جبهته ، ورأت قريش أمام ذلك كله ألا مناص من نقض الصحيفة المكتوبة ، والمعاهدة المبرمة ، واضطرت صاغرة الى التنازل عن كبريائها ، وعاد الاتصال ، ورفعت قيود حظر التجول ، وتبادلوا - مع المسلمين - السلع والحاجات ، الا أن النفوس كانت مع ذلك لا تزال تشعر بالجفوة ، والقلوب لا تزال تحس باللوعة ، والعيون لا تزال تتبادل النظر الشرز ، والجوانح لا تزال منطوية على الكراهية والبغضاء . والمسلمون كانوا يشعرون أنهم في دار غربة وهوان ، يتمنون من صميم أفئدتهم أن يبدلهم الله قوما خيرا من أولئك الذين يرون أنهم قذى في أعينهم ونكدا في نفوسهم ، وحرجا في صدورهم وأفئدتهم ، كما كانوا يتمنون كذلك وطنا غير هذا الذي يضيق بهم ، ويتجههم لهم ، ويزداد بشاعة في عيونهم ، حتى لقد كانت الهجرة الى الحبشة تراودهم - من جديد - ليتخلصوا من ذلك العنت ، ويستريحوا من ذلك الضيق ، وبخاصة وقد رأوا أن الحرب لم تضع أوزارها بعد ، يقول الدكتور هيكل « قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة وكان رجلا لبيبا شاعرا ، فمشت اليه قريش تحذره من محمد ، وأن الخير في ألا يكلمه ولا يستمع اليه ، وذهب الطفيل يوما الى الكعبة ، وكان

محمد هناك ، فسمع بعض قوله ، فاذا هو كلام حسن ، فقال في نفسه ،
 وائل كل أمي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح .
 فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان حسنا قبلته ، وان
 كان قبيحا تركته ، واتبع محمدا الى بيته ، وأظهره على أمره ، وما دار
 في نفسه ، فعرض عليه محمد الاسلام ، وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد
 شهادة الحق ، ورجع الى قومه يدعوهم الى الاسلام ، حتى أسلم
 أكثرهم . وانضموا الى النبي بعد فتح مكة ، وليس الطفيل الدوسي الا مثلا
 من كثير وقد قدم مكة - كذلك - بعد حادث الصحيفة عشرون رجلا
 من نصارى نجران الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلسوا اليه ،
 واستمعوا له ، واستجابوا وأمنوا وصدقوا ، مما غاظ قريشا حتى سبواهم
 وقالوا لهم « خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ،
 لتأتوهم بخير الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم
 وصدقتموه بما قال » ولم تكن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم
 ترده عن الاسلام . بل زادتهم بالله ايمانا على ايمانهم ، اذ كانوا نصارى
 من قبل أن يحضروا الى مجلسه صلى الله عليه وسلم على ملة المسيح عيسى
 ابن مريم عليه السلام . . .

عام الحزن

كان سنده النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، ودرعه في رسالته ،
وترسه التي يتلقى بها الأحداث ، وساعده الذي يذود به الأذى ، وركنه
الزكين الذي يعتمد - بعد الله - عليه ، حيث لم يتكامل له من سواد
المنتلمين من يشد أزره ، ويقوى ظهره ، إذ كان يحس من نفسه بالغربة
والوحشة ، والضعف وقلة الخيلة ، اثنان من الناس كلاهما كان بعيد
ضخم ، وقوة هائلة ، وطاقة جبارة ، امرأة هي خديجة بنت خويلد
الأسدية ، زوجته العزيزة لديه ، الحبيبة إليه ، ورجل هو عمه أبو طالب
الذي كانت له مكانة في قومه وعشيرته . . . وخديجة رضى الله عنها لم تكن
له صلى الله عليه وسلم زوجة ككل زوجة تكون تحت رجل لا هم لها منه
إلا أن تتمتع به ، وتلوذ بكنفه ، وتحتسى بظله ، وتترامى بين أحضانه ،
وتطلب فيه دائما أبدا غناه وثروته ، وصحته وعافيته ، وشبابه ونضارته ،
و مركزه وجاهه ، وأن يكون قلبه عامرا بها ، متلهفا إليها ، متراميا عليها ،
لا يتسع لأحد سواها ، ولا تدق نبضاته إلا لها . . . فان رأيت شيئا من
ذلك كله قد تحول أو نقص ، أو وجدت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ،
ويملك اعجابها ، ويشغل تفكيرها ، فترت شواغلها به ، وبردت حرارتها
له ، وماتت أحاسيسها التي كانت متأججة به ، وجعلته في تحفها
القديمة ، أو ثيابها البالية ، لأنه لم يعد فتى أحلامها . . . الذي كانت تحن
إليه ، وتهتف به ، وتنجذب إلى ناخيته . . . نعم لم تكن خديجة تلك
الزوجة وإنما كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته . . . وأحب الناس إليه ،
وأدناهم منزلة من قلبه وروحه ، وكان هو عندها كل شيء تطلبه ، وكل
حلم يدور بخاطرها ، أو يسبح بخيالها ، تؤمن أيناها جازما أنه يكمل
نقصها ، ويكمل نفسها . . . ويرضى تطلعها وطوخها . . . ويشقى عليها
وأوجاعها ، ويملا ذنباها باليمن والبركة ، والخير والسعادة ، والسرور

والبشر ، والأمان والاطمئنان ، والرضا والارتياح . . لذلك كان عندها نور عينيها ، ونبض فؤادها ، وخطرات خيالها ، وهمسات قلبها ، وحياتها المتجددة . وأملها الذى تضيق به الدنيا ، فمالها فى يده ، وثقتها فى نفسه . وقومها من حوله ، وأهلها أطوع له من ظله ، وكأنه بهما وحدها فى جيل من الناس فيهم ألف ساعد وساعد ، وألف نصير ونصير ، وكلما غدا أو راح ، كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة . والأمل والحب . والصحة والعافية ، والشجاعة والاقدام ، والظفر والغنم ، والفراغ الذى كانت تملأه من قلبه لم يكن حل من قبل ، وهى مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا ابراهيم الذى كان بعد ذلك من مارية القبطية . . . وكان موتها عند النبى صلى الله عليه وسلم فاجعة كبرى . ومصيبة عظيمة . شعر بعده أن الأيام تنتكر له ، وأن المحن تصطليح عليه ، وأن المصائب تنازل ، وأن الحوادث تصاربه ، وزاد من وطأة الألم فى نفسه أنه لم يمض على موتها أكثر من خمسة وثلاثين يوما - كما يذكر الحضري - حتى مات عمه أبو طالب . فكان هذا العام - كما سماه المسلمون وسماه النبى صلى الله عليه وسلم - عام الحزن - . وإى حزن وراه ، وإى فاجعة بعده . . . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اجتمعت على هذه الأمة فى هذه الأيام مصيبتان لا أدرى أنا بأيهما أشد جزعا » . .

ونحن نعلم أن قريشا ابتدأت بعد موت أبى طالب تعامل النبى صلى الله عليه وسلم معاملة أخرى ، وتقف منه موقفا جديدا . وتحشد له كل ما تملك من وسائل ، وما تستطيع من حيلة . لتشل حركته ، وتعطل سيره ، وتعوق ركبته ، وإن كانت هذه الشدائد كلها قد دفعت عجلة الزمن ، وحركت عقرب الساعة ، ولقتت أذهان كثيرين من الناس إلى الدخول فى الاسلام ، والايهان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها كانت دعاية له ، واعلانا عنه ، وهكذا يأتى الشر بالخير ، ويأتى الفرج بعد الضيق . .

وعلى الرغم من أن قريشا انتهزت فرصة موت أبى طالب الذى كان للنبى صلى الله عليه وسلم درعه وسيفه . ومجنه وقرسه ، وخط دفاعه القوي . وبرهنت بهذا على أنها تجردت من النوق ، وأنها قد جف معين الحياء من وجهها ، وأصبحت تفكر فى الحد من حريته ونشاطه . والقطع لأوصاله ، والقضاء على حركة انتقاله . وكان هو مع هذا كتيب الحاضر . حزين الفؤاد . لا يستطيع الا أن يكون فى هذا الجو القاتم الذى خلفه له موت خديجة وأبى طالب . لأن عواطفه التى امتلأت بها نفسه . وهواتفه التى امتلأت بها رأسه ، كانت لا تنقطع عن هذا الهيض ، ولا تنفك عن

تلك الهواجس ، وهو لا يعدو أن يكون بشرا تتحكم فيه بشرية الانسان ، ولم يكن أحد في هذا الوقت يراه يتسلسل الى المجتمعات ، أو يتسرب الى المحافل ، أو يغشى المنتديات التي كان يغشاها . داعيا الى الله ، أو معلنا وحى ربه . وكان دخول من يدخل في الاسلام - حينئذ - أشبه بالعملية الآلية ، أو التجاوب الوجداني ، ليس معه جهد ولا معاناة وكأنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يبرهن للنبي صلى الله عليه وسلم من طرف خفي أن هذا الصنيع الذي تصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدرا ، أو يدفع ارادة ، أو يحول دون تبليغ الرسالة وبينما هو من شدة ما ناله من الحزن ، وكثرة ما أصابه من التفكير ، مستغرق في ذهوله الذي أصابه ممعن في وجومه الذي اعتراه سابح في خياله الذي يخلق به في هذا الملكوت رأى نفسه متكئا الى جذع شجرة يقرأ القرآن والجن من حوله يستمعون اليه في صمت : وينصتون اليه في هدوء ، ويتأملون في قوله ، ويتدبرون هديه ، وكأنا هو ضالته المنشودة وحاجتهم التي ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل وقد سجل القرآن قصتهم هذه « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيها على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذبا » وكأنا كان جل جلاله يريد أن يعوضه عن هؤلاء الذين أعرضوا عنه ، وتجهموا له ووقفوا في وجهه ، بأخريين يقبلون عليه ، ويرغبون فيه ، في لهفة الحريص ، وارتياح المشوق ، وقد كان في الحديث الذي صدر عنهم ، والتفكير الذي بدا منهم ، مسحة العقل والمنطق ، كأننا كانوا أساتذة حكمة ورأى ، وفهم وذوق « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا من المسلمين ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » وكان هذا الحدث في نظر العرب جميعا من الذهول والغرابة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يشتغلوا بالتأمل والتفكير في أشياء كانت لا تخطر لهم ببال ، ولا تمر على ذهن ، وكان في مقدمة ذلك فهمهم للجن ، وتصورهم لهم ، وخذيتهم عن إيمانهم بالله ، وبحثهم عن المعرفة ، وجريهم وراءها وكانوا الى هذه اللحظة يظنون في الجن الظنون

وقد تناقلوا هذه القصة ، وأخذوا يتحدثون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم له محيط وراء محيطهم ، ودنيا أوسع من دنياهم ، وأن دعوته ان لم تجد منهم العون والنصير ، والرغبة والقبول ، فستجد من سواهم ، رضوا هم بذلك أم سخطوا ، وأنه ان كان اليوم يتودد اليهم في هديه ، ويلطفهم في دعوته ، ويصفح عنهم في ايدائهم له ، ومطاردتهم اياه ، فسيجيء اليوم الذي يكونون فيه مرغمين ، ويكون الأمر والنهي ، والحل والعقد ، له هو

وجده ، وأنهم أن كانوا يقولون سخرية به ، أو احتقارا له أمر أمر ابن أبي
كبيشة ، فلا بد أن يقولوها حقا وصدقا ، لأن وراه الإرادة الالهية التي
لا ترد ، والقوة العليا التي لا تقهر . . .

ويقول المؤرخون ان أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا وجوه قريش
فلما حضروا مجلسه قال لهم « يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه
وقلب العرب . فيكم المييد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع
التيار ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا الا أحرزتموه ،
ولا شرفا الا أدركتموه فلكنم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به اليك
الوسيلة . والناس لكم حرب . وعلى حربكم الب ، واني أوصيكم بتعظيم
هذه البنية - الكعبة - فان فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش . وثباتا
للوظائف . صلوا أرحامكم ، فان في صلة الرحم منسأة للأجل ،
وزيادة في العدد . واتركوا البني والعقوق ، ففيهما هلكت القرون من
قبلكم . أجيئوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فان فيهما شرف الحياة والمات ،
والليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فان فيهما محبة في الخاص
ومكرمة في العام . واني أوصيكم بمحمد خيرا . فانه الأمين في قريش
والصديق في العرب ، وهو الجامع لكل ما وصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر
قبله الجنان ، وأكفره اللسان ، مخافة الشنان ، كاني أنظر الى صعاليك
العرب ، وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته .
وصدقوا كلمته . وعظموا أمره . فحاض بهم غمرات الموت ، فصارت
رؤساء قريش وضناديدها أذنا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ،
وإذا أعظمهم عليه ، أوجههم اليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنده ، قد
محضته العرب ودادها ، وأضفت له فؤادها ، وأعطته قيادها . . . يا معشر
قريش كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة . والله لا ينسلك سبيله أحد الا رشد ،
ولا يأخذ أحد بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسي مدة ، ولأجلي تأخير ، لكففت
عنه الهزاهز - البلايا - ولدفعت عنه السواهي . . . ثم مات بعد ذلك بثلاثة
أيام . . . وهذه الوصية على الرغم من أن كثيرا من الناس ربما استبعد
حصولها من أبي طالب الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على
اسلامه وقد عرضه عليه فأبى ، الا أنها تمثل نفسه الكبيرة ، وروحه
الظبية ، وسلوكه الذي كان يسلكه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك
السلوك الذي تمثله الآية القرآنية أصدق تمثيل « وهم ينهون وينأون
عنه » لأنه كان معه بجوارحه دون قلبه . . .

مع ثقيف بالطائف

اشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفجوة الواسعة التي أحدثها،
 في نفسه موت خديجة رضي الله عنها قرأى، ولم يمض على ذلك أكثر من
 شهر واحد أن يتزوج. وكان قد سئح له ذلك بشكك ما كان يترقبه
 ولا يشغلهم بذلك أن سودة بنت زمعة العامرية القرشية كانت قد هاجرت
 إلى الحبشة مع زوجها وابن عمها السكران بن عمرو وكانت حين أسلمت
 رغم أنف أهلها وحين رجوعهما من هجرتهما من الحبشة مات زوجها ،
 وكان موقفها في هذا الوقت من أشد المواقف حرجا لأنها بين أن تذهب
 إلى أهلها الذين يحملونها على الكفر ، أو تبقى وحدها من غير عائل يعولها ،
 ولا رجل يأويها ، وهما أمران أحلاهما مر ، وحينئذ وجد رسول الله
 صلى الله عليه وسلم أن المروءة تقضى بانقاذها من الحرج ،
 وانتشالها من تلك الورطة ولم يكن ذلك إلا بزواجها ، وبخاصة وقد
 وجد صلى الله عليه وسلم أن أحدا لم يتقدم إليها ، وبعد ذلك بشهر واحد
 عقد على عائشة رضي الله عنها إلا أنه لم يدخل بها إلا بعد الهجرة إلى
 المدينة . . . وكل هذا منه صلى الله عليه وسلم كان بمثابة المحاولة لتخفيف
 الآلام التي كان يلاقها من أهل مكة بعد موت خديجة وموت عمه أبي طالب
 بعدها ، لكن مطاردتها له ، وتضييقها عليه ، ووقوفها في وجهه ، وصددها
 عن سبيله ، كانت لا تزال كما كانت وأكثر منا كانت ، فخطر بباله أن
 يذهب إلى ثقيف بالطائف . وكان الذي حمله على أن يذهب إليهم بالذات
 أمران اثنان عداوتهم لقريش بمكة ، وقد ظن أن هذه العداوة ربما كانت
 مما يغري الثقيفين بالاستجابة ليخبروا بذلك حفيظة أعدائهم الذين طاردوه ،
 ولم يستجيبوا له ، الأمر الثاني أن أم جده هاشم بن عبد مناف عاتكة
 السلمية من بنتي سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف ، فلما توجه إليهم

ومعه مولاة زيد بن حارثة قابل رؤساءهم الثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمرو فعرض عليهم نصرته فرفضوا ذلك ، وردوه . أسوأ رد . ولم يكتفوا بهذا الرد والرفض . وإنما أبلغوا أمر هذه المقابلة المزرية الى قريش التي كانت تتشفي فيه ، وتزداد هي من ناحيتها ايذاء له وايلاما حتى لقد زادوا على ذلك أيضا اغراء الأطفال والسفهاء بمطاردته ورميه بالطوب والحجارة . ومازال يتلافى رمياتهم ، ويتفادى قذائفهم ، حتى أضناه التعب ، وأنهكته المقاومة ، وهناك احتمى بجدار بسستان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وهما من أعدائه صلى الله عليه وسلم فلما وقع نظره عليهما فى داخل البستان ، ورأى أنه يلتجئ الى عدوه الذى يتشفي فيه ، وقد يسره ما يعانیه ، دمعت عيناه وأخذ يناجى ربه بهذه الكلمات « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى . وقلة حيلتى . وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى الى من تكلمنى ؟ الى بعيه يتجهمنى ، أو الى عدو ملكته امرى ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » وكانما رق قلب صاحبه البستان لهذا الدعاء ، فأخذتاهما الشفقة بالداعى ، فبعنا اليه غلامهما النصرانى بقطف من العنف ليرد به جوعه ، ويمسك به قوته المتداعية من جراء ما لاقى ، وحينما تناول قطف العنب لم ينس أن يقول وهو يتناول منه أول حبة بسم الله الرحمن الرحيم ، فهزت هذه الكلمة الغلام النصرانى « عداسا » وقال له هذه كلمة لا يقولها هنا أحد ، فسأله محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى منه هذا الانتباه ومن أى البلاد أنت فقال له من نينوى . على شاطئ دجلة بالعراق تواجهها الموصل . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . قال له وما علمك به ، فقرأ له من القرآن الكريم ما يتعلق بنبا يونس من سورة الصافات « وان يونس لمن المرسلين ، اذ أبق الى الفلك المشحون . فسأهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أن كان من المسيحين ، للبث فى بطنه الى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبثنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه الى مئة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمعتناهم الى حين ، فلما سمع ذلك عداس أقبل عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه . وقال له أشهد أنك عبد الله ورسوله . وكان على مقربة من هذا المشهد الرائع سيدا عداس - عتبة وشيبة - فلما على ذلك وقال له أتقبل رأسه ويديه وقدميه . فقال لهما ما على الأرض خير منه انه أخبرنى بأشياء لا يظلمها الا نبى ، وقد طلباه أن يخرج معهما فى غزوة بدر ليقاتل فى معسكر المشركين فأبى كل الاباء

وفي عقب هذه اللحظة الحرجة التي لاقاها النبي صلى الله عليه وسلم من تقيف وبخاصة من الاخوة الثلاثة اولاد عمرو بن عمير الثقفي ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، ومن الاطفال الذين كانوا يتعقبونه رميا بالحجارة جاء اليه جبريل عليه السلام وقال له ان الله قد سمع ردهم عليك ، وايداهم لك ، وهذا اخي ملك الجبال ان شئت أن يطبق عليهم الأخشبين - جبلين - فعل ذلك ، فمره وهو مأمور أن يستجيب لك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا يا جبريل فاني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده ولا يشرك به أحدا . . . وقد روت السيدة عائشة رضی الله عنها هذه القصة . . . قالت قلت يارسول الله هل أتى عليك يوم أشد عليك من أحد . . . قال لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبتني الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق مما أنا فيه من الغم الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي واذا أنا بسحابة قد أظلمتني . فنظرت فاذا فيها جبريل فناداني فقال ان الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد بعثت اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت ، فناداني ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يا محمد ، ان الله قد سمع قول قومك وما ردوا به عليك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثت اليك ربك لتأمرني بأمرك ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . . . قال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له . . . ولما كان بنخلة وهو عائد الى مكة قابله وفد من الجن كانوا رسل قومهم اليه لمعرفة أخباره ، والوقوف على أمر دعوته ، رجاء الايمان بها والدخول فيها ، وهو الذي تشير اليه الآيات « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولو الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجببوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » ويظهر أن هذا الفريق الذي صرفه الله اليه ليستمع ثم ولوا الى قومهم مدبرين غير هذا الذي ذكر في أول سورة الجن . . . وعلى كل حال فان هذه الرحلة الشاقة من النبي صلى الله عليه وسلم كان من الضروري أن تنتهي الى مكة ، وكان ذلك من المشاكل الجديدة التي يعانيتها ، لقد عاد منهزما - ولو في نظر خصومه على الأقل - وعودته هذه من رحلة كان يرجو من ورائها أن يكتسب أنصارا يتقوى بهم على من يناوئه ، وينتصر بهم على من يحاربه ، والذين يناوئونه أو يحاربونه في

مكة التي لا يغنى له عن دخولها والانتهاه اليها وغيرها القلة من أتباعه وأمهله . . . وقد استحضر في ذهنه صلى الله عليه وسلم كل هذه المعاني فأرسل مولاة زيد بن حارثة ليبحث له عن رجل فيه من الجرأة والشجاعة ما يساعده على ألا يرفض جوار محمد . وأن يقف الى جانبه ، وأن يرد عنه عدوان من تحدثه نفسه بالعدوان عليه . فكان ذلك الرجل هو المطعم ابن عدي بن نوفل الذي تسليح هو وبنوه للقائه . ودخل صلى الله عليه وسلم مكة آمنا مطمئنا لم يتعرض له أحد بسوء ، وقد أعلن المطعم بن عدي هذا الجوار ، ليؤكد له أنه لا يتخلى عنه ، ولم يكتب بذلك حتى طاف معه حول الكعبة وفي أثناء هذا الطواف كان بعض المشركين يسألون المطعم ان كان تابعا لمحمد أم مجريا ، فيقول لهم مجبر ، فيقولون له لا تخفر ذمتك . وقد عودم الله سبحانه وتعالى في كل موقف من مواقف الشدائد التي تصادفه ، أن يرسل اليه بصيصا من الأمل ، أو شعاعا من الرجاء . وكان هذا البصيص أو ذلك الشعاع ، قصة الطفيل البوسى الشاعر الذى التقى به ، واستمع اليه ، وملك عليه جوانبه ما سمعه من القرآن ، فأعلن إيمانه به . وكان داعية حصييفا لدى قومه الذين دخل منهم الكثير فى دين محمد صلى الله عليه وسلم - وكما سبق الحديث عنه - وكذلك وقد نصارى نجران الذين قبلنا انهم جاءوا - يادى ذى بده - لتعرف أخباره ، وتقصى أحواله ، والوقوف على جلية الأمر . ليعودوا الى قومهم بالخبر اليقين . ولكنهم آمنوا به قبل أن تتحرك أقدامهم الى رحالهم ، وقبل أن ينقلوا الى قومهم الخبر ، حتى غيرهم أبو جهل بسرعة الانقياد ، وأنهم جاءوا لغرض فعادوا بنقيضه ، وهكذا عودم الله نبيه ألا يخذله ، ولا يتخلى عنه ، ينظر فإذا جبريل على مقربة منه ، يعرض عليه مسانيدته له ، ووقوفه معه ، واستعداده لاستجابة أوامره ، ومع هذا كله فان قافلة الدعوة تسسير ، لا يتعطل لها سير . ولا تتوقف لها حركة ، ولا يخفت لها صوت . والذين يدخلون فى دين الله لا تحول خصومة قريش لمحمد ولا عداوتها بينهم وبين الايمان بهذا الدين الذى صار يجرى فى الناس مجرى الدم فى العروق .

الاسراء والمعراج

كانت حياة الدعوة الاسلامية التي تصدر لها محمد صلى الله عليه وسلم يأمر من ربه سلسلة متصلة الحلقات من المغامرات الشاقية والمصارعات المرهقة ، والصدام الدائم بينه وبين الكفار الذين وقفوا جاهداهم على الكيد له ، والصناد عن دينه ، واقامة العراقيين في سبيله ، واختلاق العيوب له ، وافتراء الكذب عليه ، واشعال تيران الحروب من حوله ، رجاء أن يحولوه عن غايته ، أو يشيعوا اليأس في نفسه ، ليرجع عن تلك المسيرة التي ابتدأها من الصفا والمروة ، ولا يزال يواصل الاسترسال فيها ، والامعان في دوامها ، لم يشنه عنها تعب يلاقيه ، ولا غناء يقاسنيه ، ولا مشقة تصادفه ، ولا سفه يواجهه ، وكان من الطريف في هذا الكفاح المرير ، والحرب النفسية الظلمة ، أن قوى خفية كانت تسانده ، فلا تتزكك لليأس ، ولا تسلمه للأوهام ، ولا تدع روح القلق تتسرب اليه ، وربما تشيع فيه الأمل والرجاء ، بما تمده به من العناية ، وتقدمه له من الاهتمام ، وتسخر له من وسائل الفوز والنجاح ، فلم يصنطدم بمشقة ، أو يواجه بأرهاق وعناء ، أو أيام وتعذيب ، الا ويد الله تمسح عليه ، لتزيل عنه آثار ما لاقى من هوان ، أو صادف من متاعب ومصاعب .

والمعاملة القاسية التي عاملت بها قريش النبي صلى الله عليه وسلم إلى درجة أن ضاق ذرعا بمكة وأهلها ، فقطع الرجاء عن دعوتهم ، ونفض يديه من جوارهم ، وتطلع بفؤاده المكدود ، ونفسه الكثيبة ، وقلبه الحزين ، إلى جوار آخر يتنفس فيه الهواء النقي ، وينظر فيه إلى وجوه مشرقة بالأمل ، باسمته بالرجاء ، لا تعبس له ، ولا تشيع بوجهها عنه وظل في قلبه بركان يغلي ومازال هكذا زمنا طويلا يترقب من ربه الفرج ،

وينتظر طلوع رحمته . كانت لونا من هذه المعاناة والشدائد . . . وقد كان ذلك مضافا اليه موت خديجة وموت أبي طالب والمقاطعة التي أحكمت أساليب اللؤم والغدر فيها قريش ، فجعل هو والمسلمون معه يحتملون منها ثلاث سنوات كاملة ما تنوء به الجبال الرواسي . . . والأجسام اذا لم تخلد الى السكون بعد العناء ، والراحة بعد التعب ، والنوم بعد الصحو الطويل . والسهر الدائم ، كالت وملت ، وأصابها الفتور والاعياء ، ووقفت عن العمل والحركة . . . وقد أراد الله سبحانه وتعالى من تلك الرحلة الممتعة ، راحة لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وترضية لحاطره ، الى جانب ما هو فيها من المشاهدة لعالم آخر لم يكن ميسورا له أن يشاهده أو يتصل به ، حيث طوى له التاريخ ، وجمع له الأحداث ، وكشف له حقائق ، ومر به على عظام وعبر . . . ليعلم له مكانته عنده ، ومنزلته لديه ، حتى لا يتسرب اليه الشك في أنه أفضل خلقه لديه ، وأكرم أنبيائه ورسوله عنده ، وهو عمل أشبه بما يصنعه ملوك الدنيا اذا ما وقد عليهم زائر كريم ، أو ضيف عظيم . فانهم يطوفون به على قصورهم الفخمة ، وأملأهم المترامية . ومعالم حضارتهم وتقدمهم . . . واذا كانت الرحلات مع ما فيها من جوانب المتعة للنفس . والترويح عن خاطر ، تزيد في المعرفة ، فقد كان ما رآه صلى الله عليه وسلم من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان ، والأشكال ، والجزاء على أعمال الخير والشر ، وعقبي الظالمين والمتكبرين ، والمنحرفين أو المقترفين . . . تأكيدا للحقائق ، وتصويرا للمعاني ، وتنويرا بمكانته عنده سبحانه وتعالى ، والحديث في الاسراء والمعراج كان مثار خلاف وجدل بين العلماء - قديما وحديثا - ولم يكن الخلاف في ثبوتها وحقيقتها . . . أما الاسراء فقد نطق به القرآن الكريم في أول سورة الاسراء « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » . . . ومنكره كافر لأنه ينسكرك القرآن الذي هو تنزيل من حكيم حميد . . . أما المعراج فان ثبوته جاء من طريق السنة وهي دليل ظني كما يقبول العلماء ، ومن الأحاديث التي وردت فيه « عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال كان أبو ذر رضى الله عنه يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فافرغه في صدرى ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فخرج بي الى السماء الدنيا ، فلما جئت الى السماء الدنيا قال جبريل لحازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل . . . قال هل معك أحد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم . . . فقال أو أرسل اليه قال نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فاذا رجل قاعد

على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا
 نظر قبل شماله بكى . فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت
 لجبريل من هذا . قال هذا آدم صلى الله عليه وسلم وهذه الأسود عن
 يمينه نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسود التي عن شماله
 أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى حتى
 عرج إلى السماء الثانية فقال لحازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال
 الأول ففتح قال أنس فذكر أنه وجد في السموات آدم وادريس وموسى
 وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف كانت منازلهم غير أنه
 ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة . . .
 قال أنس فلما مر جبريل عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وسلم بادريس
 قال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح . فقلت من هذا قال هذا ادريس
 ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا
 قال موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح قلت
 من هذا قال هذا عيسى ثم مررت بإبراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح
 والابن الصالح قلت من هذا قال هذا إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكان
 ابن عباس وأبو حبة الأنصاري يقولان قال النبي صلى الله عليه وسلم
 ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام . . . قال
 أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم فرض الله عز وجل على أمتي
 خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى صلى الله عليه وسلم
 فقال ما فرض الله على أمتك قلت فرض خمسين صلاة قال فارجع إلى ربك
 فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت إلى موسى قلت
 وضع شطرها فقال راجع ربك فإن أمتك لا تطيق فرجعت فوضع شطرها
 فرجعت إليه فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعت فقال
 هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدى فرجعت إلى موسى فقال أرجع
 إلى ربك . قلت استحييت من ربي ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة
 المنتهى وغشيها ألوان ما أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها خيائل
 اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » ويلاحظ أن الحديث طوى ذكر الأسراء اعتمادا
 على ذكر القرآن له . . . وقد ورد حديث الأسراء والمعراج بصورتين مختلفتين
 باختلاف الرواة فالذي يرويه مالك بن صعصعة غير الذي يرويه مالك بن
 أنس . وان كان كلاهما يتفق على أن الأسراء تقدمه إيقاف جبريل عليه
 الصلاة والسلام . وشق صدره . وصب وعاء من علم وحكمة فيه . كما
 يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب السموات ،
 يستأذن جبريل فيقول القائل منهم من ذلك الذي يطرق الباب فيرد عليه
 جبريل قائلا له أنا جبريل ، فيقول له ومن معك فيقول له محمد فيقول
 بعد الحفاوة به والترحيب أو قد أرسل إليه فيقول جبريل نعم . وهكذا

زوفه الاستقبال تدل على مقدار الاهتمام بالضيف ، والتعظيم له ، وتسخير
 الأعداء والرؤساء لخدمته . . . والذي يتصور هذا الاستقبال وما أحاط به
 من الأجلال والاحترام ، سينسى من غير شك استعراض الجيوش التي
 كانت تعد لاستقبال الملوك ، ورؤساء الدول ، احتفالا بقدمهم ، وابتهاجا
 بضيافتهم ، وتنويها بشأنهم ، وتخليدا لتاريخهم ، ولا ننسى أنه قيل
 الخروج إلى السماء ومعه جبريل عليه السلام قد صلى بالأنبياء في بيت
 المقدس . . . وقد كان هو الإمام مع أن في هذا الجمع الذي صلى به آدم
 أبنا البشر . . . وأباه إبراهيم وكان فيهم - كذلك - أولو العزم من الرسل .
 وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة ، والتكريم الذي لا نهاية له . . . ويقول
 رواية الحديث أن جبريل لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو صلى الله عليه
 وسلم فإنه ارتفع إلى سدرة المنتهى ، ورأى نيقمها مثل قلال هجر ، وورقها
 مثل آذان القبلة ، ثم تجاوزها إلى البيت المعمور ورأى أفواج الملائكة تدخل
 إليه أو تخرج منه . . . وهكذا رأى صلى الله عليه وسلم ما لا عين رأت ،
 ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . . وفي ذلك كله دليل آخر على
 أن قدره يتجاوز هؤلاء جميعا بما فيهم جبريل الذي نتخى له عن السبق ،
 وقال له ليس من حقى أن أزيد عن ذلك أما أنت فلك إلى ما وراء سدرة
 المنتهى « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده
 ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمازونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة
 أخرى . . . عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ،
 ما زاح البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

والإسراع هو السير بالليل ، ومشيئه السري وزان الهدى والنهي
 والبطء . . . وهو قطعه صلى الله عليه وسلم المسافة من المسجد الحرام بمكة
 إلى المسجد الأقصى ، بالمقدس . . . على الدابة المسماة بالبراق ، وكان العرب
 لا يقطعونها إلا في شهر كامل ذهابا ورجوعا . . . ولذلك هالهم الأمر . .
 واستعظمو ذلك الحديث ، وطالبوه صلى الله عليه وسلم بالدليل على أنه
 صادق في ذلك . . . فأخبرهم بأن في الطريق عرا ليني فلان وأخرى ليني
 فلان ومن أوصافها كيت وكيت ، فطالبوه أن يصف بيت المقدس نفسه . .
 فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه . . . وهي يتحدث لهم عن جدرانها ونوافذها . . .
 وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، أنه سمع رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول « لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلاى الله
 بيت المقدس فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » على أنهم مع هذا
 البيان كله كذبوه صلى الله عليه وسلم وقالوا لعلها رؤيا نائم ، أو وهم
 جالم . . . وارتد بعضهم عن الإسلام بسببها « وما جعلنا الرؤيا التي أرىناك
 إلا فتنة للناس » . . .

والمعراج هو الصعود . ومنه قوله تعالى في سورة المعارج « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » وقد صعد معه جبريل عليه السلام من غير سلم ولا آلة أخرى يرتفع بها . بل بقوة الهية كانت تجذبه الى فوق كأنما كان يمتطي مصعدا مما صنعه العلم الحديث الآن . . . وللعلماء اختلاف في حصوله للنبي صلى الله عليه وسلم ، هل كان بجسمه وروحه أم انه كان بروحه فقط ، والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط . يقولون ان نظرية الضغط الجوى هي التي تحدد ذلك لأن الانسان اذا ارتفع الى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لم يموت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط . ويلزم من هذا القول انتفاء الاعجاز والخصوصية . . . والذين يقولون انه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل . . . ويقولون انه كان معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة ، ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى في تسجيل هذه الحادثة يقول : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » والعبد اسم للروح والجسم معا ، ولو كان بالجسم فقط لقال بجسم أو جسد أو ما شاكل ذلك مما يدل على الهيولى مجردة على الروح ، وكذلك لو كان بالروح . على أن الروح وحدها لا يصح أن تكون مجال بحث أو نظر ، لأن الأرواح - مطلقا - من خصائصها التحليق والطواف دون أن تحدها أبعاد أو غايات ، لأن التحديد للمادة وهي ليست كذلك . . .

وفي عروجه صلى الله عليه وسلم فرضت الصلاة - كما ثبتت قصتها في الحديث - خمسين صلاة في اليوم واليلة . ومازال صلى الله عليه وسلم يراجع فيها ربه خوفا من المشقة على أمته حتى صارت خمسا فقط ، ومن عجيب أمر هذه المراجعة أو المحاورة أن يكون موسى عليه السلام هو الطرف الثالث فيها دون غيره من الأنبياء والرسل ، وفيهم من هو أمس رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جده ابراهيم ، ولعل السر فى هذا يرجع الى أن موسى أكثر الأنبياء معاناة ، وأعظمهم تجارب ، لأن بنى اسرائيل لم يتركوا معه بابا من أبواب العنت الا ولجوه ، ولا أسلوبا من الأساليب فى الكيد الا سلكوه ، وكانت حياته معهم سلسلة من الصراخ الدائم ، والكفاح المرير . وهو من هذه الناحية أبعد نظرا ، وأحزم رأيا ، ولا يطعن هذا فى غيره من الأنبياء والرسل . لأن التخصص بالمرزية لا يقتضى الأفضلية - كما يقول علماء الأصول - وليس معنى مشروعية الصلاة فى هذه الرحلة الخالدة أنه صلى الله عليه وسلم لم تكن فى عبادته

لربه صلاة ، فانه كان يصلى . وكانت الصلاة ركعتين ركعتين كما صح
في الحديث الشريف . ويظهر أن الرحلة الأخيرة التي فرضت فيها الصلاة
كانت هي الرحلة الثانية في تدرج المشروعية . ونحن نعلم أن التدرج
كان في كثير من التكاليف والعبادات . على أنه صلى الله عليه وسلم كان
يتعبد في أول أمره على ملة أبيه ابراهيم وربما كانت الصلاة هكذا في ملة
ابراهيم .

مبايعة العقبة

لم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه سكت عن الدعوة لحرب واجهته ، أو شدة صادفته ، أو تدبير شرير قام به خصومه ، أو هياه له أعداؤه . ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد . لا يثنيه صعب . ولا يرده مستعص . ولا يثنى عزيمته جاف غليظ . . . وكان خصومه كلما حاولوا أن يعطلوا مسيرته ، أو يعوقوا ركبته . أو يثلقوا في وجهه الأبواب . مهد هو بجلده وكفاحه وعزيمته وثقته في الله بابا آخر يدخل منه الى قلوب الناس وأفئدتهم . ونحن نعلم أنهم كانوا يتابعونه في المجالس والطرقات والأسواق ليقولوا للناس لا تلتفتوا اليه ، ولا تأخذوا عنه ، ولا تصدقوا له قولا ، لأنه يكفر بالآلهة . ولا يؤمن بالأوثان . ويفرق بين الرجل وعشيرته ، والمرء وزوجه ، وما زالوا به مطاردة وازدراء وتضييفا حتى قطعوا عليه منافذ الطرق ، ومسالك السبل ، وجعلوه يضيق ذرعا بهم ، وينفض يديه منهم . وقد كان يخرج الى الأسواق يطلب من يجيره ، وينشد من يحميه . ويقول لمن يلتقى به من الواقدين على مكة انه مضطهد في أهله . غريب في وطنه ، محارب من قومه ، لا يشعر بالحرية ، ولا يتمتع بالكرامة ولا يحس بالانصاف من الناس ، ثم يطلب من هؤلاء الذين يوجه اليهم خطابه . ويخصم بشكايته ، أن يحموه من عدوان أهله ، وظلم قرابته ، وكثير من أولئك الذين كان يلوذ بهم . ويفزع اليهم . كانوا يردونه ردا غير كريم ، ويقابلونه بمقابلة جافة ، وكان من الطريف من هذه الطوائف التي عرض نفسه عليها في الأسواق أنهم اشترطوا في ايمانهم به . وانضمامهم اليه ، أن يجعل لهم الرياسة على الناس فاعتذر لهم أن دعوته لا تقوم على السيادة ، ولا تقديس الزعامة « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا » ومع كل هذا فإنه كان

يعلق أملا كبيرا على الوافدين على مكة مرتادى الأسواق من أهل الأطراف البعيدة ، وبخاصة أهل المدينة ، وكأنما يرى أن بينه وبينهم روابط تحديهم عليه ، وترقق قلوبهم له . وتهوى بأفئدتهم إليه . وساعده على هذا الأمل أو زاد من مطامعه في ذلك أن بنى النجار أخوال جده هنالك ، وأن قبر والده هنالك أيضا . لكن الواقع الذي لا شك فيه أن أهل المدينة من العرب واليهود كانت بينهم احن وعداوات . دعت العرب أنفسهم أن يحالفوا اليهود لينتصروا بهم ويهدد بعضهم بعضا ، فالأوس حالفت بنى قريظة ، والخزرج حالفوا بنى قينقاع وبنى النضير ، وكان ذلك امتدادا للعداوة التي خلفها يوم بعث الذي أفنى كبارهم ورؤساءهم ، على أن اليهود كانوا يعتبرونهم سوقة ليست لهم سيادة ولا جاه ، إذ كانوا يعملون لهم ويشغلون في أراضيهم ، وكانوا كلما اختلفوا معهم هددوهم بالنبي الذي حان حينه ، وقرب أوانه ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك لأنه هو الذي جعل كلا من الأوس والخزرج تحرص على أن تسبق إلى الإيمان به لتنتصر به على صاحبها ولما جاء موسم الحج تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من الخزرج يبلغون الستة ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه فأمنوا به وقالوا له ان يجمعنا الله بك فلا رجل أعز منك لدينا ووعدوه المقابلة في الموسم القادم وفي العام الذي بعده جاؤا إليه وقد كمل عددهم اثنا عشر رجلا فعاهدوه على ألا يشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتره بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف وأرسل النبي معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، وكان لمصعب أثر بارز هنالك إذ أسلم على يديه سعد بن معاذ رئيس الأوس وابن عمه أسيد بن حضير وأسلم بإسلامهما خلق كثير . وفي العام الثالث أقبل خمسة وسبعون رجلا وكانت مبايعتهم ذات دوى صاحب جعل قريشا تهتز . وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس الذي لا يزال على دين قومه ، وقد كان يقدر في هذا الوقت خطورة هذا الحلف الذي يعقده محمده مع أهل يثرب . فقال يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث قبله علمتم . وهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتوه اليه ، وما نعوه ممن خالفه . فانتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم مسلموه وخاذلوه بعد خروجكم اليكم فدعوه فقالوا قد سمعنا ما قلت . . . فتكلم يا رسول الله . . . فقال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم وكان فيهم البراء بن معرور فقال بايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب ورنناها كإبرا عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان أترجع إلى قومه

وتدعنا ، فقال النبي أنتم منى وأنا منكم أحارب من جاربتهم وأسالم من سالمتم . . . ومدوا أيديهم فبسط النبي يده وبايعهم وجعل منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . ولما وصل نياها هذه المبايعة الى قريش غضبت أشد الغضب وذهبوا الى الخزرج وقالوا لهم آتيتم الى أرضنا لتأخذوا صاحبنا وتبايعوه على حربنا فاعتذر لهم من لم يحضروا المبايعة ولم يبلغهم خبرها .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيطفرون بهم ، وينتصرون عليهم بالنبي الجديد الذي سيسارعون الى اعتناق دينه ، عندما يصل اليهم العلم بظهوره . وقد كان لهذا التهديد أثره في الدخول في شريعته . والايامن به ، وكل طرف من الأطراف في هذه الآونة كان حريصا على أن يكون أسبق من غيره اليه . . . أما قريش فانها أخذت تتوجس لأنها أصبحت تعتقد أن دعوة محمد قد انتقلت الى مرحلة جديدة تجاوزت بها كونها ديننا وشريعة يختلف الناس عليها بين التصديق والتكذيب ، والايامن والكفر ، والاذعان لها أو الخروج عليها ، وصارت دولة من حقها أن تهدد وتتوعد ، وتحمي حدودها ، وتدافع عنها ، ثم هي في وضع يسمح لها أن تردع وتخيف ، لأنها تستطيع أن تقطع الطريق على قريش ، وتجعلها بين أمرين اما أن يظل مرورها وتجاريتها من هنا مع الخطر الذي تستهدف له ، أو أن تتحول عنه ، وكلا الأمرين يكلفها الكثير من العناء . وقد كان محمد في مكة مع القلة التي آمنت به تحت سماع قريش وبصرها تستطيع أن تحدد موقفها اذا خرج من مكة الى المدينة فقد خرج الأمر من يدها وتجاوز استطاعتها ، وحتى اذا لم يخرج وظل بين ظهرانيتها . فقد صار له معسكران لا معسكر واحد . . . ويقول الدكتور الشريف « ثم تسلل المسلمون أفرادا وجماعات مهاجرين الى يثرب . يستخفي بهجرته من يخشى على نفسه ، ويستعلن بها من يجد في نفسه القدرة على التحدي ، وحاولت قريش أن ترد من استطاعت رده الى مكة لتفتنه عن دينه ، أو لتعذبه وتتكلم به ، وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه ان كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه ، لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف بطونها ان هي همت بقتل واحد من هذه البطون . وان كان بعض الموالى لقي حظه في هذا السبيل . لكن الهجرة مع ذلك تمت وهاجر معظم المسلمين الا من قدرت عليه قريش ، وبقي محمد صلى الله عليه وسلم لا تدري قريش ولا بدرى أحد أيبقى هو كما حدث في الهجرة الى الحبشة ، أم يهاجر في هذه المرة مع أصحابه ، وهذا الاحتمال الأخير هو الذي أخاف قريشا . فانه يستطيع من مهاجرة الجديد أن ينظم جماعته أو ينظم يثرب التي فشا فيها

الاسلام بصورة تنبئ عن أنها ستكون مدينة اسلامية بعد وقت وجيز ، ولو تم هذا لكانت مكانة قريش الدينية والأدبية مهددة لقيام هذا الدين الجديد الذي يعمل لتحطيم الوثنية في بلاد العرب ، ولقضى بذلك - كذلك - على زعامة قريش الروحية . وكانت تجارة مكة على خطر اذا وقف منها محمد موقف العداء والمخاصمة ، وهو لابد واقف هذا الموقف ان عاجلا أو آجلا ، لما الحقته به وبأصحابه من أذى ، ولأنه يسعى لاقرار مبادئ جديدة لابد لاقرارها من تشكيل اجتماعي وسياسي جديد . ولذلك مشى رجال قريش الى بعضهم وعقدوا اجتماعا عاما في دار الندوة تداولوا فيه الأمر ، واستعرضوا كافة احتمالات الموقف . ثم قر رأيهم على ضرورة التخلص من هذا الرجل بالقتل « . . .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ، ووقوفنا على الخطوات التي سلكوها معه من قبل ، أنهم كانوا يتهيئون قتله . ويعتبرون الاقدام عليه ضربا من حماقة والطيش . لذلك لم يقبلوا رأى من يشير به ، أو يفكر فيه ، فناديا لعداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، ولكنهم أصبحوا مع محمد على حال تحتم عليهم أن يفكروا في قتله ، لأنه بسسلوكه الذي يسلكه ، ونهجه الذي يسير عليه ، منته الى قتلهم من غير شك . . . والحصافة تقضى اذا تربص عدوك لك ، وتجهم في وجهك ، وأخذ منافذ الطرق عليك ، أن تحذر منه ، وتستعد له ، وقد أيقنت قريش منذ أدبر عنها وفد العقبة الأخير أن عليها أن تحتاط للشر قبل وقوعه ، الا أن هذا الشر الذي كانت تحذره ، وتأخذ الأهبة لوقوعه شائك الى أبعد حد . وقتل محمد اذا هي أقدمت عليه سيجعلها في حرج لا قبل لها به ، لكن محمدا سيقتلها ان لم تبادر بقتله ، فماذا هي صانعة ، أخذت تقلب المسائل على وجوهها المختلفة لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع - كما يقولون - حتى لا يفكروا في الأخذ بثأره اذا قتل . . . فقال قائل نجعله على ظهر بعير يضل به في الصحراء الى أن يموت . فسفهوا رأيه . وقالوا له انه لا يعدم بمنطقه الحلو . وعقله الكبير ، ورأيه السديد ، وتفكيره الحكيم ، أن يجمع اليه الجموع الغفيرة التي تقبل عليه ، وتتجاوب معه ، وتقدم نفوسها قربانا له ، وتفك وثاقه ، وتخوض معه الحرب الطاحنة لقتل عدوه ، والقضاء على خصومه وقال آخر نحبسه الى أن يموت فردوا عليه بما يشبه الرد السابق . . . وقال أبو جهل نأخذ من كل قبيلة فتى جلدا ، ثم يجتمع هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطع أهله أن يثأروا له . . . وبينما كانوا جادين لانجاز تلك الفكرة التي وصلوا اليها . كانت الأنباء تأتي اليهم أن المسلمين الذين كانوا في الحبشة والذين كانوا في مكة قد أخذوا طريقهم الى يشرب التي تنطلق الى لقائهم ، وتهفو الى

جوارهم ، وتستعد كل الاستعداد لايوائهم . . . وكان على كرم الله وجهه
فى المكان الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم ينام فيه مبالغة فى
تضليلهم . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خرج هو وأبو بكر
رضى الله عنه متوجهين الى المدينة . . .

والى هنا نستطيع أن نقول ان قريشا قد تفلت الزمام من يدها ،
وان الأرض التى تقف عليها لم تكن صلبة وان تفاديتها للموقف ، أو
علاجها للأمور ، لم يعد ممكنا . وأن كل خطوة كانت تخطوها للكيد لمحمد
أو النيل منه ستلقى جزاءها مضاعفا . وستحاسب عليها حسابا عسيرا ،
وسوف يكون وضعها فى مكة غير محسود عليه . وسنرى من سير
الحوادث ، وجريان عجلة التاريخ ، أن أوراقها ستذبل ، ونضارتها
ستزول ، وتيجانها سوف تتساقط تساقط أوراق الخريف ، لأن دولة
محمد صلى الله عليه وسلم التى تقوم فى المدينة ستأخذ فى الاعتبار
حينما تزحف زحفها المقدس فى الأرض . لتمكين الحق ، واقرار العدل ،
وانصاف المظلومين ، وعبادة الله . وتصحيح الأوضاع ، أن ذلك كله
لا يكون الا اذا تحطمت أصنام مكة . . .

هجرة الرسول

لم يكن هنالك بد وقد أفرغت قريش كل ما في جعبتها أن يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ومن كان معه من المسلمين مكة ، بعد أن أصبحت الحياة فيها مليئة بالقلق والاضطراب ، والألام والأذى ، والمطاردة والخوف والعنت والارهاق ، والكيد والتعذيب ، لكن كيف يقدم على ذلك وهم لا يغمضون أعينهم عنه . كأنما هم موكلون بحراسته ، إذا نام أو صحا ، أو تحرك أو سكن ، أو نطق أو سكت ، أو راح أو جاء ، حتى البيت الذي يأوى إليه لا يفوتهم أن يعرفوا ان كان يحتويه أو خاليا منه ، ينظرون من فرجة منه ليروه ببرده الخضرمي الأخضر ملتقا مستغرقا في النوم . فاذا لم يكن على مقربة منهم ، وفي الأمكنة التي يعهدونها ثارت نفوسهم ، واختل توازنهم ، وأخذوا يبحثون عن مكانه ليطمئنوا على أنه في قبضة أيديهم ، وفي مناطق نفوذهم . لهذا كان من الصعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفى عن أنظارهم . أو يغيب عن أعينهم ، أو لا يكون لهم علم بمكان وجوده ، وكل واحد منهم ديدبان على باب داره ، ومناطق تحركه ، ومجالات نشاطه لبث دعوته ، وإعلان دينه ، وهذا هو السر في أنه لم يخرج إلى البلاد المجاورة له طيلة هذه المدة التي أقامها بينهم مع ما كانوا يصنعون معه ، وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارا بأنفسهم ، لكنه لم يخرج معهم وربما كان في خروجه غنم له وللدعوة التي ينادى بها ، إلا أن هذا البقاء الذي كان على غير رغبته . كان خارجا عن إرادته . ولو استطاعه لبادر إليه . على الرغم من أن فراقه لم يكن يسيرا على نفسه . أو مما تقر به عينه ، لأنها مجال صباه ، ومراد طفولته ، وموطن أهله وعشيرته . ولهذا فان الظروف التي ساعدته على أن يفارقها لم تنتج له إلا بعد تفكير طويل . ودراسة واعية . وتخطيط عميق . شارك فيه مجموعة من الناس كان لكل منهم

دوره الجاد ، وجهده المشكور . فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه يجعل نفسه فى مكان النبى صلى الله عليه وسلم ينام فى فراشه ويعرض حياته للموت وهو يعلم أنه ينام فى فراش وفى مكان انسان يطلبه أعداؤه للموت . وأبو بكر رضى الله عنه يهيب راحلتين يشتريهما بماله الخاص . وعبد الله ابن أريقط يضع نفسه تحت تصرف الراكبين ليكون دليل الطريق . وعبد الله بن أبى بكر يلتقط أخبار قريش لينقلها الى الرجلين فى الغار . وكان عامر بن فهيرة راعى غنم أبى بكر يعفى آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر بسير الغنم وهو غاد أو رائج الى أبيه ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسماء بنت أبى بكر تحمل الزاد . وغار ثور الذى يختفى فيه الرسول ومعهم صاحبه تنسج العنكبوت نسجها على بابه ، والحمامة تصنع لها عشا لتبيض فيه . وشجرة بعد ذلك كله تميل بفرعها على باب الغار . وهكذا منظر يدل على أن الغار مهجور منذ زمن طويل لم يمر ببابه حيوان ولا انسان .

عناية الالهية تجاوزت حدود العقل من غير شك تلك التى تولت باب الغار بنسج العنكبوت وعش الحمام وفرع الشجرة . الا أن السياسة التى أخذ النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بها لتنجح تلك الخطة التى رسمها . والرحلة التى ابتدأها ، كانت هى أيضا عنوانا على بعد النظر . ودقة التفكير . إذ أنه اختار للاختفاء غار ثور على بعد ساعة من الزمن من مكة ، ثم ظل مختفيا ثلاثة أيام ، وهو يعلم أن عدوه الذى يطلبه سينطلق فى طلبه الى الطريق العام بين مكة والمدينة . فلا يفكر أنه على مقربة منه ، أو أنه لا يزال مقيما معه . ويضاف الى ذلك أنه بعد هذا الاختفاء لم يسلك الطريق المألوف وإنما سلك أخرى . وكل هذه الوسائل التى اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لخروجه من مكة وهجرته من مكان يلاقى من أهله العنت كانت عبقرية رائعة تدل على سياسة حكيمة . وعقل كبير ، ربما كان خارجا عن نطاق المألوف فى أصحاب العبقريات الجبارة

كل هذا تدور به عجلة الزمن . ويمضى به التاريخ قدما . وقريش لا تزال على يقينها الكاذب ، وهمها الباطل . أن محمدا صلى الله عليه وسلم بين ظهرائها ، والفتيان الذين وقع عليهم الاختيار ليفرقوا دمه فى القبائل على باب داره ينتظرون خروجه منها ليضربوه ضربة رجل واحد ، وما يدرون أن النعاس قد غلبهم فى لحظة من اللحظات ، كان خروجه حينها وقد غفر رؤوسهم بالتراب قائلا شاهت الوجوه . فلم يتنبه منهم أحد . لكنهم ظلوا على هذا الاعتقاد حتى قال لهم قائل لقد رأيت ثلاثة من الرجال على رواجلهم أشبه بالمسافرين وكانما محمد واحد منهم . وحينئذ سقط فى أيديهم . ورأوا أنهم قد ضلوا . فجعلوا لمن يأتيهم بخبر صادق

عن تلك الرحلة مائة بعير . وكان سراقه بن مالك حاضرا فقال أنا آنيكم
بخبير هذه الرحلة ، وكأنما ظن أنهما لا يأخذان الطريق المألوف . فعدا
بفرسه في طريقهم فلما أدركهم سساخت به فزجرها بعنف فنهضت به
نهوضا طائشا ألقى به على الأرض وهنالك أحس كأن الدنيا تلغنه ،
والحياة تلفظه ، والسما تنطبق عليه ، والهواء يخنقه ، وأن إيمانه بمحمد
هو الذي ينقذه مما تورط فيه ، فطلب منه الأمان فأعطاه إياه ، ثم رجاه
أن يعطيه كتابة تدل على أنه أدركه في الطريق والتقى به ، ليأخذ الجائزة
التي رصدوها لمن يدلهم على محمد . . والى هنا كانت قریش على يقين أن
محمد صلي الله عليه وسلم قد فارق مكة متجها الى المدينة وأنه خرج من
قبضة يدها لا تستطيع أن تدرکه ولا أن ترده أو تصده ، وأن هذا هو
الفصل الأخير من الرواية . . لكننا نسأل هل انتهت الرواية حقا ، وهل
هذا هو الفصل الأخير منها . وهل إطمأن خاطرهما لمطاردهما لمحمد ،
وايذاءها له ، وصدها عنه ، ووقوفها في وجهه . الى هذا الحد الذي جعله
يطلب جوارا غير جوارها ، ومناخا غير مناخها ، وقوما سواها لا يكون
فيهم شرستها ، وسوء معاملتها ، وغلظ أفئدتها ، وجمود أفكارها .
وانصراف قلوبها ، وجود عقولها ، أظن ذلك بعيدا كل البعد . وأنها
ستعاني من بعده عنها أكثر مما كانت تعانيه من قربها منها ، ويدلنا على
ذلك أنها قد ابتدأت تفكر في أمر محمد على نطاق أوسع مما كان .
فهو لم يعد في نظرها داعيا الى دين يخالف دينها . ويصطلم بألهتها ،
وانما هي تفكر فيه كرئيس دولة لها كيائها الاجتماعي والسياسي لا يقل
في شأنه عن الدول الأخرى التي تجاورها مثل الفرس والروم . وأنها
إذا كانت في الماضي تحسب هؤلاء الذين كانوا يغيرون على حدودها ،
ويطمعون في السيطرة عليها . فعليها أن تحسب هذا الحساب على نطاق
أوسع لرجل يتنافس على الخضوع له ، والدخول في دينه الأوس
والخزرج وطوائف اليهود في داخل المدينة أو على حدودها . وهو لامحالة
ستحدثه نفسه بالعودة الى الأرض التي طرد منها ، والقوم الذين باعوا
جواره ، وفرطوا في وده ، وخاسوا بعهوده وموائيقه ، وكل وجداناتهم
وعواطفهم كانت تدل على أنهم كانوا يعدون عدتهم لهذا اليوم الذي
يخافونه ، والمصير الذي يتربوننه ، ولو كانوا يعلمون الغيب ما عاشوا
هذه المدة التي فارقهم فيها محمد يعملون للظفر به ، أو النيل منه .
لأن محمدا كان يعيش في قلوب هؤلاء الذين آمنوا به . والتفوا حوله ،
أما هم فانهم كانوا يعيشون في قلوب أنفسهم وكفى . وهي قلوب خربة
من الايمان . خالية من اليقين ، وكل واحد من أصحاب محمد بالف ،
أما هم فكل ألف بواحد ، وشتان بين محمد وبينهم ، ولكنهم لا يفقهون » .

فى الطريق الى المدينة

كان خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة دون أن يعلم به أحد من كفارها الذين كانوا مشغولين به يحصون عليه تحركه وسكونه ضربة قاصمة لم تكن تترقبها . ولا تتوقع حدوثها ، وهذا هو السر الذى جعلها تجعل لمن يدل على جهة تحركه ، او ناحية قصده مائة ناقه من أجود ابلها ، وهى جائزة على ضخامة قدرها . وعظم شأنها . لم يحصل عليها أحد . لأنهم لم يهتدوا الى الجهة . ولم يعرفوا الطريق . ولم يقفوا مع البحث المتواصل . والاهتمام الكبير . على خبر شاف . يطمثون به الى ابن محمدا سلك طريقا بعينه يمكن أن يلحقوا به ، أو يواصلوا السير الى ناحيته ، وكل ماترامى اليهم من الأخبار ، أو وصل اليهم من علم أن رجلا كان يقضى بيت شعر أرادوا أن يجعلوا منه بصيصا من النور . أو شعاعا من المعرفة . ذلك البيت هو قول القائل الذى لا يعرف أحد من هو وما قصته .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

وأم معبد على الطريق لمن يكون متجها الى المدينة يعرف الناس مكانها ، ويعرفون أنها امرأة رقيقة الحال لا تملك من المال . ولا من ثروة الدنيا ، ما تجود به على معدم ، أو تسخو به على محتاج ، لينطلق لسان أحد بالثناء عليها ، أو المدح لها ، بشعر هكذا يتغنى به أحد فى خلوته ، ويردده بينه وبين نفسه . قطعاً لوقت ، أو دفعا لملاحة وسأم ، لهذا كان لابد أن يدفع الفضول كثيرا من الناس أن يبحثوا عن قصة أم معبد هذه ، وما الذى دفع هؤلاء الذين يرددون اسمها ويتحدثون عنها . أن يولوها هذا الاهتمام . وتلك العناية . . وتطوع من تطوع بسؤالها عن هذين الرفيقيين اللذين حلا خيمتها - ولم يكن لأم معبد حظ فى اخفاء هذا الحديث أو انكاره ، وهى لم تعرف صاحبيه ، ولم يوصها واحد منهما أن تحتفظ بسره ، أو أن تخفيه على الناس ، وبخاصة وهو فيه من الطرافة والغرابية

ما يجعله فى باب الأفاضىص الذى يتناقلها الناس . وكان مبلغ علم أم معبد عن هذىن الرفىقىن أنهما قصدا الى خىمتها رغبة فى طعام ىدفعان به غائلة الجوع . أو ماء ىفتلان به حدة الظمأ . ولم ىكن عندها شىء من ذلك . فلما ىنسا من هذا كله مع الجوع والظمأ . نظرا الى شاة هزىلة فى الخىمة وقال أحدهما ألىس فىها لىن نحلبه قالت لهما ان الهزال قد أقعدا عن الخروج الى المرعى مع بقىة الغنم وهى لهذا لا أمل فىها . ولا رجاء منها ، لكن أحدهما تقدم الىها ومسح على ضرعها فدر لىنها فشرب وشرب جمىع من كان هنالك . . وهذا هو كل ما تعرف أم معبد عن هذا البىت من الشعر وعن قصتها معه . . ولعل هذا البىت - كذلك كان هو الخىط الذى وصل سراقا بذلك الطرىق الذى سلكه لىدرك محمدا صلى الله علیه وسلم وان كان جهده الذى بذله لم يعد منه بطائل . . وقد عاتبته قرىش فى بطنه فى العودة لأنها كانت ترجو أن ىعود الىها مسرعا لتدرك رسول الله صلى الله علیه وسلم قبل أن ىدخل الى المدىنة لترده على عقبه الى مكة « ىمكرون وىمكر الله والله خىر الماكرىن » .

وقد كان ىهون المسافة الطوىلة التى قطعها رسول الله صلى الله علیه وسلم بىن مكة والمدىنة أن ابا بكر كان ىقص من التاريخ ، وىروى من حوادث الأىام ، ما ىطرد به الهموم عن النبى ، وىشبع فى نفسه الغبطة والمرح ، فلا ىحس بتعب ، ولا ىشعر بألم ، وأبو بكر حبىب الى نفسه ، قرىب الى قلبه ، ىسترىح لمصاحبته ، وىانس بجواره . وىطىب خاطرا بوجوده معه . . ومع ما كانت علیه تلك الرحلة من المشقة التى ظن محمد صلى الله علیه وسلم ىعانى منها هو وأبو بكر . فانها كانت حبىبة الى نفسىهما . سهلة الوقع علیهما ، لاحساسهما العمىق أن المدىنة سوف تكون الدار الطوىبة ، والبىئة الصالحة ، والتربة الخصبة ، والوطن العزىز . والمنطلق الذى تجد الدعوة فىه من الازدهار والنمو ، والكمال والذىوع . والاستقرار والثبات ، والقوة والتمكن . ما كانت تترقبه وتصبو الیه ، وتأمله وترجوه . . وقد كان من العوامل المهمة فى الاستهانة بهذه المتاعب كلها عامل له تقدره ولا ىصح اغفاله فى تاریخ الهجرة ، والحديث عنها ، أو السرد لآخبارها ، ذلك أن محمدا صلى الله علیه وسلم . فى كل خطوة ىخطوها . وفى كل مكان ىمر به ، كانت تتفتح له قلوب الناس . وتتهافت الیه أفئدتهم . وتحفه من كل جانب ضماثر كانت تتأجج بنار الشوق ، وتمتعل بلهىب الود ، وتخف من مكانها لاستقباله ، والحفاوة به . وتطلب منه أن ىنزل الىها وىحل ضىفا علیها ، ولم ىكده ىصل الى قباء - وبىنها وبىن المدىنة ثلاثة أمىال أو خمسة كىلو مترات - كما ىقول لىبىب البتانونى - حتى كان على بن أبى طالب رضى الله عنه قد أدركه . وهنالك طلب منه بنو عمرو بن عوف أن ىنزل عندهم ،

ويستريح في جوارهم هونا ما من الوقت ثم يواصل سيره بعد ذلك اذا اراد فبقى عندهم اياما وضع فيها اساس مسجد كان هو اول مسجد أسس على التقوى ، واستأنف بعد ذلك سيره الى المدينة على راحلته . ومع أبو بكر على راحلته أيضا . وكان وفود أهل المدينة في صفوف متراسة على طول الطريق من أول النهار حتى يشتد لفتح الشمس عليهم فيعودوا الى منازلهم . وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل الى المدينة أربعة رجال عبد الله بن أريقط دليل الطريق ، وغلامه زيد بن حارثة ، وعلى بن أبي طالب ، وأبو بكر ، ولا يعرف النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجمع الحاشد على جانبي الطريق الا أصحاب بيعة العقبة الأولى والثانية وهم لا يتجاوزون الثمانين بقليل . وقد ترقب صلى الله عليه وسلم اذا عرفه هؤلاء المستقبلون أن يرهقوه بالسلام عليه ، والاستقبال له . وكانوا يعرفون أبا بكر لكثرة أسفاره وتجارته . وهم اذا أرادوا أن يتبينوا النبي صلى الله عليه وسلم من هذا فسوف لا يكون المسئول عنه الا أبا بكر . لهذا أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم ألا يدلهم عليه . حتى لا يحس بالارهاق والتعب أكثر مما لاقاه من سفره فكان أبو بكر اذا سئل عنه أجاب انه رجل يهديني الطريق . ثم ما لبث أن عرفه الناس . وبخاصة الأنصار الذين كانوا يطلبون منه أن ينزل عليهم ويقولون له « هلم الينا يا رسول الله فنحن أهل العدد والعدة والمنعة » ويأخذون بزمام ناقته وهو يقول خلوا سبيلها فانها مأمورة ، وعرض عليه مثل ذلك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وكان رده كذلك انها مأمورة ، وما زالت القصواء تسير وحدها حتى بركت بمربد ليتيمين من بنى رافع ثم قامت وبركت على باب دار أبي أيوب الأنصاري الذي نزل ضيفا عليه ، وبنى في مربد اليتيمين مسجده الشريف ، وظل عند أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر حتى بنى بيوت نسائه بجوار المسجد ، وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما دليل الطريق عبد الله بن أريقط الى مكة ليحيثوا بمن تخلف عنه من أهله فجاؤا بيفاطمة وأم كلثوم بنتيه . وسودة بنت زمعة زوجته ، وأم أيمن زوجة زيد وابنها أسامة ، أما ابنته زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع . وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأمر رومان زوجة أبيه ، وعائشة أخته ، وأسماء أخته أيضا زوجة الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبد الله وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، وتلاحق بعد ذلك المسلمون من مكة الى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلم يبق الا مغلوب على أمره ، أو مفتون في دينه ، واستقر المسلمون في المدينة يمثلون قوة ضاربة لا يمكن لقريش أن تصمد أمامها ، أو تقف بجانبها ، أو تحملها على خطة لا ترضاهها . وقد صارت جبهة من حقها أن تحسب حسابها .

فى المدينة

وصل النبى صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون الى المدينة والغبطة
 ثملاً نفوسهم . والفرح يفيض من جوانحهم ، والبشر باد على وجوههم .
 والاطمئنان ظاهر عليهم . وكأنما كان ذلك انتصارا على المشركين ،
 واذلالا لنفوسهم ، وكيدا لهم ، وإيلا ما سوف يظل متمكنا منهم . مسيطرا
 على هواجسهم وضماثرهم مدى الحياة . فلا يغيب عن مشاعرهم .
 ولا ينأى عن وجداناتهم ، ولا يتخلف عن ادراكهم . ولقد كانت الحفاوة
 التى استقبلوا بها هنالك عاملا قويا فى الاعتقاد بأن عهد الارهاب الذى
 كانوا يعيشون فيه بمكة قد انتهى الى غير رجعة ، وأنهم منذ هذه اللحظة
 قد صاروا قوة يحسب الناس حسابها قبل أن تحدثهم نفوسهم بالنيل
 منهم ، أو الاعتداء عليهم . وهو معنى لم يكن من الميسور عليهم أن
 يصلوا اليه . وهم قلة مطاردة ، وفئة مستضعفة ، وجماعة لا تجد من
 يحدب عليها ، أو يقف بجانبها . وهذه هى الغاية التى كانوا ينشدونها ،
 ويرجون أن يصلوا اليها . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يستقبل تلك
 الحال الجديدة بالاستسلام لها . والتفرغ لما يقتضيه الفرح والابتهاج .
 والغبطة والسرور . من التبطل والانقطاع لطرب النفس . وغبطة القلب
 أو لهو الفؤاد ، شأن كثير من الناس الذين يلهمهم الحاضر عن المستقبل ،
 وانما استقبلها بما يناسبها من العمل الجاد ، والاستعداد الجازم ،
 والاهتمام البصير .

أبتداً أولاً بالمسجد الذى يفرع فيه المسلم الى ربه يناغيه ويناجيه ،
 ويرجوه ويطلب منه . ويضرع اليه ، أن يلهمه السداد والرشاد ، والهداية
 والتوفيق . فى كل ما يأخذ فيه من عمل . أو يضره من نية . وأن تكون
 عزته به ، وقوته منه . وأن يشملته بعنايته دائما أبدا ، فلا يتركه لجبار

يتحكم فيه . ويتسلط عليه . والصلاة الى جانب كونها تزرع هذا المعنى في قلب المسلم . تحببه في الجماعة ، وتعوده على الطاعة ، وترغب اليه النظام ، وتجعله يحس بكونه واحدا من هذه الكتل البشرية التي تتكون منه ومن غيره ، وقد كان المسلمون بحاجة الى الاحساس بهذا الاعتقاد ليرفعوا عن أنفسهم ضيم المطاردة ، وعار النفي ، وذل التفرق . وهو ما شغل النبي صلى الله عليه وسلم بعده أن اطمأن به المقام هنالك . . . وقد وصل الى المدينة والمسلمون معه ، وكلهم - كما يقول الحريري - بادي الانفاض ، خاوى الرفاض . وما منهم الا وله في مكة أب وأخ وأم أو أخت أو زوجة أو انسان عزيز عليه أن يفارقه ، أو يرى نفسه بعيدا عنه . الى جانب أنهم لا يملكون زادا يتبلغون به ، ولا ماء يشربونه ، ولا دارا يأوون اليها . . . والفقر اذا ما تناول الناس في ناحية من هذه النواحي كان هو الموت الأحمر ، ولكنه القدر القاسى يأبى الا أن يضيف الى مرارة الاغتراب ، وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة والحرمان . والقلق والبؤس . والمسلمون في المدينة اذا اتسعت صدورهم ودورهم للنازحين عليهم ، أو النازحين اليهم . فهل تنسح أموالهم . وأرزاقهم . وهم كما وصفهم القرآن الكريم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يركز اهتمامه في أن يأخذ كل واحد من المهاجرين في عمل يحصل منه قوته ، ويضمن له لقمة العيش . حتى لا يكون عالة على أخيه من الأنصار ، على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا بابا من أبواب البر باخوانهم المهاجرين الا فتحوه لهم . ليشعروا أنهم لم تنزح بهم الدار ، أو تنقطع بهم الأسباب ، أو توصل في وجوههم الأبواب ، أو تقتر عليهم الأرزاق ، ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريرة التي مر بها المهاجرون - حينئذ - الا وهم لا يقلون في ثرائهم وثروتهم ومستواهم الاقتصادي عن أهل المدينة من المسلمين وغيرهم ، وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين في هذا الوقت تلك التي أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف التي كانوا يصفونه بأنه لو تاجر في التراب لصار ذهباً . . . وقد أخذت هذه المؤاخاة التي حدثت بين المكين والمدنيين تتحكم أو اصراها . وتزيد أسبابها . وتمكن روابطها بمباشرة النبي صلى الله عليه وسلم لها بنفسه بين المهاجرين والأنصار ، يقول الأستاذ أمين دويدار « وعلى هذا الاساس آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فجعل لكل رجل من المهاجرين أخا من الأنصار . فكان الأنصارى يشاطر أخاه المهاجر داره وماله ، وهو بذلك طيب النفس قرير العين ، حتى لقد عرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف أن يطاق له احدى زوجتيه ليتزوجها ، فضرب الأنصار بذلك مثلا في الأخوة لا نظير له في

تاريخ الانسانية كلها . . . لكن المهاجرين لم يستغلوا هذه العاطفة الكريمة في اخوانهم الأنصار ليعيشوا كالأولاد ، بل أخذوا يسعون ويكدون في سبيل العيش . فاشتغل بعضهم بالتجارة في أسواق المدينة ، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار ، وكانوا يجهدون أنفسهم في العمل حتى يتسبب العرق منهم ، وتظهر آثاره عليهم . . . ولقد قاسى المهاجرون في المدينة كثيرا من ضنك العيش . ومرت بهم أزمات شديدة قاسية ، ولم يكن ذلك تقصيرا من الأنصار في معونتهم . بل ان عددهم قد جعل يتزايد في المدينة ، حتى غدا أكثر مما تحتمله طاقتهم . لكن رابطة الأخوة الرحيمة الصادقة التي جمعت بينهم قد هونت عليهم كل شدة . وسهلت لهم كل صعب ، وعوضتهم من شقاء الأجسام نعيم الأرواح .

لقد كانت هذه الأخوة الجديدة شيئا جديدا على المجتمع العربي ، الذي قطعت أوصاله عصبية القبيلة ، وفككت روابطه قرابة الدم . بل كانت نوعا فريدا في تاريخ الأخوة الانسانية ، قضى على كل تعصب للجنس واللون والقرابة والوطن .

ومن المعروف في هذه الآونة أن محمدا صلى الله عليه وسلم جعل بعد وصوله الى هنالك يثرا كان قد اشتراها أحد المسلمين من يهودي بأربعين ألف درهم عامة للمهاجرين والأنصار ، حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء ، وحتى لا يشعر الأنصار كذلك أنهم شيء آخر غير المهاجرين . . . لكن هذا كله لا يعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون معه قد اطمأنت ضمائرهم كل الاطمئنان في بلدهم وافدون عليه . أو نازحون اليه . تعاودهم ما بين آونة وأخرى فكرة أنهم انتهت بهم المطاردة عنده ، وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع ، أو ينسيهم بلدا فيه البيت الذي جعله الله للناس مثابة وأمنا . . . وهم في المدينة لا يعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافر الذي ينتظر الأوبة . ويرجو لقاء أهله وعشيرته . . . وقد كان رسول الله نفسه يظهر حنينه لمكة . ويبدى اليها الشوق ، وان كان بنى المسجد والى جانبه بيوت زوجاته لاصقة به . ليغرس في قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن ، والاعتقاد بأنه الوطن الأصلي الذي لا تحول عنه . ولا نزوح الى غيره . . . وقد أخذت جذور المعصية الاسلامية تمتد وتمكن في المدينة وشرع الله الأذان والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام ، والمعاهدة التي جمعت بين اليهود والمسلمين كان لها الأثر البالغ في تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا في مكة تخشى بأس المسلمين ، وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم . وغزوهم في عقر دارهم . انتقاما لأموالهم المختصبة .

واهلبيهم المعذبين ، ودينهم المضطهد ، وحريرتهم المسلوبة ، وكرامتهم
 المضية ، لذلك أخذت حمى الخوف والهلع ، والجزع والفرع ، تسرى
 فى أفئدة طواغيت الشرك هنالك . مما عساه أن يلحق بهم ، أو يطرأ
 عليهم ، فلم يكن لهم شغل شاغل وراء الاستعداد للأجهاز على تلك الدولة
 التى يؤسسها محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، لهذا كانت لا تفتأ
 تتحسس أخباره ، وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه ، وتبذل لذلك
 كله ما تبذل لتسرى الى أى مدى تبلغ قوته مداها اذا هى حاربتة .
 أو خرجت لملاقاته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بدوره يتبع
 أخبارهم ، ويحاول أن يعرف ما يبيتونه له . وكان عمه العباس هنالك
 يكتب له أنباء تحركاتهم وشرورهم التى يضمرونها . . . وكان التشريع
 السماوى ، والأدب النبوى ، يسيران معا جنبا الى جنب . فى تكوين
 الوحدة الاسلامية ، والمبادئ الانسانية ، والأخلاق النبيلة ، لتتلاقى
 القلوب . ويجتمع الشمل ، وتدوب الفوارق ، وتسود المحبة بين الناس ،
 وينسى كل انسان عصبيته لأهله وذويه ، أمام دينه الذى كان له منه
 نسب وصهر . . . وليست هذه المعانى بالأمر اليسير فى نظر مشركى مكة
 الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد وأصحابه . فقد كانت قلوبهم تغلى
 بالحقد عليه . والكراهية له . من جراء هذا الزحف المنتظر الذى سينظمه
 للقضاء عليهم على الرغم من علمهم أن عناصر أخرى تشاركهم فى عداوة
 محمد وأصحابه ، لأن القوة التى صار الاسلام يعتمده عليها بعد تلك
 العناصر التى تلاقى فى الأهواء والميول والعواطف والشعور هنالك فى
 المدينة بعد أن ألف الدين بينها . وجعل منها قوة لا تستطيع أية قوة أن
 تصد زحفها ، أو تقاوم تيارها ، أو تحول سيرها ، أو تسكت صوتها ،
 أو تعاند ارادتها ، أصبحت لها السيادة .

تكوين الدولة

الأوس والخزرج واليهود هم سكان المدينة الذين وفد عليهم المهاجرون من مكة . والأوس والخزرج على الرغم من لحمة القرابة والدم التي كانت تجمعهم كانت قلوبهم متباعدة . وأهواؤهم متنافرة ، وخلافاتهم لا تنتهي . والحروب بينهم لا تضع أوزارها ، الا وهي تنهياً لحرب أخرى . أكثر ضراوة . وأشد اندلاعا . واليهود - كذلك - لهم خلافات وعداوات وحزازات . بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين العرب من الأوس أو الخزرج وكانوا فيما بينهم وبين ضمايرهم لا يودون أن يروا على موقع أنظارهم واحدا من الأوس أو الخزرج . وكانت صياصبيهم التي اتخذوها . وحصونهم التي بنوها من المتانة والقوة . والاستحكام والاستعداد بدرجة تثير الدهش ، وتلفت النظر ، وتدعو الى الغرابة والعجب . ودعاهم الى اقامتها على هذا الوضع . عدم اطمئنانهم الى العرب الذين كانوا يجاورونهم . حتى اذا ما اختلفوا معهم فجاربوهم أو ترقبوا منهم الشر كانت هذه الحصون قلاعهم التي يتحصنون بها ، أو بروجهم التي تعصمهم من عدوان غير ، أو اعتداء كاشح . وهي على هذا الوضع رمز لصلة الطرفين بعضهما مع بعض ، أو عنوان على أن الرابطة التي تجمعهما كانت قائمة على الحذر والخوف ، لا على الاطمئنان والثقة ، ولهذا كله فان مهمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وصوله الى المدينة لم تكن من السهولة واليسر بالقدر الذي يجعله مستريح البال ، هادئ الخاطر . قرير العين ، نعم تكلمت رحلته بالتجاح ، ونجاه الله سبحانه من شباك الكفار التي نصبوها له ، ولم يستطيعوا أن يلاحقوه ، ولا أن يتالوا منه . لكنه لم يكن يشك في أنه يواجه بمسئولية شاقة تحتاج منه الى سياسة حكيمة ، وتفكير سديد ، ونظر ثاقب ، وبصيرة نافذة . وعقل رشيد .

وقام أخى بين الأنصار والمهاجرين واطمأن على أن الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق قد عوضهم الله خيرا مما فقدوا ، وأنهم قد نشطوا للعمل فى الأسواق والتجارة والزراعة وعادت لهم الحياة أحسن مما كانت ، لكن ذلك وحده لا يكفي أو لم يكن هو كل ما يبغيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو لم ينس بعد أنه مطارد من أهل مكة . وأن مطاردتهم له لم تنته باخراجه منها ، وبعده عنها ، وإنما هى مطاردة تتبعها ملاحقة . لأن العداوة القائمة بينهم وبينه لم تزل أسبابها ، ولم تنقطع بواعتها . وبخاصة وقد صار محمد فى طريق تجارتهم . ومن حقه أن يحمى دولته الجديدة ، ويتحكم فى سبلها . ومنافذ الدخول إليها أو الخروج منها ، وهذه أعراف دولية لا ينكرها عليه أحد ، ومعنى هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد صار مع قريش فى وضع المحارب وأنها هى أيضا صارت معه فى وضع المحارب ، رضى هو أم أبى ، ورضيت هى كذلك أم أبت ، على أن المقدمات التى قدمتها قريش كانت من غير شك مقدمات حرب . لذلك كان يؤرق النبى صلى الله عليه وسلم هذا الوضع الجديد أكثر مما كان يطمئنه ، والمؤاخاة التى جعلها بين الأنصار والمهاجرين لم تكن هى كل ما يبغيه ، فإن هنالك عنصرية قائمة بعنوان يهود وعرب وهى فى حاجة الى ما يقضى عليها ، أو يكف من جذتها على الأقل ، وكان ذلك متمثلا فى معاهدة مكتوبة يوقع عليها الأطراف ، ويلتزمون بها ، وهذه هى خلاصة هذه المعاهدة كما جاءت بها كتب التاريخ ونشرها الدكتور الحيدرى أستاذ الحقوق بالجامعة العثمانية بحيدر أباد فى كتابه « الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » « هذا كتاب من محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم لحق بهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس . . المهاجرون من قريش يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم . . وبنو عوف يتعاقلون ، وكل طائفة تفدى عانيها . . وبنو الحارث يتعاقلون وكل طائفة تفدى عانيها . . وأخذ يعدد الطوائف التى تتناولها هذه المعاهدة والذين هم يتعاقلون ويفدون عانيهم . من بنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت ، وبنى الأوس ، وأن المؤمنين لا يتركون مشقلا بدين دون أن يعاونوه فى فداء أو عقل ، وأن أيديهم على من بغى ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر ، وأن سلم المؤمنين واحدة ، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده الى الله والى محمد . .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن لليهود بنى التجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس مثل ما لليهود بنى عوف وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الأثم ، وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن ، إلا من ظلم وأثم ، وبهذا المشاق تكونت الدولة تكويننا قانونيا ، وأصبح لها دستور تلتزم به ، وتدافع عنه ، لا فرق بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم ويهودي ، كلهم رعايا دولة عليهم أن يصنوا حدودها ، ويحاربوا من أجلها ، وليس من حق واحد منهم أن يضمن عليها بنفسه أو ماله ، ويعلق الدكتور أحمد الشريف على هذه الوثيقة فيقول « ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية ، وعلى علم كثير بأحوال الناس . وفهم لظروفهم ، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية ، فانما تقوم الدول أولا ثم يتطور أمرها الى وضع دستور ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ما كاد يستقر في المدينة وما كاد العام الأول من هجرته اليها ينتهي ، حتى كتب هذه الصحيفة التي جعل طرفها الأول المهاجرين والطرف الثاني الأنصار ، والطرف الثالث اليهود وهذه الصحيفة مهمة جدا لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية . وقد بدأ كأنما ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة القائمة على أساس الدم ، ولكن تلك الجماعات في الحقيقة بقيت كما هي ، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها الى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التي كانت موجودة في ذلك الحيز ، ونعني بها القبائل والبطون والعشائر في الجماعة الكبرى الجديدة ، واحتفظ لها الدستور بشخصيتها ، ولكنه نقل منها اختصاصاتها كوحدات قبلية الى الدولة ، وإن أبقى لها كل ما من شأنه أن يحفظ على الناس الروابط فيما بينهم ، وبذلك تكونت في المدينة جماعة موحدة ، ولكن ذلك لم يكن دفعة واحدة فقد ظل يتحقق بخطى مستمرة ثابتة » وفي هذه الفترة التي سكن فيها المسلمون الى دينهم ، والتفوا حول نبيهم ، ووثقت هذه الوثيقة بينهم وبين طوائف هؤلاء اليهود ، لم يكن قد دخل معهم الجماعات الكبرى من اليهود أمثال بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة . وكانوا أكثر طوائف اليهود حدة على المسلمين لما علموا من أن دينهم يأمرهم بالعمل الذي يرفع من شأنهم ولا يجعلهم أدنى حالا من غيرهم . ويحرم الربا والفواحش

ما ظهر منها وما بطن ، وهى أشياء تحده من طغيانهم ، وتقارم خداعهم ،
 وتحارب سلوكهم . وقد تحالف منهم بنو قريظة مع المسلمين وان كانوا
 قد خانوا معااهدوا الله عليه فيما بعد - حينما كانت غزوة الأحزاب -
 ويظهر أن هذا الصنيع الذى صنعه النبى صلى الله عليه وسلم مع المسلمين
 واليهود بالمدينة كان أشبه بالمفاجأة لكثير من العناصر الذين ارتبطوا به
 وهم له كارهون ، لذلك ظهر فيهم من كان موقفهم المتسرد ،
 لم يستطيعوا أن يعلنوا الامتناع فراحوا يتعاملون مع المسلمين حينئذ
 بأسلوب الوجهين « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم
 قالوا انا معكم » لكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يحولون تيار الدعوة ،
 أو يؤثرون على موقف النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكان
 أبرزهم عبد الله بن أبى بن سلول الا أن مواقفه كلها كانت مفضوحة ،
 وكيدية كان ضعيفا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا تخفى عليه
 دسائسه . وكلما هم واحد من المسلمين بقتله ، منه النبى اكراما لابنه
 الذى كان من أصدق المسلمين ايمانا ، وأخلصهم عقيدة ، على أن ذلك
 كله لم يؤثر فى سير الدعوة التى كان أتباعها يزدادون كل يوم كثرة
 وتمكينا فى الأرض .. وفى هذا الوقت الذى كانت الدعوة قد قر قرارها .
 وصارت لها دولة لا يتناول عليها متناول ، ولا ينال منها غاشم . كان
 صوت الدعوة الى الصلاة فى أوقاتها يدوى من المرتفعات والشرفات
 « الله أكبر الله أكبر » فتبعث المهابة والخوف ، والرعب والفرع ، فى قلوب
 المترددين أو المنافقين فلا يسمعون الا أن يكتبوا الفيظ ، ويكتبوا الحقد ،
 ولا يستطيع أحد منهم أن يفعل ما كان يفعل أبو جهل وأضرايه ممن كانوا
 بمكة يلاحقون المسلمين بالأذى ذلك لأن محمدا لم يعد داعيا يحتال
 لدعوته ، أو يتخفى بندائه . ولكنه أصبحت له دولة من حقها أن ترد
 العدوان ، وتدفع الظلم ، وتخرس صوت الباطل ، وتكبت حقد الحاقد ،
 وتقلم أظافر الطغيان .

غليان القدر

لم يكن من السهل على قريش بمكة أن يطيب لمحمد المقام بالمدينة ، وأن يؤلف من حوله هذه القلوب التي عاهدته على أن تحميه مما تحمى منه نساءها وأموالها وأبناءها وأن تبذل في سبيل نصرته كل ما تملك من مرتخص وغال ، لاتضن به عليه . ولا تحول بينه وبينه ، وليسوا من القلة بحيث يتفاضون عنهم ، أو يتغافلون لشأنهم ، ولكنهم هذه الكثرة الكثيرة من الأوس والخزرج الذين كانوا يتنافسون على المسارعة اليه . والدخول في دينه ، وان كان ذلك تنافسا في بادئ أمره لم يكن لاحقاق حق وإبطال باطل . وانما كان لكبت العدو . وارغام الخصم . والانتصار في معركة كان كل واحد من طرفيها يستعرض عضلاته للآخر . ليشيع في نفسه الرعب منه ، حتى يظل دائما أبدا يحسب حسابه ، ويخاف منه ، وقد تحولت بعد ذلك الى عقيدة امتزجت بدمائهم . وتمكنت من نفوسهم ، وصارت ديننا يسيطر على أهوائهم وميولهم ، لكن الحال بعد أن استقرت لمحمد صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معه . وعقدت المؤاخاة القائمة بين المهاجرين والأنصار برباط وثيق عز على اليهود أن يحصل ذلك كله ، لانهم لا يحبون أن يلتئم الجرح بين الأوس والخزرج ولا أن يجتمع الشمل بينهم وبين سواهم . والى جانب هذا فقد كانوا يرجون وهم أهل كتاب أن يكون لهم الأولوية والتقدم لدى محمد فيجعل منهم بطانته وأعدائه ، وربما كانت مطامعهم تتجاوز ذلك ويترقبون أن يلقي اليهم الرمن ، ويترك في أيديهم الزمام ، ويجعل لهم رسم سياسته ، وارتباطاته وسلوكه مع الناس ، ولما لم يتحقق لهم من هذا كله قليل ولا كثير ، غليت نفوسهم بالكراهية والحقد . والغضب والسخط ، وودوا لو أنهم كانوا فيما بين طرفه عين وانتباهتها يستطيعون تغيير

الأحوال ، وتصحيح الأوضاع ، وهم لا يملكون من السخط والحقد ، والكراهية والغضب ، أكثر من أن تكون سخائمهم سوداء ، وضمايرهم قاتمة ، أما ما وراء ذلك من حرب أو قتال • وطعن ونزال ، فهم أبغض الناس له ، وأزهدهم فيه • لذلك ركزوا جهودهم فى الإيقاع والدس • وتعكير الصفو ، وإشاعة البهتان ، والترويح للباطل • والتفريق بين الناس ، واختلاق الأخبار ، والعمل على زعزعة الأيمان فى نفوس المسلمين • حتى إذا باؤا من ذلك بالفشل نمقوا الاعتراضات ، وزخرفوا الأسئلة ، وموهوا الحديث ، وزعموا أنهم يريدون من محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم علم ما يجهلون • وهو فى الواقع تعنت الجاحد ومكابرة الحاقه ، ويقول الدكتور هيكل « هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه ، لقد عقدوا معه عهدا وكانوا يطمعون فى أن يضموه الى دينهم • وفى أن يزدادوا على النصرارى منعة وقوة ، وهذا هو أقوى من هؤلاء جميعا ، وهذه كلمته تزداد ثباتا ، بل هذا هو يفكر فى أمر قريش وإخراجها له من مكة ، وفتنتها من استطاعت من المسلمين عن دينه ، أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر ، وسلطانهم الروحى يمتد ، مكتفين بالأمن فى جواره أمنا يزيد فى تجارتهم سعة • وثورتهم ربحا ، لعلهم كانوا يسيغون هذا لو أنهم أمنوا ألا تمتد دعوته الى اليهود وألا تنشو فى عامتهم على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى اسرائيل • • وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشده لندا ، وأكبر مكرًا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة • فى هذه الحرب الثيربية تعاونت الدسيسسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، أقامتها اليهود جميعا صنفوا متراصصة يهاجمون بها محمدا ورسالته وأصحابه من المهاجرين والأنصار ، دسوا من أحبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقى ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب • ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يززع فى نفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التى يدعو إليها • • وانضم الى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا هم أيضا نفاقا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين ، وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما فى التوراة ، وأنهم جميعا يسألون محمدا إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله • • ووطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم • ورأوهم يوما فى المسجد يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم محمد فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا • ولم يشتم ذلك عن دسائسهم وسعيهم فى الوقعة بين المسلمين • وقد مر - منهم - شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه

صلاح ذات بينهم . وقال فى نفسه قد اجتمع ملائكة بنى قيلة - امهم -
بهذه البلاد ، ومالنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، وأمر فتى شيا
أن يذكر لهم يوم بعثت وما كان فيه من ظفر الأوس على الخرج وتكلم
الفتى فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم
لبعض ان شئتم عدنا الى مثلها . وبلغ النبى الأمر . فخرج اليهم وذكرهم
بالاسلام الذى آلف بين قلوبهم وجعلهم اخوانا متحابين ، وما زال بهم
حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضا واستغفروا الله جميعا . . . وبلغ
الجدل بين اليهود والمسلمين حدا كان يصل أحيانا الى الاعتداء بالأيدي .
وهذا هو أبو بكر الرجل الهادى الوادع يتحدث اليه يهودى وكان يدعو
الى الاسلام فيقول ذلك اليهودى ما بنا من فقر الى الله وهو الفقير الينا .
يستقرضنا أموالنا ولو كان غنيا ما استقرضنا ، فضربه أبو بكر على
وجهه ، وشكى أمره الى النبى وأتكر ما قاله ، فنزل فيه « لقد سمع الله
قول الدين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء
بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق » . . . ولم يكتف اليهود بهذا الايقاع
وذلك الدس فراحوا الى النبى يقولون له بيننا وبين قومنا خلاف فان جئنا
إليك فاحكم لنا لتؤمن بك الكثرة التى تجلنا وتتبعنا فنزل فيهم « وأن
احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن
بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض
ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن
من الله حكما لقوم يوفنون » وتسوق كتب السيرة من أمثال هذه المواقف
المخزية التى كان يقفها اليهود مع النبى صلى الله عليه وسلم الكثير ،
وربما كان أقربها دليلا على الحقد الكامن فى نفوسهم اغراءهم له بترك
المدينة الى بيت المقدس رجاء أن يستقلوا بها وتعود لهم فيها مكانتهم
القديمة ، ومجدهم الدايم . فقد قالوا له ان المقدس كانت مهجر كثير
من الأنبياء والمرسلين . وقد دعموا ذلك بأنها قبلته فى الصلاة حينئذ .
وغاب عنهم أنه يضم فى نفسه اللفظة الى مكة ويشتاق اليها ويتمنى أن
تكون هى قبلته فى الصلاة ، وكان يوجه نظره الى السماء انتظارا لوجه
ربه الذى يعلن اليه أنه استجاب رجاءه ، وحقق أمنيته ، فلما أرضاه الله
سبحانه وتعالى بتحقيق ما كان يرجو ، وجاءه بقوله جل جلاله « قد نرى
تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر
المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » أخذوا ينكرون هذا
الانتقال . ويعيون ذلك التحول . وهنالک نزلت هذه الآيات . . .
« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله
المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة
وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا

القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله » وكانت نجران عامرة بالنصارى الذين يحملون علم المسيحية ويزعمون أنهم على شيء من العلم بالأديان وقد جاؤوا الى المدينة بعد أن علموا أن الجدل قائم بين اليهود وبين محمد صلى الله عليه وسلم فأرادوا هم كذلك أن يدلوا بدلوهم في الدلاء وأن يكونوا طرفا ثالثا في الجدل والمناظرة ، واجتمعت على صعيد واحد في المدينة الأديان الثلاثة النصرانية واليهودية والاسلام . وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وغير ذلك وذلك من الزعم الباطل ، والاعتقاد الفاسد . والهراء المرفوض ، الذي يأباه العقل ، وينكره الذوق والطبع ، والقرآن يدحض حججهم ويفند أقوالهم . ويطارد أوهامهم ثم ينتهي معهم الى رأى يشبه أن يكون محايدا ، لا يأباه الا مكابر أو جاهل حين يقول « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وهى عقيدة لا تدين بربوبيية الانسان للانسان . ولا بسيادته عليه . ولا ملكيته له ، ولا عبوديته اياه . والله وحده هو صاحب هذا الحق على الناس ، وهكذا كان العقل والمنطق . والاحتكام الى الفطرة والذوق هو المنهج الذى يلتزم به محمد صلى الله عليه وسلم فى كل جدل يجرى بينه وبين اليهود أو النصارى ، وقد سجل القرآن الكريم تهافتهم فى الجدل . وانغماسهم فى الباطل ، وامعانهم فى التماذى وغطرستهم فى الحق . ويأبى الله سبحانه وتعالى الا أن يرد كيدهم فى نحورهم وأن تتحول خصومتهم للاسلام الى خصومة بينهم تتمكن جذورها ، وتتحكم أسبابها ، بينهم وبين أنفسهم . فلا يزالون يلعن بعضهم بعضا ، ولا تزال عقائدهم مكشوفة الجوانب للناس ، لا يستترها ذوق ، ولا يؤيدها عقل ، ولا يسندها دليل . ومحمد صلى الله عليه وسلم تقبى البشرية من نوره . وتأخذ من هديه . وتنهل من معينه ، وتنتفع بسنته ، وتباهى بتاريخه ، ولا يستطيع أحد أن يتقول عليه عيبا ، أو يلحق به نقصا ، وكأنما كانت حروب أعدائه له ، وتطاولهم عليه اعلانا عن فضله ، وتنويها بقدره ، واعترافا بأياديه على الناس .

شاكى السلاح

فى المعاهدة التى ربطت النبى صلى الله عليه وسلم بها أفراد الدولة الجديدة • وكان بمقتضاها أن تتماسك الجماعات من الأنصار والمهاجرين • والمشركين واليهود ، وأن يعرف كل منهم ما له وما عليه ، تجاه نفسه وحده أو مندمجا مع غيره سواء فى ذلك الاندماج فى العمل أو الاختلاط أو المجاورة • كان صلى الله عليه وسلم قد نص على أنه لا يجير أحد قريشا أو يصل نفسه بها بأسلوب ما ، وكان ذلك يعنى أن الدولة الجديدة قد تم تأليفها ، ووضحت معالمها ، وتبين لها الصديق من العدو ، لتجرى أمورها على هذا الاعتبار • وكانت الدولة فى هذا الوقت لها السلطان على الطرق التى تتأخم حدودها شرقا وغربا وجنوبا وعقدت بينها وبين هؤلاء ، الذين يقيمون على هذه الحدود معاهدات تربطها بها • وتجعل جوارها معها آمنا ، لا يكدره خلاف ، ولا ينفصه نزاع • • وكان من الضرورى والدولة لها عدو يترقب مصرعها ، وينتظر أن تمكنه الظروف من الاجهاز عليها ، والفتك بها ، أن تكون على حذر دائم ويقظة تامة • فلا تنام أعينها ، ولا تهدأ جوارحها ، ولا تطمئن نفوسها ، وانما تظل عيونها مفتوحة على ما يدور حولها ، ويجرى بجوارها حتى لا يباغتها عدو ، أو يفاجئها مغتال • • وقد رأى المسلمون أن يبعثوا بطلائع من فتيانهم ليتحسسوا الطريق • وليعرفوا حاله من الأمن والسلامة ، والهدوء والاستقرار ، كما كانت قريش التى لم تغل تلك الطرق من تجارتها المارة ذهابا وايابا لم تهدأ عن ارسال طلائعها كذلك ، على الرغم من أن قوافل هذه التجارة كانت مزودة بالفرسان والرجال الذين يحرسونها ويؤدون عنها ، وربما كانت هذه الدوريات المتبادلة بين الطرفين لا تخلو من احتكاك مشوب بالحذر أو النظر الشزر ، وبخاصة اذا نظرنا الى أن

روح الخصومة هي التي كانت تسود الطرفين لامن أجل الاختلاف في
المبدأ ، أو التباين في العقيدة ، وانما لشيء آخر كذلك له تقديره ووزنه ،
ذلك الشيء هو الشار القائم بين الطرفين ، والخصومات التي كانت في
الصميم ، ولا ينسى هؤلاء الذين يمرون بقوافلهم في هذه الطرق ، ويتلاقون
بأولئك الناس أنهم من غير شك ينظرون اليهم بعين ملؤها الحقد
والبغضاء ، لأنهم أرغموهم على ترك ديارهم وأموالهم . ومفارقة أهليهم
وذوي قرابتهم . ولو استطاعوا أن يأخذوا بثأرهم المبيت . وحقهم
المسلوب ، لشفى ذلك غليلهم . وداوي غلتهم . على أن هذا كله كان
لايد أن يحصل وما من واحد من هؤلاء الذين يخرجون الى الطريق .
ويلتقون بتلك القوافل الا له شيء هنالك قد تركه . وحمل حملا على أن
يتركه ، أولئك الذين يلتقى بهم ، أو يراهم في قوافلهم معتصبون لحقه ،
آخذون له على وجه غير مشروع ، ومن حقه أن يسترد منهم ما أخذوه على
أى وجه من الوجوه ، لذلك كان اللقاء بين الطرفين لا يخلو عن احتكاك يدل
على ذلك ، وينبئ على أن حصوله وشيك . ويدل على هذا أن النبي
صلى الله عليه وسلم بعد ثمانية أشهر فقط من خروجه من مكة قد بعث
عنه حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون راكبا فالتقى بأبي جهل الذي كان
معه ثلاثماية وكان حمزة على أهبة أن يفتك بأبي جهل ومن معه لولا
مجدى بن عمرو الجهني الذي كان صديقا للطرفين . . وقد سار بعنه
على الطريق عبدة بن الحارث في ستين راكبا فالتقى بأبي سفيان الذي
انسحب من غير قتال . . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد مضي
عام ونصف عام على رأس مائتين من المهاجرين ليلتقى بأمية بن خلف
الذي كان يقود قافلة تجارية ضخمة معها ألفان وخمسماية وكان يحميها
ماية محارب. ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يدركها لأنها غيرت طريقها فرجع
الى المدينة ثم عاد بعد شهرين أو ثلاثة ليقطع الطريق على قافلة كان على
رأسها أبو سفيان بن حرب ففاته أيضا . . وقد ظلت هذه المناوشة ،
وتلك الحركات الاستطلاعية مستمرة من جانب المسلمين لا تنتهي
ولا تنقطع الى أن كانت الحادثة التي كانت بمثابة دوى القنبلة في آذان
أهل مكة جميعا . . تلك هي سرية عبد الله بن جحش الذي بعث به النبي
صلى الله عليه وسلم ومعه ثمانية فقط ليذهب الى مكان يسمى « نخلة »
بين مكة والطائف ليستطلع أخبار قريش فلعلها أن تكون متهيئة لحربه
من جراء تلك المناوشات التي تخيف طريق تجارتها ، وكان اثنان من
أصحابه قد دخلا مكة يطلبان بعيرا لهما قد ضل ، فأسرتهما قريش .
وكان لهذا الأمر وقع سييء في نفس عبد الله بن جحش واخوانه صمما
بعنه على الانتقام . وكانت قد مرت بهم عير لقريش على رأسها عبد الله بن
الضرمي فقتلوه وأسروا رجلين ممن كان معه وفر الباقي وكان هذا في

اللحظة الأخيرة من شهر رجب فاتخذت قريش من ذلك القتل ذريعة للتشنيع على محمد وأصحابه بانتهاك الأشهر الحرم ، ولم يسكتهم عنه إلا صوت السماء يوبخهم وينعى عليهم أنهم ارتكبوا أشنع من ذلك « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . وصند عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وأخرج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

والذي يلاحظه المؤرخون أن هذه المناوشات كانت تقوم على المهاجرين دون الأنصار ، ووجهة نظرهم أنهم هم دون الأنصار أصحاب الحق المغتصب ، وأنهم هم الذين وقع عليهم العدوان ، وقد كان يشفي غليلهم أن ينالوا من أهل مكة ١٠ وأن يوقعوا بهم الأيلام ٥٠ على أن المعاهدة التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم على الأنصار - في العقبة - كانت تقتضيهم أن يدافعوا عنه إذا هوجم ، أما وهو يهاجم أو يهاجم أصحابه فليس عليهم أن يكونوا معهم . أو أن يقفوا بجانبهم ٥٠ . ويبقى بعد ذلك سؤال قد يتوارد على الذهن ، وهو هل كانت هذه المناوشات من النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه حرباً - والأمر بها لم ينزل بعد - أم أنها تخويف لا أكثر ولا أقل أراد به أن يكون له ما وراءه .

وفى مكة التي هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذي يتهده ، ويتحين الفرصة لايلامه وايدائه . والقضاء على دعوته ، واسكات صوتها ، والاجهاز عليها ٥٠ وكذلك كان الحال في المدينة التي ظن أنه سيجده فيها جواً أبقى . وحالا أهدأ . ولكنه وجد اليهود الذين يضمرون الشر ، ويكتمون العداوة . ويلهبون في قلوب المنافقين نيران الحقد والبغض ، ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان ، وإشاعة التفكك في صفوف المسلمين . حتى لا تقوى لمحمد شوكة . ولا تقوم للإسلام دولة ٥٠ . ومن أجل هذا كله فالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة على حال لا يحسد عليها ، وقد حملة هذا على أن يلتزم بالمبدأ القائل « أطلب الموت توهب لك الحياة » وطلب الموت كان مصوراً في تلك الخطبة التي أخذ نفسه بها في معاملة هؤلاء الناس . وكأنما أراد أن يفهم قريشاً أنه لا يصح لها أن تستمر معه على موقف القوة الذي تقفه منه ، وأن تعامله معاملة الفار من وجهها ، الهارب من عدوانها ، وأن تظل على تفكيرها في قتله . أو الظفر به ، وقد تبدلت به الحال وأصبح على استعداد لأن يقنعها أن تحسب له حسابه ، ولم يجد لذلك وسيلة أحسن من أن يرسل إليها السرايا من المهاجرين لتقطع عليهم طريق التجارة إلى الشام . ولتشيح هنالك الفرز والخوف ، فلا يجرؤ واحد على اقتحامه ، أو السير منه إلا بقوة الحديد والنار ، وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال ،

أو يتحولون بتجارتهن إلى طريق آخر أكثر مشقة ، وأبعد مسافة ، وفي هذا تعطيل لرحلاتهم • وكساد لتجارتهن ، وإيلاء لنفوسهم ، وإثارة لحفيظتهم ، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم بالأحلاف التي ربط بها بينه وبين القبائل المختلفة التي تستوطن هذا الطريق • ذلك المعنى الذي قصد به من حرب العصابات التي تشنها جماعته على قوافل التجارة • وكان الهدف الذي يرمى إليه أن تفكر قريش في تسوية حسابها معه ، فتبرم - على الأقل - معاهدة عدم اعتداء يستطيع المسلمون في مكة أن يعيشوا بفضلها في سلامة من شرهم • ومنجى من إيلائهم وبعد عن إيذائهم • • ويترتب على ذلك - أيضا - أن المنافقين واليهود في المدينة يكفون عن نوايا السوء التي يضمرونها ، والخطط الخبيثة التي يرسمونها ، ولم يمض عامان كاملان على اغتراه عن مكة حتى كان في استطاعته أن يلتقي بهم وجها لوجه ملاقة الند للند ، وكان له جيش يمكن أن يهددهم ، ويشيع في صفوفهم الهلع والفرع ، وأصبحت قريش تفكر تفكيرا جادا وخادا في سلامة تجارتها وأمن طريقها • • وكان هذا الخطأ الذي ارتكبه عبد الله بن جحش وجماعته لا يساوي شيئا بجانب ما ارتكبه هم من الصد عن دين الله ، ومحاربتهم للحق ، وانحرافهم عن الجادة ، والتوائهم عن الصراط السوي ، وكأنما كان ذلك المنطق الذي سمعوه ، والأسلوب الذي جوبهوا به ، بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم ، وتنزل على رؤوسهم ، لأن من أشد الحمق ، وأقبح الكباثر ، أن يرى الإنسان القذى في عين أخيه ، ولا يراه في عين نفسه « والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله » وهكذا عرفوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يفارق وجوههم عن ضعف ، ولم يترك مكة مهزوما ، ولم يهاجر فارا ، وإنما كان يعد نفسه ، ويجمع قوته ، ويسوى صفوفه ، ويضرب الضربة التي تصيب الهدف ، وتربك العدو ، وتكتب له النصر على عدوه الذي كان ينظر إليه بالمنظار الأسود •

شبهات الحرب

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التي كان يرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من جماعة المهاجرين • الواحدة تلو الأخرى ، مكرونة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش الى الشام أو الآبيين منها من أجل تجارتهم التي كانت هي الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ، ونماء أموالهم • ووفرة أوقاتهم أن هذه حرب بمعنى الكلمة ، يعتمدى فيها مسلح على أمن • ويغير فيها معتاد على وادع • ويقتمح فيها مختصب دار أعزل من السلاح ، أو يساغت فيها واغل وطن مطمئن هادى ، وأن هذا العدوان لا يصح أن يجعله الداعية سبيله الى ابلاغ صوته ، واقرار مذهبه ، وتمكين دينه بين الناس • • وقد بالغ قوم فى هذه الشبهة فزعموا أن دين محمد انتشر بالسيف ، وتمكن بالعنف ، وارتفعت رأيته بالقوة ، وجبروت الكثرة الكاثرة • ممن وضعوا أرواحهم فى قبضة الرسول ليرمى بها فى المخاطر ، ويقذف بها فى المعامع ، ويطوح بها فى ميادين القتال • تحقيقا لمطامعه فى الفتح ، وآماله فى التوسع ، ورغبته فى السلطان ، وأحلامه فى الملك • • وهو قول انما يقول به من يتجرد من العقل ، وينخلع عنه المنطق ، ويتجافى عن الحق والانصاف ، ويناقش مناقشة الأطفال ، ويجادل بلغة المجانين • اذ يزعم أن دعوة محمد كانت تسلبا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة بربرية ظمأى الى الدم ، يسوقهم رجل له مطامع عدوانية ، وشهوات مسفة • وكبرياء أهوج • وتطلع محموم • كما كان الفراعين أو القياصرة ، فى حين أنه كان مأمورا بالوحى ، ومكلفا من قبل الله ، وأن لسان حاله كان يقول « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت » وأن رسالته كانت « فطرة الله التى فطر الناس عليها » لا تعاند الطبع • ولا تخالف

الذوق . ولا تعارض التقدم ، ولا تقود الانسان الا الى البر والخير .
 والفلاح والنجاح . والسعادة والفوز ، ولا يمكن للبشرية أن تحيا الحياة
 الصحيحة دون أن تلتبس منها الرشد ، وتستمد منها الهداية ، وتجعل
 منها طب نفوسها ، وعلاج أمراضها . ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم
 عليها أحدا ، أو ألجأ اليها انسانا ، وانما كان أسلوبه « لا اكراه فى
 الدين قد تبين الرشد من الغي » وهو فى الوقت الذى يجعل الأخذ بهذا
 الدين ، والايمان به ، قائما على الاختيار والحرية . والترجيح والمقارنة ،
 والتأمل والتفكير ، والعقل والمنطق . والتروى والانتباه ، يشرع للمسلم
 القتال دفاعا عن دينه وعرضه وماله ونفسه . . . واذا نحن حققنا النظر
 فى هذه السرايا ومناوشاتها - على الرغم من أنها لم تأخذ صفة الحروب
 بمعنى الكلمة وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحدا من
 هذه الأربعة المتقدمة ، التى جعلناها أسبابا واضحة تبرر التحام الجيوش
 فى ساحة القتال ، فأموالهم فى مكة قد اغتصبت . ودينهم يناله الايلام
 والايذاء ، والمطاردة والصد . ونفوسهم مهددة بالفناء ، فهم يقفون من
 كفار مكة الموقف الذى لا يبدل عنه ، ويساقون الى حربهم بحكم الدفاع
 الذى لا بد منه ، وحينما انتهى قرار المسلمين بالمدينة . واتخذوها الوطن
 الدائم كانت بحكم هذه الاقامة الدولة التى يتحتم عليهما أن يحموا حوزتها
 ويدافعوا عن حدودها ، ويردوا من يغير عليها ، أو ينال من أهلها فى
 دينهم أو أموالهم أو كرامتهم . . . وتلك الطريق التى كانت تسلكها قريش
 وتنتهك حرمتها ، وتستعرض عضلاتها وقوتها لأهل المدينة ومن حولها .
 كانت فى حدود الدولة ، وكان عليها لتمر منها ، أو تستخدمها لمصلحتها ،
 أن تستأذن أصحاب السيادة عليها ، كما تقضى بذلك النظم الدولية .
 والأعراف المتبعة . . . على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يكتب
 منها بهذا النفر القليل الذى أراد به أن يثير الرعب والفرع فى قلوب
 هذه القوافل المارة لتتخذ قريش لنفسها موقفا آخر ، يضمن سلامة
 رجالها وأموالها ، بالاتفاق مع رئيس الدولة على ما يسمى بحسن الجوار
 لا أكثر ولا أقل ، فلم يجعلها حربا بمعنى الكلمة ، يتخذ لها الأهبة ،
 ويوفر لها الاستعداد ، أو يجمع لها السلاح والذخيرة والرجال ، لأن القصد
 الأولى كان تعرف التحركات ، والوقوف على الأخبار والاطمئنان الى ما هو
 وراء عداوة قوم يشتغلون به ، ويفكرون فيه ، ويضمرون له أسوأ النوايا
 وينطوون له على أقذر العواطف ، ويتحينون هلاكه . . . والمنصفون من
 المؤرخين انما يعيبون على المصلحين وأصحاب المبادئ والآراء الحرب
 الهجومية التى يبتدئون بها الناس ، أو يفاجئون بها الشعوب ، أما اذا
 كانت زدا لعنوان ، أو صنفا لهجوم ، أو وقفا لشر ، أو ازالة لعوائق
 تعرضها ، أو حدود تسد الطريق عليها ، فانها مشروعة ، ومثل هذا

السلوك لا يقضى على المنطق ، ولا يطارد الحرية ، ولا يلجئ الى الارغام ، ولم تكن حروب الاسلام فى يوم من الأيام هجوما ولا بطشا . وانما كانت لرد الظلم ، ودفع البغى ، وكبح جماح الباطل . ويقول الدكتور أحمد الشريف فى كتابه - الدولة الاسلامية - « ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بحرب هجومية اطلاقا فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش ، فان موقعة بدر التى حدثت فى السنة الثانية للهجرة حدثت داخل حدود اقليم المدينة ، وعلى أثر تحدى المكين للنبى صلى الله عليه وسلم . وتسييرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتنين حتى السيادة اليشريية فأبو سفيان حين مر بقافلته فى المنطقة كان يتحدى أهل يثرب بقوته ، ويستتثل شأن النبى ، ولهذا خرج النبى اليه ، وأراد أن يصادر هذه القافلة . أو أن يحاربها . وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام ، حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون له ، والطائفة الأولى هى القافلة ، والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ، ومنع النبى من مصادرتها .»

واقعة أحد فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة ، وعلى نحو ميلين منها - وكان المكين فيها مهاجمين يطالبون بشار بدر ، ثم ان النبى خرج فى السنة الرابعة الى بدر الثانية لوعده بالحرب كان بينه وبين المكين يوم أحد ، فلما كان فى العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة الخندق كان النبى مستقرا فى يثرب ، وعدوه هو الذى جاء اليه متحديا له ، منتهكا لحقه فى السيادة ، كما كان الحال فى أحد . . . وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكين ، وكان فتحا خلا من القتال بوجه عام ، ومع ذلك فان النبى حرص على الجهاد ، ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين ، الا أن الجهاد لم يكن يقصد به الا الدفاع واعزاز الدولة الاسلامية . بحيث تعيش فى أمن عام يساعدها على اعلان مبادئها حجة بحجة وبرهاننا ببرهان ، دون أن تقف القوى المسلحة المادية فى طريقها . فتصدها أو تعطل سيرها . . .

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر ، وجبروت الظلم . وبتش الجبارين ، وتسلب المعتدين ، وعناد الحمقى ، وسفه المتطاولين ، على أن دعوى الاكراه والارغام اذا صح أن يرددها مكابر مغرض فى وقت من الأوقات فهل يروج الآن ترديدها بعد أن أثبت التقدم الحضارى . والنضوج الذهنى . والازدهار العلمى ، أنه يغزو العقول والأفئدة ،

واعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الدنيا بتعاليمه ، والانسانية بهديه . لأنه الدين الذى لا تصلح الحياة الا به ، ولا يستقيم الأمر الا عليه ويقول الدكتور هيكل « وما دامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهديب فكرتها فى النفوس . وحصرها فى أدق الحدود . هى غاية ما تحتل فطرة البشر ، وما يحقق للانسان اتصال تطورها ، فى سبيل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس ، وعن العقيدة ، وعن حرية الرأى والدعوة اليه ، وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن » .

ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون فى حديث هذا الاكراه المزعوم أو الموهوم ، ممن يتهمون الاسلام بالعنف ، وازاقة الدماء ، واشعال نيران الحرب ، فى سبيل اعلاء كلمته ، وانصواء الناس تحت رايته ، أن مبلغ علمهم به هذا الزيف المفترى ، والكذب المختلق ، والتعويه المقضوح ، فاذا مرت بهم على ما به من ارشاد ، وما فيه من اصلاح ، وما تضمنه من هداية ، وما نادى به من أدب . وما رسمه من خطوط . وما دعا اليه من خير ، لم يتخلف به عن تقدم ، ولم يعجز به عن نفع ، ولم يقصر به عن تطمع ونهوض ، عموا وطمسوا وظلوا فى طغيانهم يعمهون . . . وكنا نود فى هذا الوقت الذى يرمونه بالقسر والقهر ، والعنف والتسلط ، والارغام والالهاء ، وازاقة الدماء ، وازهاق النفوس ، أن يرجعوا الى تاريخهم ، ويحاكموا رجال دينهم ، ويلتمسوا لهم العذر فيما سودوا به وجه الانسانية من ارهاق وظلم ، وبطش وعدوان ، وقتل وسفك ، باسم الدعوة الى الله وانقاذ البشرية مما تعانیه ، ثم يغمزوا بعد ذلك جانبه ، ويلمزوا تكاليفه ، ويعيبوا نهجه ، أو يتهموا أساليبه فى الأخذ بيد الناس الى البر والمعروف ، لتنتظلي دعوى اتهامه ، والاختلاق عليه ، لكن شيئاً من ذلك لم يكن ، ولا يمكن أن يكون . . . ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التى أراقها محمد صلى الله عليه وسلم للتكبير لدينه ، ونشر دعوته ، بما أراقوه هم باسم عيسى وموسى ، وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها ، وتلك الأموال التى أنفقوها على الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام ، وتحويل القلوب والأنظار عنه « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون » ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الولايات التى تعانيتها البشرية هنا وهناك لا تحتمى الا باليهودية والمسيحية وهما منها براء ما فى ذلك شك . . أما الاسلام فهو لا يزال سلاما على الانسانية والناس . ويعجبني فى هذا أن المؤرخين الذين أرخوا للاسلام فى الأندلس وهم يفضحون هؤلاء الذين يرددون مثل هذا القول ويردون عليهم الرد الذى يخرس ألسنتهم

اذ يقولون ان الاسلام حينما دخل هذه البلاد لم يحمل مسيحيا واحدا على الاسلام وحينما دالت دولته هنالك لم تترك المسيحية مسلما واحدا على اسلامه ، وانما أرغمته على النصرانية ٠٠ ويقول الأستاذ أمين دويدار « وكان الاسلام فى حاجة الى أن يدافع عنه أهله ، وأن يحموه من اذى أعدائه وأن يعملوا على عرضه للناس فى جوهر الحرية والأمن والطأأينة ، ولكل امرئ بعد ذلك أن يختار لنفسه ٠٠ » فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين فى القتال ، لأنه الوسيلة الوحيدة لحماية العقيدة ، وتأمين المؤمنين بها ، حين لا تجدى وسائل السلم ٠٠٠ على أن الله سبحانه حين أذن للمؤمنين فى القتال ٠ لم يأذن لهم فيه الا دفاعا عن عقيدتهم ، وحماية لها ممن يعتدى عليها ٠ وفى حدود الدفاع عن العقيدة وحمايتها ، نزلت آيات القتال والحث عليه فى القرآن الكريم ٠٠٠ فالذين يقاتلون المؤمنين يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » والذين يخرجون المؤمنين من ديارهم يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم « واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » والذين يفتنون المؤمنين عن دينهم يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم « والفتنة أشد من القتل » والذين يحاولون الوقوف فى سبيل دعوتهم يجب على المسلمين أن يقاتلوهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وهكذا يخزى الله الكافرين ، ويقعهم المبطلين ٠ وبفضله المعاندين ٠

اليهود في الطريق

دل تاريخ البشرية منذ اليهود الطويلة ، والآباد البعيدة . على أن اليهود لم يكونوا في يوم من الأيام في سلوكهم مع الناس . ومعاملتهم معهم . الا جرثومة شر . وعنصر فساد . وعاملا من عوامل الفرقة والكراهية . والنفور والبغض ، والحسد والحقد ، والابلام ، والتنقيص وما من حرب تدور رحاها ، ولا فتنة تشتعل نيرانها ، أو خلاف يقوم بين اثنين ، الا كان وراءه يهودي ، وفي القرآن الكريم كثير من خلالهم ، وعديد من أوصافهم . وهي تدل على أنهم عنصر هدام ، لا ينزع الى الاصلاح ، ولا يهفو الى الخير . ولا يميل الى تلاقى الأهواء ، واتلاف النفوس ، وصفاء القلوب ، واتحاد الكلمة . والتشام الشمل . وحب الانصاف ، وانما يميل الى تمكين الشر ، ومعاونة الباطل . وغرس بذور الفساد ، وحسبهم أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعاني شدة في طريق دعوته الى الله . وابلاغ رسالته الى الناس . أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التي كان يعانيها من المنافقين واليهود . غير أن حال المنافقين كان شائكا لأنهم يعلنون الاسلام ، وليس من حقه أن يدخل الى قلوبهم ، ولا أن يهتك أسرارهم ، ولا أن يعاملهم الا بظاهر ما يبدو منهم . . . لكن اليهود كانوا يزعمون في أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل في تقديرها واحترامها عن دعوة محمد ، وهم لهذا يجب أن يجعلوه مطية لمجدهم الذي يحلمسون به ، وأوهامهم التي يتخيلونها في السيادة على العالم ، والسيطرة على الناس ، والتعالى على الأوس والخزرج ، الذين يعيشون معهم في مشادة ، ويحيون معهم في صراع ولا سبيل الى ذلك الا اذا أزالوه من طريقهم ليكونوا وحدهم في الميدان لا ترتفع عليهم صيحة . ولا يزاحمهم منافس وسياسنتهم التي

يسلمتونيا في كل زمان ومكان تقوم على الدين المشوب بالذلة والخسوع المختلط بالضعف ، والتواضع الذي يصل الى حد الهوان ، من أجل الوصول الى أغراضهم ، فان أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف . وعاملوه بالقسوة ، وأرغموه على أن يركب حد السيف . وقد كان في المدينة المهاجرون والأنصار ، وكان بها المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يتابعوا محمدا صلى الله عليه وسلم على دينه ، ولم يتبعوا دعوته ، ثم كان اليهود - كذلك - على الحدود القريبة منها كبنى النضير وبنى قريظة ، أو في داخلها كبنى قينقاع ، والمهاجرون والأنصار قد ألف بينهم الدين الجديد ، وربط بينهم بأوثق رباط وأمتنة ، وان كانوا مهديين بالأحن القديمة ، أو الخلافات الطارئة ، التي لا تخلو منها أمثال تلك المجتمعات التي تؤلف بين طوائف في عاداتها من التباين والاختلاف ما يباعده بينها . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وهو على مقربة منهم يعالج أمراضهم ، ويدني ميولهم ، ويقاوم فرقتهم . وقد كان المشركون يحسون من أنفسهم بالضعف الذي سببته المعارك القديمة واكتفوا بالوقية بين العناصر الأخرى من المسلمين واليهود . . واليهود بادروا في أول الأمر الى حسن استقبال محمد صلى الله عليه وسلم اعتقادا منهم أنهم يستطيعون أن يهودوه ، ويجعلوه داعية لهم في الجزيرة العربية كلها التي تمكنت فيها النصرانية والوثنية . ولم يعد فيها مجال لهم . ولا حديث عن دينهم . على الرغم من كونهم شعب الله المختار - كما يعتقدون - ولما لم تتحقق لهم أمنية الاستيلاء على محمد . وتسخيره لتحقيق أهدافهم . عملوا على أن يكونوا حربا عليه هو وأصحابه ، والدعوة التي ينادى بها ، والرسالة التي تلقاها عن ربه .

وكان من شعراء اليهود شاعر سليط مقذع وقف شعره على هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، هو أبو عفاك ، وهو من بنى عمرو ابن عوف يرسل الأشعار تلو الأشعار في الاستهزاء به ، والاستخفاف بدعوته . ويسخر منه ومن أصحابه ، ولم يكن واحد من المسلمين الا وفى نفسه منه شيء من الألم ، وظل شكذا ينال من المسلمين ويغري بهم حتى بعد بدر التي رفع الله بها من شأنهم ، وأعز رايتهم ، وأعلى كلمتهم . وقد تطوع واحد من المسلمين بإسكات صوته ، والقضاء عليه . ذلك الرجل هو « سالم بن عمير » الذي ذهب اليه في جوف الليل ودخل عليه داره وهو نائم ووضع السيف في كبده . . وكذلك كانت عصماء بنت مروان - من بنى أمية - تعيب الاسلام وتؤذى النبي وتحرض عليه ، فجاءها يوما عمير ابن عوف ودخل عليها دارها وهي ترضع ولدها فنجاه عنها ، ووضع سيفه في بطنها حتى أنفذه من ظهرها ، وكان قوم من بنى خزيمة - قومها - يكتمون الاسلام فلما أعلن عمير بن

عوف أنه هو الذي قتلها وأنه لو واكبها على هذا أحد لقتله أعجبتهم
شجاعته وأظهروا إسلامهم غير مبالين بما يلاقون في سبيله .

وتان كعب بن الأشرف اليهودي الشاعر كذلك ممن يشتغلون بهجاء
النبي وهجاء المسلمين ، ولقد ساءه أن ينتصر المسلمون بدر ، فأخذ
ينثر الكلام ما هنا وما هنا طعنا فيهم ، وتجرىضا عليهم ، وهجاء لهم ،
وحينما وصل اليه الخبر بقتل صنناديد قريش في غزوة بدر ، وقال
هؤلاء أشرف العرب ، وصناديد قريش ، والله لئن كان محمد فعل بهم
ما فعل لبطن الأرض خير من ظهرها ، وذهب الى مكة ليحرض أهلها على
الأخذ بالنار من محمد وأصحابه . . ولما عاد الى المدينة أخذ يشبب بنساء
المسيحين ويفضح أعراضهم . فامتألت النفوس بالغيظ منه . وهنالك
أجمعوا على قتله ، وقصة قتله كما جاءت في كتب الحديث هكذا « عن
جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم . من لكعب ابن الأشرف فقد آذى الله ورسوله . فقام محمد بن
مسلمة فقال يا رسول الله أتحب أن أقتله قال نعم . قال فأذن لي أن
أقول شيئا قال قل . فأناه محمد ابن مسلمة ، فقال ان هذا الرجل قد
سألنا صدقة . وأنه قد عنانا ، واني قد أتيتك استسلفك ، قال وأيضا
والله لتملنه . قال انا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر الى أى
شئ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقنا أو وسقن ، فقال نعم
أرهنوني ، قالوا أى شئ تريد ، قال أرهنوني نساءكم ، قالوا كيف
نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال فأرهنوني أبناءكم ، قالوا كيف
نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقن ، هذا عار
علينا ، ولكننا نرهنك الأمة . فوعده أن يأتيه ، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة
وهو أخو كعب من الرضاعة - فدعاهم الى الحصن فنزل اليهم . . فقالت
له امرأته أين تخرج هذه الساعة . فقال انما هو محمد بن مسلمة وأخي
أبو نائلة ، قالت انى أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . قال انما هو
أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ، ان الكريم لو دعى الى طعنة
بليل لأجاب ، قال ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين . . وفي رواية
أبو عبيس بن جبر ، والحارث بن أوس . وعبيد بن بشر ، فقال اذا
ما جاء فاني قائل - آخذ - بشعره فأشمه فاذا رأيتوني استمكنت من
رأسه فدونكم فاضربوه ، وقال مرة ثم أشمكم . فنزل اليهم متوشحا وهو
ينفخ منه ريح الطيب ، فقال ما رأيت كاليوم ريحا أى أطيب ، فقال عندي
أعطر نساء العرب ، وأكمل العرب ، فقال أتأذن لي أن أشم رأسك ،
قال نعم فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال أتأذن لي ، قال نعم فلما استمكن
منه قال دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه «
وكذلك كان من اليهود الذين يعانون على النبي صلى الله عليه وسلم

الحرب ، ويجاهره بالعداوة ، ويحرض عليه المشركين « أبو رافع سلام ابن أبي الحقيق » وكان من فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن كلا من الأوس والخزرج كانا يتنافسان في مرضاته وينسابقان إلى أن يحلا من قلبه محل الرعاية والاهتمام ، وكانت الأوس قد قتلت كعب ابن الأشرف ، فأرادت الخزرج أن تصنع صنيعا يكافئ صنيعها . وكانا يتصاولان تصاول الفحلين لا تصنع احدهما شيئا فيه للنبي صلى الله عليه وسلم رضا الا فعلت الأخرى مثلها . ولما أصابت الأوس كعب ابن الأشرف قالت الخزرج والله لا يذهبون بها فضلا علينا ، وتذاكروا رجلا في عداته للنبي كابن الأشرف فذكروا ابن أبي الحقيق . وهو بجهات خبير فاستأذنوا النبي في قتله فأذن لهم فخرج إليه خمسة فيهم عبد الله بن عتيك وقد أمره النبي عليهم ، وقصته كذلك في كتب الحديث هكذا « عن البراء رضى الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع اليهودى رجلا من الأنصار فأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، وكان في حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرهم ، فقال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فاني متطلق ومتلطف للبواب لعل أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنم بثوبه كأنه يقضى حاجة وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله ان كنت تريد أن تدخل فادخل فاني أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد ، قال فقلت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده . وكان في علالي له فلما ذهب عنه أهل سمره سعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل . قلت ان القوم نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فانتهيت إليه ، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدري أين هو من البيت ، فقلت أبا رافع فقال من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا ، وصاح فخرجت من البيت فأمكت غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت ما هذا الصوت يا أبا رافع فقال لأمك الويل ان رجلا في البيت ضربنى قبل بالسيف ، قال فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ، ثم وضعت طبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت انى قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا رأى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة . فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أنى قتلته فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابى فقلت النجاء فقد قتل الله أبو رافع . فانتهيت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال لي ابسط رجليك فبسطت رجلي فمسحها فكانها لم أشتكها قط . . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظا لختلهم . بسيرا بكيدهم عالما بما تمتلئ به قلوبهم العفنة وضماثرهم الخبيثة . وطواياهم الفاسدة . ونواياهم الشريرة ، ولقد رأيتاه يأخذهم بحذق ، ويقلم أظافرهم بحكمة . ويقص أجنحتهم ببراعة ، ويستريح من كيدهم بمهارة . وينتهي بهم الى الاذلال الذي كتبه الله عليهم . ولم تكن ما نعتهم حصونهم التي أحكموا بناءها . . . وقد كان بنو قينقاع بداخل المدينة يعملون في صياغة الذهب والحلي . وكان المال الذي في أيديهم يملا نفوسهم بالخيلاء ، ورؤوسهم بالكبر ، وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ، ويطاوا بأرجلهم أشلاءهم ، لأن اقتصاد المدينة وتجارها وأسواقها بأيديهم لا يزاحمهم في ذلك كله أحد ، وفي ذات يوم قدمت الى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشتري شيئا من الذهب . فتناول أحدهم عليها ، وعبت بحياتها . وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجالا من المسلمين فقتل ذلك اليهودي الذي تناول على المرأة المسلمة ، وكانت هذه هي الشرارة الأولى في اشعال نار الحرب بين يهود بني قينقاع والمسلمين ، على الرغم من المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين التي أخذها النبي عليهم أن يكونوا سلاما على المسلمين ، فلا ينالونهم بسوء ، ولا يساعدون عليهم عدوا . . . وقد أعلنوا عدم التزائم لهذه المعاهدة ، وتحديدهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له لا يغرنك أنك قد لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم . أنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس ، ولم يكن هنالك بد من أن يضرب محمد صلى الله عليه وسلم ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التي تهددها . والرعب الذي يسيطر عليها . وحينئذ حاصر بنو قينقاع خمسة عشر يوما لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل اليهم أحد في بيوتهم ، وكان هذا الشلل الاقتصادي الذي أصابهم . والفزع الشديد الذي حل بنفوسهم ، داعيا الى أن يظهر عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين على شاشة المسرح ، ويقول للنبي صلى الله عليه وسلم انهم حلفائي ، وقد عرض عنه النبي مرارا ، فلم يصغ اليه ، ولم يأبه به . الا أن عبادة بن الصامت رجاه أن يضيق الخرق على الراقع . ليصبح هو والمشركون الموالون لبني قينقاع مدينين لاحسانه وعطفه ، وكان الرأي الذي انتهى اليه النبي هو استئصال شأفتهم . وابدانهم جميعا ، الا أن الرأي الذي استقر عليه بعد ذلك كان هو خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وديارهم ، وكان هذا الخروج الى وادي القرى ثم الى أذرعاع على حدود الشام ، وبهذا الخروج أصبحت المدينة في مأمن من الفتن الداخلية . والدسائس التي

تحاك هنالك ، وان كان يهود بنى النضير ويهود بنى قريظة على حدودها القريية . . وكان طبيعيا بعد هذا الذى حل ببنى قينقاع أن يتعطل به اليهود والمشركون وأن يصيبيهم الرعب جميعا لكن أبا سفيان جمع مائتى رجل وأغاروا على المدينة وقتلوا بعض الرجال ، وحرقوا بعض المنازل والسبيل ، يقصدون بذلك الى اشاعة القلق والاضطراب فى قلوب المسلمين حينئذ . وقد نذب الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ليلاحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار . ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام . وكان أكثر هذا الطعام سويقا لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق . وعلى أثر هذا المطاردة بقليل من الزمن كان مقتل كعب بن الأشرف ، وبهذه الأحداث كلها متلاحقة كان الرعب فى قلوب اليهود يهددهم فى عقر دارهم ، أو فى داخل حصونهم . . .

أما ما كان من أمر بنى النضير فهو لا يعدو أن يكون صورة كذلك من صور الخداع والمؤم ، والمكيدة والغدر ، والخنوع والذلة ، فان النبى صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم يستعين بهم على دية قتيلين قتلها أحد المسلمين بطريق الخطأ . وكان القتيلان من حلفائهم وحلفائه - بنى عامر - وقد أظهروا الاستعداد كله لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيل . لكنهم أخذوا يسوفون ويماطلون ويروحون ويجيئون كأنما يزورون أمرا ، أو يبيتون غدرا ، ثم انتهى بهم التدبير الى خطة لقتله صلى الله عليه وسلم بإلقاء الحجر فوقه من أعلى الحصن الذى كان جالسا بجواره انتظارا للذين وعدوه أن يعودوا اليه بحاجته التى يطلبها ، وكان الله جل جلاله قد أوحى اليه علم ما انتهى تفكيرهم اليه . فتسأل من مكانه خلسة دون أن يشعر به أحد . ولما افتقده أصحابه فلم يجدوه ذهبوا الى المدينة . ولما رآه هنالك سألوه فأخبرهم بالخبر ، ثم أرسل صلى الله عليه وسلم الى بنى النضير محمد بن مسلمة يحمل اليهم الانذار بخروجهم من مكانهم لأنهم غدروا به ، وكانوا يعدون عدتهم لقتله رميا بالحجر ، وفى هذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك ، وبينما هم كانوا يتهيأون للرحيل جاء اليهم رسول من عبد الله بن أبى يأمرهم بعدم الخروج لأنه سيقف بجانبهم ومعه ألفان من المقاتلين يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل اليهم أحد من المسلمين . . . وقد أخذوا يقلبون هذا الرأى . ويفكرون فيه ، ثم انتهوا الى عدم الثقة فيه ، أو الاطمئنان اليه ، لأنه قال مثل هذا القول لبنى قينقاع ولم يغن عنهم شيئا . وبنى قريظة الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم صنعا لأنهم يرتبطون مع محمد بمعاهدة تجعلهم ملزمين أن يقفوا الى جانبه لا الى جانبهم ، وقال كبيرهم حبي بن أخطب سأرسل الى محمد لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليستع بنا ما يريد ، وستحتمى بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا ،

فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوماً أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا
محمداً أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم .
وودَّ رضى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير
من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره ، فخرجوا ومعهم حبيى ابن أخطب
الذى كان يغريهم بالتمرد والعصيان ، ونزل منهم من نزل بخيبر وذهب
الباقيون إلى أذرعات ، وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى الشر
التي كانت تناوى الدعوة ، وتقاوم الإصلاح ، وتطارد الهداية ، وتكيد
للإسلام ، وتصد عن سبيل الله ، وتبغى في الأرض الفساد . . . ولم يجد
اليهود بعد ذلك وعلى رأسهم حبيى بن أخطب طريقاً يسلكونه للانتقام
لأنفسهم من محمد ومن حوالة من المسلمين إلا أن يؤلبوا عليهم قريشاً
والمشركين جميعاً لتتلاقى معهم في حرب تكون قضاء على الدعوة وإسكاتاً
لهذا الصوت ، وإبطالاً لهذا التخطيط الذى يخططون له . . . ولهذا خرج
حبيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، ومعهم من بنى وائل هودجة
ابن أبى قيس وأبو عمار حتى قدموا على قريش بمكة فسألهم أهلها عن
قومهم . فقالوا هم بخيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم لتتكلوا بمحمد
وأصحابه ، وسألوهم عن بنى قريظة فقالوا أقاموا بالمدينة مكرماً بالمسلمين ،
ولم يلبثوا أن جثتم إليهم أن يميلوا معكم عليهم ، ولم تخدع قريش بهذا
القول ولم تصدقه ، فسألت أدينتنا خير أم دينه ، فقالوا لا بل دينكم ،
وهناك نزلت فيهم الآية « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون
بالجبث والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهلى من الذين آمنوا
سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » . .
ولم يزل ابن أخطب حبيى يسعى سعيه ، ويفعل حقه ، حتى جاء إلى كعب
ابن أسد ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد ، والتخلي عنه
إذا ما جاءت الأحزاب إلى المدينة واغلة على أهلها . محاربة للمسلمين .
وكان بنو قريظة قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن
يقفوا إلى جانبهم ، ويمدوا لهم يد المساعدة . وقد تردد كعب أن يستجيب
لحبيى بن أخطب لكن حبيى لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر
بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس . وسعد
ابن عبادة سيد الخزرج ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات ابن جبير ليقفوا
على جلية الأمر ، فلما رأوا منهم روح الشر ، وقال كعب بن أسد من
رسول الله ، لا عهد بيننا وبينه ، ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد
والمعونة ، وفتحوا الطريق للأحزاب ليدخلوا المدينة ، لم يجدوا بداً من
أن يتجهوا لهم ، ويعاملوهم معاملة أخرى ، فحاصروهم خمسين
ليلة طالبوا بعدها الخروج إلى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض
الرسول صلى الله عليه وسلم ولا المسلمون بهذا العرض . . . وعرض

تأييد الرسول أن يختاروا رجلا يحكمونه بينهم وبينه فاختاروا سعد ابن
 معاذ فحكم بقتل المقاتلين وسبى النراري والنساء ، وكانما كانت وجهة
 نظر سعد أن يعاملهم بمثل ما كانوا يترقبونه للمسلمين اذا انتصروا عليهم
 وهو الاستئصال من غير شك . وقد كان لهذا القضاء على بنى قريظة
 الأثر البالغ فى قوة المسلمين وتمكن دولتهم وعندئذ اتجهت الأنظار
 الى يهود خيبر الذين وقد عليهم فلول النازحين من اليهود الآخرين من
 كل مكان وقد أصبحت تضم اليها بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ،
 والى جانبهم قريبا منهم يهود تيماء ووادى القرى ، وكانوا يترقبون ما بين
 وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون ، لذلك كان الاستعداد بينهم قائما على قدم
 وساق . فتارة يفكرون فى الدخول فى حلف مع النبی صلى الله عليه
 وسلم ليزيلوا من نفوس المسلمين ما علق بها من العداوة التى غرسها حى
 ابن أخطب من جراء تأليبهم العرب لاقتحام المدينة وتارة أخرى يفكرون
 فى تكتل يهودى عام يضمهم ومعهم وادى القرى وتيماء والمسلمون
 كانوا قد سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما سلام بن أبى
 الحقيق ، واليسير بن رزام ، وبهذا القتل حصلت خلخلة فى صفوف اليهود
 الا أن كثيرا من القرشيين كانوا يتوقعون أن الدائرة ستدور على المسلمين .
 وذلك لمناعة حصون خيبر ، وقيامها فوق جبال صخرية ، وكان أبرز زعماء
 أهل خيبر فى هذا الوقت سلام بن مشكم الذى أشار عليهم أن يوزعوا
 أنفسهم على الحصون . فيجعلوا الأموال والأولاد فى حصن . والذخائر
 فى حصن . والمقاتلة فى ثالث وهكذا وضيق المسلمون عليهم الحصار
 وهم مستميتون فى الدفاع ، وقتل سلام ابن مشكم فتولى القيادة بعده
 الحارث بن أبى زينب ، وما زالوا صامدين وقد أرسل النبی اليهم
 أبا بكر فرجع من غير جدوى ، فأرسل عمر فرجع كذلك فأرسل عليا
 ودعا له بالنصر وقد خرج اليه يهودى فضربه فسقط ترسه ، فتناول
 بابا كان عند باب الحسن . فتترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن
 واقتحم المسلمون بعده ، وسقطت خيبر وصالحهم النبی على البقاء فى
 أرضهم يزرعونها بالنصف ، لأن المسلمين لم يكن فيهم من يحسن القيام
 على فلاحة الأرض وزراعتها ، وقد قبل يهود فدك ووادى القرى هذا المبدأ
 ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية ولكن أمرها بعد الفتح عاد الى الاذعان
 والقبول

قبل غزوة بدر

كانت سرية عبد الله بن جحش حدثا هاما في أوساط قريش بمكة لأنها قتلت رجلا وأسرت اثنين وأخذت ما كان مع القافلة القادمة من الشام فجعلته غنيمة للمسلمين تولى محمد صلى الله عليه وسلم توزيعها ثم هي مع ذلك أحدثت ضجيجا في صفوف المسلمين والمشركين في آن واحد . . . وقال القائلون لقد انتهكت الأشهر الحرم . . . وكان القرآن الكريم فيصلا في الدفاع عن المسلمين . ودحض الافتراءات التي افتراها الكفار عليهم . وقد كانت قريش ألحت في فك قيده الأسيرين اللذين كانا في حوزة المسلمين في مقابل فدية تدفعها وقبل النبي صلى الله عليه وسلم ما عرضته قريش بشأن الأسيرين على أن يتقدم ذلك رد الأسيرين المسامين اللذين كانا قد ذهبا الى مكة طلبا لراحتهما المفقودة . . . الا أن المسألة من الجانبين لم تنته الى هذا الحد فان قريشا أدركت أن محمدا وأصحابه قد ابتدأوا معها سياسة جديدة سوف تأخذ طريقها على مدى الأيام لوضع حد فاصل بين الطرفين لا يعلم الا الله ماذا يكون وراءه ، وكذلك المسلمون أخذوا يتطلعون الى تصحيح الأوضاع القائمة بينهم وبين المشركين ، وربما كان قد وقر عندهم أنهم منذ هذه السرية قد اهتموا الى الأسلوب الذي يحسن أن تعامل به قريش لتتنازل عن غطستها ، وتعديل من خطتها ، وثوب الى رشدها . . . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن أبا سفيان خارج الى الشام بتجارة لقريش بذلت لها أموالها ، ورصدت لها كل ما تملك فيخرج للقائه فلا يدركها فيتربص عودتها ليأخذها لقمة سائغة للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ويصل الى علم أبي سفيان نبأ هذا الخطر الذي يتهدد تجارة قريش فيرسل رسولا الى مكة لتذهب على بكرة أبيها لتحمي تجارتها ، وتدافع عن أموالها ، وبينما هي في هذا الفزع والاستعداد للخروج ولقاء أبي سفيان كانت القافلة

قد وصلت الى مكة سالمة لم يصيبها سوء لأنها غيرت طريقها فلم يدركها
 محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠٠ الا أن خروج محمد بنفسه ليقطع الطريق
 كان له مغزاه البعيد جدا عند قريش لأنه يعنى على الأقل أن الأمر من
 الجدية بدرجة عظيمة ، وأن على قريش أن تحسب حساب هذه الجدية ٠٠٠
 وقد أخذ أهل مكة يفكرون فيما يجب أن يأخذوا به ، فمن قائل ان الغرض
 الذى من أجله كنا ننتهيا للخروج الى لقاء محمد لنرده عن عدوانه ، ونمنعه
 من تطاوله قد أصبح لا غيا ، والحروب ليست من السهولة بحيث يستجيب
 الناس اليها بهذه السرعة ، ومن قائل لا نترك محمدا يطمع فينا ، ويستهن
 بالعدوان علينا ، ولو أن الخلاف كان مجرد تعارض آراء لهان عليهم أن
 يختلفوا لكنه تحول الى ناحية حساسة فى صلة الفرد بالفرد والجماعة
 بالجماعة ، تلك الناحية الحساسة هى القرابة والنسب الذى كان يربط
 بين أهل مكة والمسلمين الذين آمنوا بمحمد وهاجروا معه ، وهذا خلاف
 - أو اختلاف - اذا انتهى بالخروج الى محمد واللقاء له وجهها لوجه .
 وعلان الحرب عليه ، كان معناه أن يقتل الرجل أخاه أو أباه أو ابن عم
 أو خال له ، لأن هؤلاء المهاجرين قد تركوا فى مكة أهلا وذوى قرابة .
 ورحما موصولة ، من الصعب أن يريقوا دماءهم ، أو يزهقوا نفوسهم ،
 لذلك فان الذين تحدثوا عن القعود عن القتال ، ولم يستقبلوا فكرة
 الخروج الى محمد ، ما دامت العير قد نجت . والتجارة قد وصلت سالمة ،
 لم يقابلوا بالرضا والارتياح من كثير من المتحمسين للقتال بحجة أنهم
 يتفادون قتال من تربطهم بهم قرابة أو نسب من أصحاب محمد ٠٠٠ على
 أن هنالك جماعة أخرى من المشبطين عن الخروج كانت ترى أن محمدا
 وأصحابه انما يأخذون بحقوقهم ، ويثأرون لأنفسهم ، لأن المعاملة التى
 عوملوا بها ، والتى انتهت بهجرتهم من مكة كانت غير كريمة ، وأن الظلم
 الذى وقع عليهم ، والغبن الذى لحق بهم . هو الذى دفعهم الى هـذا
 الصنيع الذى يصنونه مع قريش فى تجارتهم وقوافلها التى تغدو
 وتروح ، وكل هذا كان من حقه أن يستبعد عن الأذهان فكرة الخروج
 الى محمد والحرب له ٠٠٠ ولولا أن فريقا آخر بحكم النخوة الجاهلية كان
 متحمسا للخروج والحرب ، وتأديب هؤلاء الذين يقطعون الطريق على
 التجارة أو يحاولون أن يظهروا بمظهر الهزيل الضعيف أمام محمد
 وأصحابه ، تمسكوا بالحرب والدعوة اليها ، واعتبروا أن الذين يصرفون
 الأذهان عنها ، أو يقابلونها بالفقور والبرود ، لا يجرى فيهم الدم العربى ،
 وكان على رأس هؤلاء أبو جهل الذى كان موقفه دائما أبدا من النبى صلى
 الله عليه وسلم والمسلمين معه موقف العداء والكراهية وكان منهم كذلك
 عقبه بن أبى معيط ، وقد جاء هذان الرجلان بمجمره فيها بخور ومرود
 ومكحلة لأمية بن خلف وقالوا له استجمر وتكحل فانما أنت من النساء

لأنه كان يرى أنه لا داعى لقتال محمد ما دامت العير قد نجحت ووصلت الى مكة سالمة لم يصيبها أذى ، وكان على رأس أصحاب هذا الرأى أبو سفيان نفسه الذى كان على رأس هذه العير الا أن رأى أبى جهل الذى كان يدعو للحرب قد تغلب ٠٠٠ وكان عتبة بن ربيعة ممن لا يزون حرب محمد وأصحابه موافقة للصواب ، وكان يقول « يا معشر قريش انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ٠٠٠ والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فان أصابوه فذلك الذى أردتم وان كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون فلما بلغ ذلك أبا جهل ذهب الى عامر الحضرمى - وهو أخو عمرو الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش - وقال انظر ماذا يقول حليفك ٠٠٠ والى هنا كانت فكرة خروج قريش الى الحرب قد نضجت ولم يبق أحد من أهل مكة الا وقد أعد نفسه للخروج أو أرسل من ينوب عنه الا بنو زهرة التى نزلت على رأى زعيمها الأخنس بن شريق الذى كان يرى عدم الحرب ٠٠٠ وانتهى الأمر بتجميع قريش التى أعدت نفسها لحرب محمد وأصحابه بالعدوة القصوى ٠٠٠ وقد كان خبر هذا التجمع قد انتهى الى النبى صلى الله عليه وسلم والى أصحابه . وكان لابد له أن يأخذ رأيهم فى ذلك فكانت موافقتهم عامة لم يشذ منهم أحد ، وقال المقداد بن عمرو يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ولا نقول لك ما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا هنا قاعدون ولكننا نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، وسكت الناس بعد ذلك فلم يتكلم أحد فقال النبى صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس وكانما كان يعنى الانتصار لأن الوضع الذى كن بينهم وبينه أن يحموه مما يحمرون منه نساءهم وأبناءهم وكان معلوم أن ذلك فى داخل المدينة فقط . ومعنى هذا أن يقفوا معه موقف المدافع لا المهاجم - والحرب هجوم - وفى هذا الوقت تصدى له سعد بن معاذ سيد الأوس وقال له كأنك تمنينا يا رسول الله ، فقال له الرسول أجل . فقال سعد قد آمننا بك وصدقناك وأعطيناك عهدنا فامض لما أمرك الله به ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك . وما نكره أن نلقى عدونا غدا ، انا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر على بركة الله ، فأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم ٠٠ وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث عيونته يلتصسون له خبير قريش ليعرف مدى استعدادهم للحرب . فجاء اليه على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص بغلامين من قريش قالوا له ان قريشا وراء

الخيب بالعدوة القصوى فسألها النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد مقاتليهم فأجابا انهما لا يستطيعان أن يقطعا في ذلك بقول ، فقال لهما كم يديحون من الابل كل يوم فقالا له أن ذلك يتراوح بين تسعة أو عشرة من الابل فعلم أن عدد الجيش يتراوح بين التسعمائة أو الألف ٠٠ كما جاء إليه أيضا اثنان من هذه العيون يقولان له ان قريشا ترد بدرا غدا أو بعد غد ، وكان ذلك بناء على أن جارية كانت تطالب أختها بدين عليها ، فقالت لها غدا أو بعد غد تأتي العير وسأعمل لها وأؤدى لك حقك ٠٠٠ وكان صلى الله عليه وسلم قد نزل بعيدا عن البشر المسماة بدرا ، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح بأبي أنت وأمي يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله اياه لا نستطيع أن نتحول عنه ، أم هو الرأى والخداع والحرب ، فقال له هو الرأى والحرب والخداع ، فقال له يا رسول الله ان الحرب والخداع والرأى تقضى أن تنزل على الماء نتحكم فيه ونأخذ منه ، ونذود سوانا عنه ، فاستراح النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الرأى . وانتقل المسلمون اليه ، وبنوا حوضا عليه ، وظلوا يمتنعون عنه من تحذته نفسه بالاقتراب منه ، وكان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأى واحد من أصحابه ارتياحا لضمائهم ، وسرورا لأنفسهم ، وعلانا عن احترام المشورة والأخذ بها ، وأنه لا ينفرد وحده بتنفيذ الأمور ، وإبرام القضايا ٠٠ ولما انتهى المسلمون الى وضع أيديهم على ناصية البشر والاقامة حولها ، والاطمئنان الى أن مصيرها بأيديهم ، اقترح رئيس الأوس سعد بن معاذ أن يبنى للنبي صلى الله عليه وسلم عنده عريشا يأوى اليه ، وتجعل الى جانبه ركائبه ، فاذا قاتل المسلمون كان هو بعيدا عن الخطر ، أو بمنجى من الشر ، فإن انتصر المسلمون عاد معهم باليمن والظفر ، والا بقى للعدوة يتم ما بعثه الله به ، وأرسله من أجله . فليس هو فردا وإنما هو أمة وتاريخ وتحويل لمجرى الحياة كلها ٠٠

غزوة بدر الكبرى

كانت قريش من غير شك تتقف موقف التحدى من النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ أنها تعلم أنه خارج لا محالة للقاء غيرها التى يقودها ابو سفيان والتى كانت تحمل ما تقدر قيمته بخمسين ألف دينار - كما يقول المؤرخون وهو تحد أرادته به أن تضع حدا فاصلا لهذه المناوشات التى يقوم بها أصحاب محمد ليجعلوا طريق تجارتها غير آمن . وقد كانت ترى أن هذا الحد الفاصل هو الذى يسدل الستار على الفصل الأخير من الرواية ، وربما كان المسلمون أيضا يريدون أن تكون هذه المعركة هى الحد الفاصل لكن قلة المسلمين لا تدل على أن هذا الموقف بينهم وبين قريش سيكون هو الحد الفاصل لأنهم كانوا قلة متهافئة فى حين كان المشركون ثلاثة أمثالهم فى العدد . . . الا أن عناية الله سبحانه وتعالى بالمسلمين كانت تلفت النظر . وتجعل العقل لا يتردد فى أن النصر للمبادئ التى يؤمن بها أصحابها ، وللعقيدة التى تعمر بها نفوسهم ، والتى تصورها الآية القرآنية الكريمة « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنافزتم فى الأمر ولكن الله سامع عليم بذات الصدور واذ يريكهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الأمور » ولم يكن واحد من الذين خرجوا مع محمد صلى الله عليه وسلم يضع فى اعتباره قلة وكثرة ، وانما كانوا يرون أنهم خرجوا لحماية العقيدة التى يؤمنون بها . والدين الذى اختاروه لأنفسهم . وقد كانوا يشعرون بهذه القلة لا محالة لكنهما لم تزرع فى نفوسهم التردد ، ولا فى قلوبهم الرعب ، وبخاصة بعد تلك الطاقة التى زودهم بها صلى الله عليه وسلم وهو يقول لهم قبل أن ينزلوا الى ميدان المعركة « أما بعد فانى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فان الله عظيم شأنه .

يأمر بالخير ويحب الصدق ، ويعطي الخير لأهله على منازلهم عنده ، وانكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد الا ما اتفق به وجهه ، وان الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجي به من الغم . وتذكر به النجاة في الآخرة . فيكم نبي الله يحذرکم ويأمرکم . فاستحبوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمرکم يمقتكم عليه ، فان الله يقول « لملت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » وأبلاوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته ، فان وعده حق ، وقوله صدق ، وغنايه شديده ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، اليه ألقانا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنسا ، واليه المصير ، يغفر الله لي ولكم وللمسلمين » . وقد كانت الحرب في أول الأمر مناوشة ابتدأت بالأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي اخترق صفوف المسلمين الواقفين على بدر ليهدم الحوض الذي بناه المسلمون عليها فتقدم اليه حمزة بن عبد المطلب فأصابه في ساقه فأرداه ، وهناك تقدم عتبة ابن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم فتيان من الأنصار فأبوا أن ينازلوهم وقالوا نحن نريد أكفاءنا من قومنا ، ثم نادى عتبة يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا فنادى النبي صلى الله وسلم يا عبيدة بن الحارث يا حمزة بن عبد المطلب يا علي بن أبي طالب فأجهزوا عليهم وتركوهم قتلى . وأقيمت قریش بعد ذلك بعدها الضخم لتبتيء الزحف الساق ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كثرتها الكثيرة ، أخذ يقول للمسلمين والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبالا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ، وكان يتابع المعركة وهو في عريشه ينتهل الى الله ويدعوه وكان يقول فيما يقول اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ، اللهم نصرك الذي وعدتني ، اللهم أرحب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم ، وكان أبو بكر يقول له هون عليك يا رسول الله فان الله منجزك وعده ، وأخذته صلى الله عليه وسلم سنة من النوم قام بعدها يقول أبشر أبا بكر هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع . ونزل الى أصحابه يشد عزائمهم ، ويبشرهم بنصر الله ، ويقول لهم شدوا شدوا « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . ولما نظر المشركون الى ما حل بكبارهم وزعمائهم أمثال عتبة وشيبة استولى عليهم الهلع والخوف ولاذ من لاذ بالفرار ومن لم يستطع وقع في أسر المسلمين ، وهنا موقفان يأخذان بتفكير الأريب أو الأديب .

الأول ما كان من سعد بن معاذ سيد الأوس فنه لما رأى المسلمين تتهلل وجوههم لوضع أيديهم على الأسرى تغير وجهه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم فقال أجل

يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الانخان في القتل أحب إلى من استيقاء الرجال . . وهو يعلن عن مطبخ سروره بقتل المشركين واستئصال شأفتهم وانتكاس رأيهم وذلة نفوسهم وأنهم بعد هذا الذي حصل لهم لا يستطيعون أن يتعرضوا للدعوة ، ولا يمكن أن يصدوا عنها ، أو يقفوا في وجه محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذا الهوان الذي لحق بهم . والهزيمة التي أصابتهم ، وأن اللغة التي كانوا يخاطبون بها المسلمين ستتغير منذ هذه اللحظة .

الثاني ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم وقد أحس أن زمام الموقف في أيدي المسلمين لا المشركين قمشى يقول لهم انى قد عرفت أن رجلا من بنى هاشم وغيرهم قد سيقوا إلى القتال كرها وهم لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله . ومن رأى أبا البخترى فلا يقتله ، وكان أبو البخترى هذا ممن يكفون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وهو أحد الذين وقفوا موقفا كريما في نقض الصحيفة . ونحن لا نفسر موقف الرسول من بنى هاشم إلا أنه موقف الدم والقراية . لكن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة قال له أيقتل آباؤنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك بنى هاشم والله لئن لقيت العباس ابن عبد المطلب لألقمته السيف . فتغير النبي صلى الله عليه وسلم وشكى أبا حذيفة إلى عمر ، وقال له أما سمعت قول أبى حذيفة أضرب وجه عم رسول الله بالسيف ، فقال له عمر والله لقد نفاق . مرني يا رسول الله لأقتله . وكان أبو حذيفة يحدث عن نفسه فيقول ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلتها وأرجو أن تكفرها عنى الشهادة ومات شهيدا في موقعة اليمامة في خلافة أبى بكر رضى الله عنه وأبو حذيفة هذا حين قتل أبوه قال له النبي صلى الله عليه وسلم ألمك قتل أبىك يا أبا حذيفة فقال له لا يا رسول الله ولكنى كنت أرجو وفيه رجاجة عقل ، وبعد نظر ، وحسن تفكير ، أن يهديه الله إلى الحق ، ويبصره بالصواب ، ويوجهه إلى الخير ، لكنه آثر الكفر ، وطريق الخوابة ، وذهب إلى جهنم من أوسع أبوابها . .

ولما انتهت الحرب وفر من فر من قريش وأسر من أسر كان عدد قتلاهم سبعين كلهم من الصناديد الذين كانوا يديرون المعركة وتعتمد عليهم جبهة الكفر ، وترتبط بهم إلى حد بعيد المناوشات التي تواجه بها الدعوة ، والخصومات التي يعاني منها محمد صلى الله عليه وسلم في أداء رسالته ، وقد كان اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم في تفقد القتلى ومعرفة الذين خروا صرعى أن يطمئن إلى أن أبا جهل في هؤلاء جميعا وكان قد اشتراك في قتله ثلاثة ضربه معاذ في قدمه . وضربه معوذ كذلك ، وضربه ابن مسعود فقطع رأسه وقضى عليه . ولم يسر

الرسول لموت أحد كما سر لموته ، وكانت نشوة فرحه صلى الله عليه وسلم بهذا النصر لا تعادلها نشوة أخرى بيوم آخر ، لأن هذا اليوم كان بحق حدا فاصلا بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم . كما كان حدا فاصلا أيضا بين الكفر والايمان . . . وكان من ارتياح النبي صلى الله عليه وسلم لما حدث فى هذا اليوم أنه كان يمشى ومعه أبو بكر يتفقدان جثث القتلى فيقول « نفلق هاما من رجال أعزة » فيقول أبو بكر « علينا وهم كانوا أعز وأكرما » لكننا نعجب من قصة أبى البختري الذى أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالابقاء عليه وعدم قتله فإنه قد انتهت حياته بالقتل . وذلك أن أحد المسلمين أراد أن يطمئننه على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالابقاء على حياته ، فقال له أبو البختري أنا وحدى ، أم أنا وصاحبى فلان ، فقال له أنت وحدك ، أما صاحبك فانى قاتله . فقال أبو البختري لا تتحدث نساء قريش بخيانتى لصاحبى ، اما الحياة لى وله ، واما الموت لى له ، وأحسن المسلم بالغير الذى يبيته أبو البختري فضربه ضربة قضت عليه ، وجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره خبره . . . وقد كانت غزوة بدر هليئة بكثير من الصور التى تنضح بعطفه صلى الله عليه وسلم على بنى هاشم وابقاؤه على حياتهم وان كانت قلوبهم قاسية وطباعهم جافة ، وأفئدتهم متحجرة ، الا أن هذه الغزوة على كل حال كانت كفيلا أن تغير سياسة المعارضة التى كانت تحمل رايتها قريش لتأخذ من جديد فى أسلوب آخر غير هذا الذى تعامل به محمدا صلى الله عليه وسلم الذى تدين له العرب ، ويخضع له هذا السواد الذى يستطيع به أن يكسب المعارك . وينتصر فى المواقع ، ويقوم به المعوج ، ويصحح به الأوضاع ، ويؤدب به من يخرج على طاعته ، أو يكذبه فى دعوته . لكنها مع ذلك ظلت حربها قائمة ، وعداوتها دائمة . . .

طرف من بدر

كان في صفوف المشركين في غزوة بدر « أمية بن خلف » وقد وقع في أيدي المسلمين أسيرا هو وابنه وأراد عبد الرحمن بن عوف أن يحميها من عدوان من تحدته نفسه بالقسوة عليهما ، أو النيل منهما ، لكن بلالا الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عبدا مملوكا لأمية هذا وقد لقي منه من ألوان الهوان ، وصنوف الايذاء ، بسبب اتباع محمد ، واعتناق دين الاسلام ، ما لا يتصوره العقل البشري الا في فظائع الطباع ، وقاسى القلوب . . . وكثيرا ما كان يتركه في الرضاء المحرقة متجردا من ثيابه . لتلفحه النار ، ويؤذيه اللهب ، ثم لا يكتفى بذلك حتى يلقي بالحجر الثقيل على بطنه ، رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام ، والبقاء على وثنية الكفر ، وضلالة الشرك ، وعبادة الطاغوت ، والسجود للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تحس ولا تدرك . . . وما ان وقعت عيننا بلال بن رباح على طلبته التي كان يرجوها ، وضالته التي كان ينشدها ، حتى هجم عليه ليشفي غليله منه ، ويقتص لهذا الذي لقيه من جبروت المالك ، وعسف المتسلط ، وبطش الجاهلي ، وكبرياء الأحمق . فلما زجره المرة بعد المرة عبد الرحمن بن عوف نادى بأعلى صوته رأس الكفر أمية لا نجوت ان نجا ، وكان أمية مما أصاب عبد الرحمن من مغام الحرب ، فقال له عبد الرحمن هو أسيرى ، ومالى ، ولكن بلالا تمادى في صوته ، وألج في طلبه ، ورأى أن حجة عبد الرحمن بن عوف لا تحول بينه وبين ناره القديم ، وأحاط الناس بأمية وابنه في يدي ابن عوف وسبقت من بلال ضربة لهذا ثم لهذا وصارا في خبير كان الناقصة . . . ويظهر أنه إلى لحظة اللحظة لم تكن الأمور قد تكشفت في شأن الأسرى ، ولا عرف المسلمون ما الذي يجب أن يؤخذ به في معاملتهم ، وكان من هؤلاء الأسرى من كانت لهم سوابق سيئة في

معاملة المسلمين بمكة ، ولذلك لم يقبل المسلمون منهم الفداء ، وأبوا الا قتلهم ليكون ذلك ادعى الى شفاء غليلهم ، وارضاء نفوسهم ، وقد صنع النبي صلى الله عليه وسلم بالنضر بن الحارث وعقبة ابن ابي معيط ذلك بنفسه وهو عائد مع المسلمين الى المدينة ، نظر الى النضر نظرة اشتف منها أنه قاتله فقال لمصعب بن عمير وكانت بينهما مودة أنقذني من صاحبك فانه نظر الى نظرة تدل على أنه قاتلي لا محالة ، فأخذ يذكره بمساوئه السابقة واحدة واحدة . . وكان من طريف أخبار هؤلاء الأسرى أن جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم شاعر يدعى « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي » وقال لي خمس بنات ليس لهن شيء فتصدق بي عليهن ، ولك علي أن لا أقاتلك أو أعين عليك . فلما أطلق سراحه ، نكث وعده ، وأخلف وعده ، وخرج لحره وحرب المسلمين في أحد ، فوقع في أيدي المسلمين وانتهى أمره بالقتل . . ومن الصور التي تفيض بالحنان والعطف في أسرى بدر أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت في الأسرى « العاصي بن الربيع » وكان زوجها لها ثم فرق النبي بينهما لاختلاف الدين ، وقد أخذتها عاطفتها القديمة ، وصلتهما السابقة ، وكانت تملك قلادة كانت أمها خديجة أهدتها اياها ليلة زفافها اليه ، وقد حملت هذه القلادة وذهبت لتقدمها للنبي صلى الله عليه وسلم ليأخذها فداء للعاصي بن الربيع فرزق قلبه صلى الله عليه وسلم لها وقال للمسلمين « هل لكم أن تردوا عليها قلادتها وتطلقوا لها زوجها » وقد خلى المسلمون سبيله وعاد الى مكة وخرج على رأس عمير في تجارة لبعض أعيان مكة ، وفي عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه ، وهناك التجأ الى زينب ليرد المسلمون اليه ما أخذوه منه ، وعملت زينب بكل ما تملك من الوسائل ليعود اليه ماله ، وقد كان أجيرا لا يملك من الأموال الا حق الرعاية والصيانة والحفظ ، ولما رد اليه المال وذهب الى مكة ليدفعه الى أصحابه عاد الى المدينة ليعلن اسلامه ولتعود اليه زوجته التي كان نبيل أخلاقها . وكرم معدنها ، وحسن وفائها . حاملا له على أن يقوم سيره ، ويصحح منهجه ، ويعدل سنته ، ويلتزم جادة الصواب والحق ، واستأنف معها في ظلال الاسلام عيشا أرغد ، وحياة أهنا . وصلة أقوى مما كانت . ولعل السبب في تمسكه بها . وحده عليها ، وتراعى عاطفته نحوها الى هذا الحد . لا ترجع الى رابطة الزوجية وكفى ، ولكن الى أنها ابنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . وأنها كذلك ابنة خالته ، لأن أمه هالة بنت خويلد الأسدية أخت خديجة رضی الله عنها . . وكان العاصي هذا ممن عرفوا في مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يثق عليه . وكثيرا ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك زينب فلم يتركها وازداد

تعلقا بها وحرصا عليها . . . وكان من الصور التي تفيض بالانسانية
 المهذبة ، والمرورة النادرة ، أن قتل المشركين الذين لم يجدوا من قومهم
 وذويهم من يدفن جثثهم ، أو يهيل التراب على أجسامهم . صنع المسلمون
 معهم صنيع الانسانية والمرورة ، اذ جمعوا أشلاءهم المتناثرة وعظامهم
 المتفرقة . فى قبر يورايهم ، وجدت يضمهم ، وهو ما يسمى بالقليب
 - البئر - وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوما كاملا وليلة كاملة
 فى مكان المعركة لا يغادرونه ، وبينما هم بالليل مع سكنونه وهدونه ،
 يستغرق فى نومه من أتعبه العمل ، وأنهكت حركه الكر والفر ، كان
 الرسول صلى الله عليه وسلم واقفا على القليب الذى يضم جثث الهلكى
 قائلا « يا أهل القليب . . يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة - يا أمية
 ابن خلف يا أبا جهل بن هشام . . يا فلان يا فلان - يذكر من فى القليب
 واحدا واحدا - هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فاني وجدت ما وعدني
 ربي حقا » قال المسلمون يا رسول الله أتنادى قوما جيئوا . . فقال عليه
 الصلاة والسلام « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن
 يجيبوني » . . .

ولقد كانت هذه الجولة الحاسمة بين المشركين والمسلمين ، من
 الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر ، والجماعة المناوئة لمحمد صلى الله
 عليه وسلم ، اذ حشدوا لها كل ما يملكون من العدد والعدة ولكنهم كانوا
 مع ذلك كله كأنما تعنيهم الآية « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا
 عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا
 الى جهنم يحشرون » . . . ولقد كان أبو لهب الذى فضحه الله فى السورة
 التى تلغنه وتهتك عرضة ، من الذين استأجروا من يتوب عنهم فى
 الخروج الى قتال المسلمين ، فلما انتهى اليه نبا هزيمة دولة الباطل ،
 وجيش الشرك ، وأصحاب دعوة الشيطان ، دارت به الأرض الفضة ،
 وأصابه مرض حاد لم يمهله سوى أيام معدودات مات بعدها حزنا لما لحق
 به وبقومه من الزحف الجديد الذى لم يستطع أن يصد أو يرد ، ولم
 يكن هو وحده الذى وقع عليه نبا الانتصار كالصاعقة ، فان كثيرا منهم
 كان يقول اذا كانت هذه الحرب قد أكلت صنابير قريش أمثال فلان وفلان
 ممن برزت عدواتهم لمحمد والكيد له « فان بطن الأرض خير من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل « هذه غزوة بدر التى استقر بها الأمر
 للمسلمين من بعد فى بلاد العرب جميعا ، والتي كانت مقدمة وحدة شبه
 الجزيرة فى ظلال الاسلام ، ومقدمة الامبراطورية الاسلامية المترامية
 الأطراف ، والتي أقرت فى العالم حضارة ما تزال ولن تزال ذات أثر
 عميق فى حياته . . ولقد تعجب اذ تعلم أن محمدا على ما كان عليه من
 تحريضه أصحابه ، وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه ، قد

طلب الى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا أحدا من بنى هاشم ، وألا يقتلوا بعض رجال من سادت قريش . مع أنهم اشتركوا فى قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله ولا تحسب أنه فى ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحدا ممن يمتنون له بصلة القربى ، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا ، وإنما ذكر لبنى هاشم منهم إياه مدى ثلاثة عشر عاما من يوم مبعثه الى هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة العقبة ، وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التى اضطرتة بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب وأن تقطع بهم كل صلة ، فهذا المعروف الذى تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنة يجزى من قدمها بمثلها . ولذلك كان شفيعا لهؤلاء وأولئك عند القتال ، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البخترى الذين كان لهم دور بارز فى نقض الصحيفة « والواقع أن هذه الصورة البشرية الانسانية التى بدت من النبى صلى الله عليه وسلم كانت مذهلة ، لأنه إن كان أراد أن يحتفظ لهؤلاء بأيادهم السابقة . فإن هذا الاحتفاظ بالتقديم لا معنى له مع هذا الموقف الحاضر ، وقد جازا لقتله وقتل أصحابه معه ، وإن كانت وشيعة القربى هى التى تشده اليها . فإن هذه مواقف تقطع الأواصر ، وتلغى الروابط ، ولا يستطيع أحد أن يفسر ذلك إلا بأنه معنى آخر غير القرابة ، و غير الاحتفاظ بالأيادى السابقة ، هذا المعنى الآخر الذى يتناسب مع رسول الانسانية محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يقض مضجعه ، ويتعب خاطره . أن تراق قطرة من الدم ، أو تقطع الحياة على انسان ، وكان ميله الى السلم ، ورغبته فى الهدوء والاطمئنان ، هو كل ما يرجو أن يكون ، وإن الحروب التى خاض غمارها لم تكن نابعة من رغبة فى الشر ، وميل الى القتل ، وحب للهلك والفتك ، إنما كانت بعد دره لها . وعمل على تلافى أسبابها ، وسد الطرق الموصلة اليها ، فلما لم يفلح شيء من ذلك قبلها على الرغم منه ليدفع بها شرا مبيتا ، أو خطرا مدبرا ، أو عدوانا كن يراد من ورائه أن تموت كلمة الحق ، أو يسكت صوت العنل ، أو تسود دولة الباطل . . .

غنائم الحرب

لم يكن خروج النبي صلى الله عليه وسلم الى بدر بهذه القلة القليلة من أصحابه يعنى أنه يتهيأ لحرب أو يقصد الى لقاء العدو قد انعدم التكافؤ بينه وبينه فى العدد والعدة ، وإنما كان مناوشة كالذى تعود من قبل مع أهل مكة على غرار ما كانت سرية عبد الله بن جحش وغيره من الذين كانوا يقومون بقطع الطريق وإشاعة الهلع والخوف فيه . لتتيمم قريش الى أنها كان عليها أن تفكر فى توفير الأمن لقوافلها التى تغدو وتروح بتجارتها من مكة الى الشام ، أو من الشام الى مكة . ولهذا كان الانتصار عندهم أمرا غير مترقب أو شيئا غير منظور ، وإلى جانب كونه مباغته سارة - هكذا - فقله كانت معه غنائم سلبوها من أعدائهم ، وأسلاب اغتصبوها من خصومهم ، وفى هذه النبوة التى أصابتهم من جراء هذا الانتصار لم يكن يدور بخلداهم أن معارك أخرى تنتظرهم ، ومجابهة لخصومهم سوف تكون لا محالة . وفى الطريق الى المدينة وهم منصورون من المعركة كان الذى يعينهم ، ويستولى على تفكيرهم هو هذه الغنائم التى جعلها الله فى قبضة أيديهم . ومن يكون صاحب النصيب الأوفر منها . ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ، ولا تشريع متبع ، ولا عرف معمول به ، يمكن أن يكون فيصلا فى ذلك ، وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث . جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وهو لا يذ بالفرار حتى لا يتغفلها ويعود للكر عليها ، والتمكن منها . وجماعة المقاتلين الذين وقفوا فى الميدان وجرعوا العدو كأس الهزيمة ، وكانوا يصارعون الموت ، ويتلقون الضربات من هنا وهناك . ثم الجماعة التى كانت على رأس النبي صلى الله عليه وسلم تصد عنه العدوان ، وتدفع عنه ما عسى أن يناله من خصومه الذين كان هدفهم الأكبر أن يظفروا به ، فأى هذه الطوائف يأخذها وحده أو يعود منها بنصيب الأسد ، قامت هذه الشبهة

برأس المسلمين وزعم كل فريق أنه صاحب الحق الذي لا ينازعه فيه أحد ، ولما كان هذا الخلاف يشتد ، ويصبح وحده علة العلل . كان لابد أن يحسمه الله بينهم ، وهناك نزل قوله جل جلاله « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » ليفهم المسلمون أن المقصد الأول والأخير هو اعلان صوت الحق ، ورفع راية التوحيد . وتمكين دعوة الاسلام . ثم تبع ذلك فيما بعد بيان توزيعها على أربابها الذين يستحقون لها ، ويأخذون منها « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات التي حددتها الآية الكريمة . ثم يوزع الباقي بعد هذا الخمس كما يرى القائد العام للجيش وقد كان التوزيع على هذا النحو للرجال نصف ما يأخذه الفارس . وللورثة خمسة شهيدتهم وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم في المعركة دون أن يحضرها ومن كلف بأمر خاص بعيدا عن ميدانها أما الأسرى فان حالهم كان موزعا بين الفداء الذي كان يتراوح بين الألف الى عشرة آلاف درهم أو الترك كل الترك اذا كان الأسير لا يملك ما يفدى نفسه به « فاما منا بعدد واما فداء » وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأي في الأسرى هو الفكرة الأولى ، فان النبي صلى الله عليه وسلم حينما عرض الرأي باديء ذي بدء على أصحابه كان رأى عمر القتل والابادة ليكون في هذا الصنيع الردع والزجر وكان من رأى أبى بكر الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقربة وقد كان رأى الذي انتهى اليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو العهد الوسيط وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه . وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه . وفي بعض الأحيان كانوا شفاء لعليهم . وذهابا لغيظهم ، يرون أنه لا بديل من القتل . فيقرهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ولا يعارض فيه وقد أخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بوثائق العباس بن عبد المطلب وشدد عليه فظل العباس يشن ليلة كاملة فتألم الرسول له أشد الألم . فبلغ ذلك الانتصار فعملوا على حل وثيقة من غير فدية فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يسوى بينه وبين غيره من الأسرى ، وقال له أفده نفسك وابني أخيك - عقيل ونوفل فاشتكى اليه الحاجة وأنه لا يجد ما يدفعه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ادفع من الذي تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة ، فقال له ومن أخبرك به ، قال أخبرني الله ، فقال أشهد أنك رسول الله ، ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين ،

وجرى في خاطر العباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرقه بهذا
 الذي دفعه فأنزل الله في شأنه « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من
 الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر
 لكم والله غفور رحيم » فسر بذلك العباس ولم يعد بعد ذلك الا جنديا
 مخلصا من جنود الاسلام يدافع عنه ، وينادى به ، ويرغب فيه ، ويبذل
 له ، ويقف الى جانب رسوله وقوف المؤمن الصادق الذي جرى الدين في
 لحمه ودمه ، وخالط روحه ، وامتزج به ، ومن طريف ما يروى في أخبار
 بدر أن أول من قدم مكة - قبل أن تتراعى اليهم أنباء المعركة - كان هو
 الحسينان الخزاعي ، فلما سألوه عن أنبائهم وأخبارهم أن الهزيمة حلت
 بهم ، وأن من القتلى فلان وفلان استعظموا أن يحدث ذلك ، وكادوا ينكرون
 عليه كل الإنكار وكان أدهى من ذلك أن سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب
 حينما أخذ يهون عليهم من شأن هذه الهزيمة ويقص عليهم أن رجلا بيضا
 علي خيل بلق كانت تقاثل في جيش محمد لا يقوم لها شيء . وكان أبر
 رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع الى هذه القصة فقال
 هي والله الملائكة ، الا أن هذا القول من أبي رافع لم يرق في نظر أبي
 لهب فأخذ يتلابيه وطرحه على الأرض وبرك فوقه يريد أن يقتله ،
 فقامت اليه أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وأمستت بعمود
 وانهالت عليه تضربه ضربا مبرحا شجحت به وجهه فلم يعش بعدها غير
 سبع ليال ، وقد تركه ولدها - معتب وعتبة - ميتا حتى اتن فحفروا
 له حفرة واروه بها دون أن يعلم بذلك أحد . . . وقد كانت هذه الحادثة
 صورة من صور البلبلة النفسية التي أصابت أهل مكة فجعلتهم يخرجون
 عن طورهم ، ويتجاوزون حدودهم ، وربما كان شبيها بها ، أو قريبا منها ،
 ما حصل من عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر - بالكعبة -
 وكان وهب بن عمير له ولد في الأسرى ، وقد أخذ بيديا أسفهما لما حل
 بقريش من الهزيمة وما أصابها من فقد رجالاتها ، وموت صناديدها ،
 وقال صفوان والله ما في العيش خير . وهنالك رد عليه عمير وقال له
 صدقت . . . والله لولا ديني وعيالي لركبت الى محمد لأقتله ، فقال صفوان
 علي كل ذلك . . . وعليك أن تذهب الى محمد لقتله . . . قال عمير أفعل ثم
 انطلق الى المدينة فرآه عمر فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 فقال له أدخله علي ، فلما دخل عليه . . . قال له ما الذي جاء بك
 يا عمير . . . قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم . . . قال له فما بال
 السيف الذي في عنقك . . . قال قبجها الله من سيوف وهل أغنت عنا
 شيئا . . . ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم انك لم تجيء لهذا يا عمير ،
 ولكنك قلت كذا وكذا ورد عليك صفوان بن أمية بكذا وكذا ، قال عمير
 أشهد أنك رسول الله حقا وصدقا . . . وعاد عمير الى مكة وكان من خير
 الداعين الى الله وأسلمه باسلامه خلق كثير .

وحصل هذا في مكة معسكر الكفر . ومعقل الشرك ، ومكان تجمع خصومه ، فهل كانت المدينة ، وهي منطلق الدعوة ، ومركز القيادة ، ومكان تكتل أنصاره صورة أخرى . . يعث النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة رجلين يسبقان مقدمة اليها ليبشرا المسلمين بما آفاه الله عليهم من نصر ، وما منحهم اياه من عزة ، وما آزرهم به من قوة ، ليكون ذلك أمدى الى أن ترتفع رؤوسهم ، ويستقر وجودهم . هذان الرجلان هما زيد بن حارثة الذي كان يركب القصواء ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن رواحة ، وقد سر المسلمون لهذا النصر وخرجوا من دورهم يهللون ويبتهجون . لكن المنافقين واليهود وهم الذين وقع عليهم نيا هذا الانتصار موقعا شديدا شككوا الناس في الخير وزعزعوا ايمانهم به وقالوا لو كان ذلك صحيحا ما رجعت القصواء من غير صاحبها . . وتدل كتب السيرة على كل حال على أن معسكر الكفر في مكة ، وكذلك معسكر النفاق في المدينة ، قد تحول كله الى جبهة حامية الوطيس لا حديث لها الا في الثأر وتآديب محمد وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا في دار الندوة ليقرروا من جديد ما يمكن أن يواجهوا به الموقف الجديد الناجم عن هذا الانتصار الذي أحرزه المسلمون . . وكانت الخطوة الأولى هي التنازل عن أرباح القافلة التي كان يقودها أبو سفيان بالتجارة من الشام والتي كانت هي السبب المباشر في غزوة بدر . . وقد أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش ليضمنوا دخولهم معهم لقتال محمد وأصحابه . . وقد كانوا مطمئنين الى أن اليهود في جانبهم لا يتخلون عنهم ولا يتركونهم ، وفاتهم مع ذلك أن حالهم مع محمد قد تغيرت وأنه لم يعد زائد جماعة ، أو قائد طائفة ، ولا رئيس قوم يعدونهم على الأصابع . وإنما هو سيد دولة متمسكة البنيان ، قد عاهدوه لو خاض البحر لخاصوه معه . لا يسألونه لماذا ولا ما هو السبب ولا ما هي العلة التي تحملنا على ذلك . وأنه سيفتح بهم مغاليق الأرض ، ومن الحق الوقوف في وجوههم ، أو التصدي لهم ، وقد نذورا نفوسهم لله .

حديث أحد

كان ما أصاب المشركين في بدر حافزا قويا لأن تتجمع قلوبهم . وتتلاقى أهواؤهم ، ويبدلوا كل ما يملكونه ليتعادل ميزان القوى . ورد الاعتبار الذي كان لهم من قبل ، وكان أول شيء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التي كان يسوقها أبو سفيان بالتجارة من الشام ، والتي كانت الشراة الأولى في غزوة بدر ، ثم يجعل ثمنها في تجهيز جيش جوار للقضاء على شوكة المسلمين ، ووقف زحفهم على طريق التجارة ، والحد من محاولاتهم النيل من أهل مكة ، أو العدوان عليهم ، وبخاصة بعد هذا الذي حصل لساداتهم . وكبار القادة منهم ، الذين عرفوا فيما بعد بأهل القليب ، والذين يمكن أن يكون قتلهم اغراء لمحمد وأصحابه بغزو مكة نفسها ، أو تطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها . ولم يمض شهر واحد حتى كان أبو سفيان قد اتصل بحلفاء قريش في كل جهة ليعدوا أنفسهم للقاء محمد والقضاء عليه ، وعلى من يقفون الى جانبه من المؤمنين بدعوته . المتفانين في السير على دربه ، وساعده على هذا الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو اليه من تكوين جبهة قوية للخروج الى القتال أن ظهر على المسرح العنصر النسائي من أمثال هند بنت عتبة بن الوليد وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس، فيهم . . وكانت هند بالذات من العوامل القوية في اذكاء الحماسة ، واشعال نيران الحمية والغيرة ، وكان من ضحاياها في بدر أبوها وعمها وأخوها ، فهي موتورة من غير شك . ومن حقها أن تجزع وتفزع . وأن تحزن وتبكي . وأن تبحث عما يشفى غليلها ، ويسكن لوعتها ، وكذلك كان جبير بن مطعم بن عدى قد فقد عمه طعيمة بن عدى . . وكان الغلام الحبشى وحشى قد اشتهر بالاقدام والجرأة ، وأنه لا يخطيء مقتل فريسته ، وانفقت هند وجبير ابن مطعم مع وحشى هذا على أن يغتال لهما الحمزة بن عبد المطلب ومناه

كل منهما بجزء مفر إذا هو حقق لهما هذه الأمنية ، ونفذ لهما تلك الرغبة ، وكان الاتفاق على الحمزة بالذات لأنه حبيب الى النبي صلى الله عليه وسلم وموته ايلام له ، وتنغيص لصفوه . . . وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم بمكة يرسل الى ابن أخيه أنسباً تحركات قريش خطوة خطوة لا يخفى عليه من أمرها شيئاً ، حتى لا يؤخذ على غرة ، أو يفاجأ بما لم يكن في خلده وحسابه من قبل . وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى من دونهم ، ولكنه أراد أن يشركهم في الخطة التي يأخذ بها . والأسلوب الذي يسلكه ، ويسير عليه ويقف به الموقف الذي يتناسب مع تلك المواجهة التي يدبرها له أبو سفيان مع معسكر المشركين في مكة وغيرها . من رؤساء الكفر . وطواغيت الجهل . للنيل من تلك الدعوة التي يحمل رايتها هو وأصحابه . . . وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه صلى الله عليه وسلم قد رأوا أن الخطة المثلى التي يمكن أن يوجهوا بها هذا الغزو المترقب ، أو الزحف المنتظر هي التحصن بالمنازل والبيوت في المدينة . حتى إذا ما جاء الجيش الزاحف بقيادة أبي سفيان وغيره ووجه في المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات ، وتزعم هذا الرأى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ولاقى رأيه هذا قبولا وارتياحا عند المحنكين من ذوى الأستنان الذين لم يكن في عقيدتهم ريب ولا شك الا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك في بدر من الشبان والمتطلعين الى الاستشهاد ألحوا في الخروج وملاقاة العدو بعيدا عن المدينة ، حتى جاء بعضهم الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ان ابني أصابته القرعة فيخرج في بدر وكان من الشهداء في جوار الأنبياء والصديقين . . . وقد رأيت في النوم ينعم في الجنة ، وكان مما أوصاني به أن أسارع في اللحاق به لأكون معه في الجنة . « وان الدار الآخرة لى الحيوان » وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت في سبيل الله لألحق به في الجنة . . . وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو هي الفكرة التي انتهى اليها رأى الأغلبية العظمى ، فلم يسع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن ينزل على هذا الرأى غير متحول عنه ، وما هو الا أن يدخل بيته وليس لامته استعدادا لخوض المعركة المقبلة ، ثم خرج الى قومه ليعلن اليهم أنه جاد في أمره ، حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأى بما يفيد الرجوع عنه ، قائلين له اخلم لامتك فاننا سنبقى في داخل المدينة نرمي عدونا بمن أسطح المنازل وداخل البيوت . . . وقد ظنوا أنهم بهذا يبالغون في مرضاته بالرجوع الى الرأى الذي كان مستريحا اليه أولا . ولكنهم فوجئوا منه بالامتناع والغضب وقوله لهم « ما ينبغي لنبي ليس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما أمركم

به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم » ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ، ولواء الخزرج للخباب بن المنذر ، ولواء الأوس لاسيد ابن حضير ، وخرج من المدينة بألف رجل فلما وصلوا راسي الثنية نظر صلى الله عليه وسلم إلى كتيبة مقبله فسنان عنقهل فقيل له هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود فرددهم وقال أنهم لا نستعين بكافر على مشرك ، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة ، وعلى حرسه الخصاص ذكوان بن قيس ، وسار حتى اذا كان بالشوط بين أحد والمدينة رجيع عبد الله بن أبي بنائمية من أصحابه احتجاجا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يأخذ برأيه وأخذ برأى الأحداث وقد أحدث رجوعه هذا بلبلة في صفوف المسلمين فهمت طائفتان من المسلمين أن تفعلا مثل ما فعل فعصمها الله وعاودهما صوابهما بعد ذلك ، وسار الجيش بعد ذلك حتى نزل الشعب من أحد ، وجعل ظهره للجبل ، ووجهه إلى المدينة ، وكان على يمينه جيش المشركين خالد بن الوليد ، وعلى يساره عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد ، وجعل آخرين أمام الباقين ، واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلا يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري وجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل وأوصاهم ألا يبرحوا أماكنهم ولولاخ النصر للمسلمين ، وابتدأ القتال بالمبارزة ثم الالتحام بعد ذلك ، وقد كان الهجوم العنيف من المسلمين سببا في أن يولى المشركون الأدبار تاركين وراءهم أسلحتهم وغنائمهم وهنا بدأ الرماة يجمعون الأسلاب وهم مطمئنون إلى أن عدوهم لا يمكن أن يعبرو اليهم ، وأن ظهورهم لا تزال محمية بأخوانهم الذين جعلوهم فوق الجبل ولكنهم أخطأوا الظن ، فان القوضى التي لحقت بهم حين جعلوا الغنائم هي الهدف لحقت بغيرهم كذلك كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم من وراءهم يدعوهم إلى الثبات والبقاء في أماكنهم قائلا إلى عباد الله إلى يا فلان إلى يا فلان أنا رسول الله « ان تصعدون لولا أن يكون علي أحد والرسول يدعوكم في أخراكم » وانتهر الشيطان هذه الفرصة فأخذ يملأ قلوب المسلمين بالسب والظنون التي كان منها أن محمدا قد مات ولا معنى لاستمرار الحرب بعد « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعركة حامية الوطيس على الرغم عن عدم تعادل القوتين - لولا هذا الخلل الذي حدث - وكان أبو دجانة قد أخذ سيف الرسول صلى الله عليه وسلم وجعل يجصد الوؤوس . وهو رجل

قد اشتهر بالشجاعة والاقدام . والجرأة والفروسية ، وكان هو وحمزة
يمثلان في جيش المسلمين القوة التي لا تقهر . ولا يستطيع أحد أن
يردهما ، أو أن يقف في طريقهما وإذا كانت الانتصارات والهزائم
في الحروب تتوقف على النظام والطاعة . والايان والعقيدة ، وأن شيئا
واحدا من هذه قد يكون سببا قويا في نهاية محمودة أو غير محمودة فإن
النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، قد رسم
للمسلمين وهو لا يشك في صدق ايمانهم الدستور الصحيح للنظام
والطاعة ، وهو يعلم مدى الفائدة التي تنجم عنهما . وفي هذه الكلمات
البسيطة التي يخاطب بها الرماة - الحمسين - ما يدل على مقدار بصره
الدقيق بالتكتيك الحربي الذي لا يعرفه الا كبار القواد والساسة . فان
الهزيمة لم تحل بالمسلمين في أحد الا بسبب هذه المخالفة ، حيث بدت
بواد النصر فترك هؤلاء وهؤلاء أمكنتهم وسارعوا الى جمع الغنائم وانتهابها،
وكان كشف هذه الثغرة تمهيدا للثغاف جناح جيش العدو بقيادة خالد
ابن الوليد حول المسلمين واعمال السيف فيهم بعد أن انضم اليهم الفارون
من أهل مكة ، وبذلك أصبح جيش محمد صلى الله عليه وسلم هدفا ميسورا
للمشركين ينالون منه ، ويقبضون على ناصيته ، وبفرار المسلمين ، وانطلاق
الصوت المغرض « ان محمدا قد مات » كان جيش المسلمين على الحال التي
تدعو الى الرثاء والأسف . اذ كان كبار المسلمين من أمثال أبي بكر وعمر
وعلى قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم . ولم يكن لهم تفكير الا في النجاة
من الموت أو الأسر ومن خلال تلك السحابة الدكناء التي اشتبه فيها
الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه محمد صلى الله عليه وسلم .
فنادى بأعلى صوته « يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله بيننا »
فأشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن اسكت . لكن المسلمين لم
يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر . ففرحوا به ، والتفوا حوله ، ووقفوا الى
جانبه يدافعون عنه ، ومن حوله أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ،
ورهط كثير غيرهم ، وكان أبو دجانة الترس الواقى الذي وقف الى جانبه
صلى الله عليه وسلم يتلقى عنه الرميات ، ويصد الهجوم . وقد تقدم اليه
أبى بن خلف يريد قتله ، مطمئنا الى أنه سيصيبه قاتلا لا نجوت ان نجا
محمد . وقد أراد بعض المسلمين أن ينحيه فأشار النبي عليه أن يتركه
وهناك ضربه ضربة ظل يشخب منها الى أن مات على فرسه وهو في
الطريق الى مكة . . .

وانجلت هذه المعركة عن شدائد عاناها الرسول صلى الله عليه وسلم
واصابات بالغة لقيها ، وطارت قريش بنصرها سرورا وفرحا ، حتى
قال أبو سفيان « يوم بيوم بدر وموعدا العام المقبل » وكان قد وقر
في ذهن أبي سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم في القتلى هو وأبو بكر

وعمر وعلى وكبار الصحابة . فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزنا شديدا وأيقن أن الشر لا يزال يلاحقه ، والمصائب ستواتيه ، وأنه مقبل على أيام سود لا يساوى هذا النصر الى جانبها شيئا . . . ولما خلا الميدان من المشركين ، وأخذ المسلمون طريقهم الى المدينة خرج النبي صلى الله عليه وسلم الى ساحة المعركة ليتفقد قتلاه ليأمر بدفنهم ، وهناك راعه أن عمه الحمزة في القتلى وقد مثل به لأن هدد كانت قد طلبت من وحشى أن يأتيها بكبده لتلوكلها . فلما رأى صلى الله عليه وسلم ما رأى غضب وأقسم لئن أظهرنى الله عليهم لأمثن بثلاثين رجلا منهم . فأنزل الله جل وعلا عليه « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون » فهدأ جأشه ، وسكن روعه ، واطمأن خاطره ، وقال أصبر وأحتسب ولم يبالغ النبي صلى الله عليه وسلم فى تعنيف المسلمين وتقريعهم لما حدث منهم من مخالفة كان من أثرها ما كان ، وانما ترك ذلك لضمايرهم ، وكأنما أراد أن تعلمهم الحوادث . وتؤديهم المواعظ ، حتى لا تتكرر تلك المأساة ، أو تتجدد تلك المخازى والعدو يتربص بهم الدوائر ، فى كل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ولذلك فانه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت لهم هذه المأساة فيما بعد ، وربما كان من أحسن العظات التى أخذها المسلمون من هذه الهزيمة ، وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم اطمئنانهم الى أن الأيام دول . وأنه ليس من الحتم لصاحب الحق أن يكون النصر حليفه دائما أبدا . والحق تحميه العقيدة أكثر مما تحميه القوة ، وأن القوة ليست فى كثرة العدد ، ولا فى وفرة السلاح ، وانما هى فى اتحاد الرأى ، واتحاد الصف . واتحاد الغاية والانقياد الأعمى للقائد . والالتزام بما اجتمعت عليه الكلمة . وهذا هو السر فى أن النظم الحربية دائما أبدا تمجد الطاعة الصياء ، وما يسمى بالتسليم المطلق . ولا سيما فى الميدان وحينما تدور المعركة ، وربما استسأغوا المناقشة للأوامر أو الاعتراض عليها فى بعض الأحيان لكن ذلك انما يكون قبل المعركة ، أما بعدها فلا يجوز بحال من الأحوال . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقول ان المسلمين لم يلتزموا بأوامر القائد الأعلى . ولم يحملوها على القداسة والاحترام ، ولهذا أصابهم ما أصابهم نتيجة المخالفة التى يتحتم على الجندى ألا يرتكبها أو تحدثه نفسه بها . . .

قاتل حمزة

كان خروج المشركين الى اخمد مسجوقا بخوافز كثيرة ، وتصميم أكيد . واستعداد تام لتشمل العار الذي لحق بهم من جراء الهزيمة التي حلت بهم بعد بدر ، ولذلك فانهم تاهبوا لها بكل ما يمكن ان تاهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصرا على الرجال وحدهم . وانما شاركت المرأة الرجل ، وكان الصراع بينها وبينه قويا على هذا الخروج ، فالرجال يرون ان الميدان لهم ، والحرب تبعة يتحملونها . ومن العيب ان تحمل المرأة السلاح الا اذا فنى الرجال ولم يبق من يذود عن العرض ، ويأخذ بالثار ، ويذب عن الحمى ، ويدافع عن الحریم والمرأة تريد ان تشفى غليلها ، وتثار لقتلاها ، وترى مصارع أعدائها ، وبعد صراع في الرأي . ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع . وهواطفها المشبوبة ، وفؤادها الملتاع . خرجت هند بنت عتبة ، ومعها عدد من النساء لا يقل عن خمس عشرة ، وخملن معهن صنما على جبل ليبارك نواياهن ، ويجعل التوفيق مقترنا بسعيهن . ويكون النصر لهن على العدو . وكان هؤلاء النسوة ومعهن هند يرددن الأناشيد الخماسية التي تلهب في قلوب الرجال نيران الاستبسال والاقدام والشجاعة والفداء ، حتى لا يتردد أحد في اقدامه وكره . واغارته على العدو اشارة تزلزل كيانه واذا كان لكل واحدة منهن ثار تطلبه ، فان هند وحدها كان لها اكثر من ثار ، لانها كانت تندب اباها واخاها وعمها ، ولهذا كانت اكثر النساء الحاحا في الخروج الى المعركة . مع العلم بانها لم تكن من السوقة ، ولا النساء اللائى ينطلى عليهن التبذل ، والاختلاط بالرجال في ميدان كروفر الا ان المصائب لا قانون لها . ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها ، أو يوجه خط سيرها . لذلك كان خروج من خرج منهن الى ميدان المعركة في

أجد خارجاً عن القانون ، مغايراً للمألوف الذى تعارف الناس عليه . .
وقد ساعدت هذه الى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على
فتى مفتول الذراعين ، حديد النظر ، جرىء القلب ، غير هيب ولا جبان ،
طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ بالثأر الذى يشفى غليلها ، ويروى ظمأها ،
ويمسح دموعها ، ويريح نفسها ، وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى
« وحشى » عبد جبير بن مطعم بن عدى . وهو فارس لا تخطيء ضربته ،
ولا يخيب قصده ، ولا ينبو سيفه ، ولا ينجو منه طالبه ، وقد اطمأنت
كل الاطمئنان لأنه وعدها أن يشفى غليلها . ويقتل عدوها اللدود حمزة
ابن عبد المطلب ، وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده جبير بن مطعم
أن يعتقه ان هو قتل حمزة ، وعلى هذا فان وحشيا الحبشى يهزه الى
الحرب ويفريه بقتل حمزة عاملان قويان ، المال الذى وعدت به هند ،
والعتق الذى وعده به سيده .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته نقف وقوفاً قصيراً عند
حمزة الذى تحاك له هذه المؤامرات كلها لنرى هل كان يستحق من
خصومه كل هذا الاهتمام . وتلك العناية . . وفى الحق أنه لم يكن مجرد
إنسان فى صفوف محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو عمه أولاً وقبل
كل شيء يفار على دينه . ويدافع عنه ، ويحارب خصومه ، ويرد عنه كيد
عدوه . وهو الى جانب هذا من أصحاب القلوب النقية . التى كانت
تحيطه بالود . وتخصه بالرعاية والعناية ، وكان منذ نشأته ملازماً
للرسول صلى الله عليه وسلم لا يفارقه الا على نية أن يعود اليه ، وكان
مع هذا من الفرسان المغاوير الذين تهتز لموتهم الجبهة الاسلامية كلها ،
ويحدث خلوها منه اهتزازاً يتصدع له جدار الدعوة ، والتركيـز على اخفاء
وجهه من الميدان الى جانب كونه ايلاماً بالغاً لمحمد ثغرة واسعة . وفجوة
فسيحة فى الصف الثرىبى وبخاصة بعد ما تبين بلاؤه فى بدر . وقتله
لرجال قريش الذين كان قتلهم الجرح الذى لا يندمل ، وقد صدق ذلك
فجيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهديده اذا نصره الله على قريش ،
وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلاً فى مقابل المثلة بحمزة وحده ، وكذلك
جاء فى قصة اسلام وحشى الذى طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن
يقص عليه كيف كان قتله لحمزة فلما أنبأه نبأها قال له صلى الله عليه
وسلم هل تستطيع أن توارى وجهك عنى فانى لا أحب أن أراك فى حين
أنه حدثه هذا الحديث بعد أن أسلم والاسلام يجب ما قبله . . . وقد
اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذى يحكيه وحشى عن قتله
لحمزة اذ سأله النبي صلى الله عليه وسلم . كما سأله غيره كذلك « قال
عبد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشيا ، قلت جئناك لتحدثنا عن قتلك

تجيزة كيف قتلته . قال وحشى أما انى سأحدثكما كما حدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألتنى عن ذلك . . . كنت غلاما لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر . فلما سارت قريش الى أحد . قال لى جبير ان قتلتم حمزة عم محمد بعمى فانت عتيق . فخرجت مع الناس - وكنت عبدا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة . قلما أخطيء بها شيئا . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه حسدا ، ما يقوم له شيء ، فوالله انى لأتهيا له أريده وأستتر بشجرة أو حجر ليدنو منى ، اذ تقدمنى اليه سباع بن عبد العزى . فلما رآه حمزة قال له هلم الى يا بن مقطعة البطور ، فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه ، وهزرت حربتي حتى اذا رضيت منها دفعتها عليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وياها حتى مات ، ثم أتيت فأخذت حربتي ، ثم رجعت الى العسكر ففقدت فيه . ولم يكن لى بغيره حاجة ، وانما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أعتقت ، ثم أقمت حتى اذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت الى الطائف فمكثت بها . فلما خرج وفد الطائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا تعيت على المذاهب . فقلت الحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد . فوالله انى لفى ذاك من همى اذ قال لى رجل ويحك انه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه ، وتشهد شهادة الحق ، فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فلم يرعه الا بى قائما على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال أوحشى ؟ قلت نعم يا رسول الله . قال اقعد فحدثنى كيف قتلتم حمزة . فحدثته كما حدثتكما . فلما فرغت من حديثى قال ويحك غيب عنى وجهك فلا أرينك . فكنت أتتكب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لثلا يرانى ، حتى قبضه الله ، فلما خرج المسلمون الى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم ، وأخذت حربتي التى قتلتم بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائما فى يده السيف وما أعرفه ، فتهيات له وتهيا له رجل من الأنصار فضربه بالسيف ، فربك أعلم أينما قتله ، فاذا كنت قتلته . فقد قتلتم خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قتلتم شر الناس .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ، ويتمكن الانحراف من طبعه ، لا يلبث اذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلبا فى الحق . مؤمنا به . مستميتا فيه ، مدافعا عنه ، لا يتزحزح الى غير جانبه ، وفى حرص وحشى أن يرضى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يزيل من نفسه ما كان عالقا بها من الكراهية له - مع كونها كراهية

صورية لا تتعلق بنقص في دينه أو انحراف في عقيدته وإنما هي بشرية في النبي صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يكتسبها ، أو يتغلب عليها - دلالة على أن عقيدته راسخة ، وإيمانه ثابت . وربما كان وحشى نفسه أول المؤمنين بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل له ذلك القول بخس لايمانه ، أو نقصا في دينه ، أو شكاً في عقيدته ، وإنما هو التصوير لكامن اللوعة التي كانت في نفسه صلى الله عليه وسلم من أجل فقد عمه الذي كان الى جانبه يدافع عنه وينصره وكان من حوله يملأ فراغ آلاف الرجال . ومثل حمزة بن عبد المطلب تظهر بموته الفجوة الواسعة ، وحزن النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا الحد ليس بعجيب ولا غريب . . وهذا الموقف الذى وقفه صلى الله عليه وسلم من رجل هو صورة لألسم عانه ، أو مصيبة قاساما . أو عدوان وقع عليه ، ليس سوى معنى البشرية التي لم يتجرد عنها ، والتي كان هو نفسه يعلنها فى أكثر من مناسبة ، والفرق بين بشريته صلى الله عليه وسلم وبشرية الناس أن بشريته لا تنزل به الى مستوى مردول ، أو معنى حقير ، أما أبناء آدم وبنات حواء فان بشريتهم تنزل بهم الى حيز الاسفاف ، وتتعرض للنقد واللوم ، أما هو صلى الله عليه وسلم فان عصمته تصونه عن الصغائر ، وتمنعه من النزول ، وتصوره دائما أبدا فى صورة الكمال .

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبي صلى الله عليه وسلم في نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد أن شعروا أن مقاومتهم للعدو ضرب من العبث • ولون من ألوان الانتحار • ليس من العقل الاستمرار فيه • ولا البقاء عليه ، حتى لقد كاد صموده هو أيضا بعد ذلك يكون من هذا القبيل أيضا ، لأنه بعد انفضاض المسلمين وانصرافهم كان يعرض نفسه للموت من غير ثمن ، ويتصدى للهزيمة بدون جدوى • وقد كان الأجدر به وقد حل بالجيش ما حل به أن يهيء نفسه للفرار كما فعل كثير من الصحابة ابقاء على روحه التي لم يكن ليملكها وحده • ولكنها كانت ملكا للبشرية التي يعمل لها • ويكده لانقاذها ، ويميش ليأخذ بيدها • ويكافح للبهوض بها • وتوجيهها الى مستقبل أفضل ، وحياة أكمل ، وسلوك أمثل • الا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل الرسالة ، أو مسئولية الدعوة الى الله جل وعلا • لا يعنيه أن يكون الى جانبه قوة من الناس تسانده ، وجيش من المحاربين يعاضده ، أم يكون هو وحده • لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف • ولا أن يغلب بالقوة • ولا أن يظهر بالبطش • ولا أن يعلو بالعدد والعدة ••• وهو الذي يعتمد على المنطق • ويدعو الى الحق ، ويقود الانسانية الى التي هي أقوم ، ومثله لا يتقل ميزانه أن ينتصر في معركة ، أو يغلب في جولة ، أو يضطر خصمه معه الى أن ينزل على حكم القوة ، أو ارادة التسلط والنفوذ • لأن هذا هو أسلوب المفلسين من العجبة والبرهان • والصواب والحق •

على أن انصراف خصومه عنه مع هذا النصر الساحق الذي أصابوه كان من المعجزات التي أيده الله بها ، والخوارق التي سخرها له ، فلقد

وقفت له قلة قليلة تناوشه ، ونفر ضئيل يحاربه ، فنال منه بعض الذي يحب ، لا كل الذي يحب ، أما بقية الجيش فانها كانت على يقين من أنه قتل ، وليس هنالك بعد الذي كان ما يدعو الى حرب شاملة ، أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن محمدا لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف ، وخطوا رحالهم وهم في طريقهم الى مكة دون أن يترثثوا وأجمعوا الرأي على أن يأخذوا طريقهم الى يثرب لتأديب محمد ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا في الوقوف في وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها . . .

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يشك في أن الانتصار الذي حصلت عليه قريش ، وبخاصة بعد قول أبي سفيان في نهاية المعركة « يوم بيوم بدر والموعود في بدر أخرى في العام المقبل » سيحملها على التمرد والطغيان والغرور ، وأن ذلك سيسوقها لا محالة الى الطمع في الدخول الى يثرب التي يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المسارة من مكة أو الى مكة بالتجارة ، ولهذا فانه صلى الله عليه وسلم لم يزد أن يظهر بمظهر المقهور الذي خرج من المعركة متخنا بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ، ولكنه أقام في الطريق من غير أن يواصل السير الى المدينة . وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان على بعد سبعة وثلاثين ميلا - بالروحاء - وبعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على محمد وأصحابه القضاء الأخير . . .

وقد أراد صلى الله عليه وسلم ببقائه على الطريق أياما أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقائهم . لم يدب الوهن اليه ، ولم يتسرب اليأس في نفسه . . . وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة وكان ذلك مضافا الى تنكيل محمد باليهود واشاعة الهلع والفرع في نفوس المنافقين عاملا قويا في أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الاسلام . واستعراض عضلاتهم جميعا في مباراة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الاحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » فلما كان الخد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن النبي في المسلمين يطلب العدو ، واستنفرهم لطارذته على ألا يخرج الا من حضر الغزوة ، وخرج المسلمون فوقع في روع أبي سفيان أن أعداءه جاؤا من المدينة بمسد جديد فخاف لقاءهم . وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء ، فمر به معبد الخزاعي وكان قد مر بمحمد ومن معه

فسأله عن شأنهم فأجابه معسداً وكان لا يزال على الشرك ان محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم اشد ما يكونون عليكم حنفاً ، ومنكم للثأر طلباً » على أن أبا سفيان فكر من جانبه فيما يكون لفراره من محمد ، ومن عدم مراجعته اياه بعد انتصاره عليه من الأثر « . أفلا تقول المرء في قريش ما كان يريد أن تقوله في محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجح الى محمد فهزمه المسلمون اذا ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ، فلجأ الى الحيلة فبعث مع ركب من بنى عبد القيس يقصدون المدينة يبلغون محمداً أنه قد أجمع السير اليه والى أصحابه ليستأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة الى محمد بحمراء الأسد لم يتضعع عزمه ، ولم تهن قوته . بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدل قريشا أنه على عزمه . وأنه منتظر رجعتهم وأخيراً فترت همة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع محمد الى المدينة ، وقد استرد كثيرا من مكانته التي تزعزعت على أثر الهزيمة في أحد » .

وفي هذا الموقف الذي وقفه المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد وغيرها لازهاب العدو وتخويفه نزل قوله جل وعلا ثناء عليهم « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل العظيم » ولم يمض عام واحد على أحد حتى كان الموعد الذي هدد به أبو سفيان أن يلقي المسلمين بيدر قد حان فخرج أبو سفيان الى بدر وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك الى أن يخرج وحده ، وكان لهذا التأكيد - أو التهديد - أثره البالغ في حماسة المسلمين واقدامهم ، بعد أن كان فيهم فتور وتردد ، وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بحجة أن العام كان مجدبا . وقال يامعشر قريش انه لا يصلحكم الا عام خصب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، وان عامكم هذا عام جنب فارجعوا ، فرجع الناس . أما المسلمون فانهم قد اتجروا في سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود من قوله جل جلاله « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل » ويقول المؤرخون ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يرجع الى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التي كانت الى بدر الثانية والتي انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل الا وقد صنع من التطهير العام في الطريق ، واشاعة الرعب والفرع في نفوس المتمردين ، ما لم يكن له

أن يصنعه في سنوات ، وكان أبرز هذا الذي صنعه هو جلاء بنى النضير
الذين كانوا مراكز تجمع اليهودية . كلها حينئذ ومنهم كانت تندلع
شرارات الفتنة والمؤمرات ، وكان جلاء بنى قينقاع قد سبق ذلك فأحدث
هذان الجلاءان ذعرا وفزعا في صفوف أعدائه صلى الله عليه وسلم لا نظير
له ، ثم كانت بعد هذه الضربات كلها غزوة الخندق - أو الأحزاب - التي
لم يجن من ورائها المشركون إلا تفكيك أوصالهم ، وضعف قوتهم ، وذهاب
ريحهم ، والقضاء على البقية الباقية من حلفائهم الذين كانوا يعولون عليهم
وهم بنو قريظة ، وبذلك أصبحت قوى الشر التي تقف للدعوة أو تناوي
الرسول صلى الله عليه وسلم عرضة لأن تعصف بها عاصفة يكون فيها
حتفها والقضاء عليها ، وسنرى من مجريات الحوادث فيما بعد أن راية
قريش سوف يعترىها الهبوط والنزول شيئا فشيئا حتى لم يجد حمايتها
والحاملون لها بدا من أن تخضع رقابهم عن طواعية واختيار لمحمد الذي
كانوا يطاردونه ويحاربونه ويبالغون في الكيد له والصد عن سبيله ، ذلك
لأن الحق له الغلبة والفوز . مهما صارعه الباطل ، أو قاومه الغنخيان ،
أو حاربه الشرك ، ولو أن خصومه صلى الله عليه وسلم حكموا المنطق ،
واعتصموا بالعقل ، وتركوا جانبا سفه الرأي ولجاجة الباطل ، لما حاق
بهم هوان الهزيمة ، لكنه سبحانه أراد أن يكونوا عظة للتاريخ ، وعبرة
للأيام ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . .

غزوة بنى المصطلق

منذ غزوة بدر التي قصم الله بها ظهور المشركين ، وزاد في خذلانهم وخزيهم ، وأعلن بها عن مذلتهم واحتقارهم ، والحقد يأكل نفوسهم ، ويشعل النار في أفئدتهم ، ويقض عليهم مضاجعهم ، فلا يهنا لهم حال ، ولا يصفو لهم عيش ، ولا يقر لهم قرار ، مؤمنين أن حياتهم لاقية لها ، مادام محمد والمسلمون معه يرون أن استئصالهم شهادة ، وجهادهم عبادة ، والقضاء عليهم هو الحسنى وزيادة لذلك لم يكن لهم شغل يستنفد أوقاتهم ، أو يحرك وجدانهم ، ويملك عليهم شعورهم ، إلا أن يضعوا حدا لهذا الخطر الذي يقف لهم بالمرصاد ، وذلك الشر الأذى يتحين الفرصة تلو الفرصة لصيرورتهم تاريخا يرويه الرواة ، وكان تفكيرهم في الحرب وخوض غمراتها لا ينتهي ، والمشركون واليهود والمنافقون على السواء في كراهيتهم له صلى الله عليه وسلم والعمل على أن يؤلفوا جبهة واحدة تواجهه ونفضى عليه وتسكت صوته وجاء أن يخلو لهم الجوى ، ويصفو لهم الحال ، وتزول من طريقهم تلك العقبات التي طالما اصطدموا بها ، وكانت لهم حجر عثرة ، واليهود الذين كانوا يتطاولون بخصونهم وأموالهم وثرواتهم قضى عليهم صلى الله عليه وسلم ونفاهم عن مواطنهم وأموالهم ، وكانوا يظنون أن أجدا لا يستطيع أن ينال منهم أو يتطاول عليهم ، أو يجدد لهم المصير الذي يراه ، وهم شعب الله المختار ، وأصحاب كتاب منزل من عند الله كالقرآن الذي يعتمد عليه محمد ويقاخر به ، ولهذا المصير الذي صاروا إليه وكان عليهم ألا تنام أعينهم ، أو تطمئن جنوبهم ، حتى يتأروا لأنفسهم من محمد وأصحابه ، وهم دائما أبدا يؤلبون المشركين على محمد وأصحابه ويعلمون اليهم أنهم معهم عليه ، لأنه العدو المشترك ، ولا تزيد جريهم له على هذه الوعود التي يبذلونها ، وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب

صورة لهذه التحيزة ، الا أنهم استطاعوا أن يجعلوا المشركين فى أيديهم .
كلعبة الصبى التى يحركها فى يده كما يشاء ، وطالما هم المشركون بالخروج
للمسلمين ورد الله كيدهم فى نحورهم لم ينالوا خيرا وكم هزت النخوة
رجالا منهم رجعوا يخفى حنين ، وغزوة بنى المصطلق هذه صورة من هذه
الصور المتكررة لا أكثر ولا أقل ، وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أنهم
يجمعون جموعهم ، ويدبرون أمورهم ، ثم يعسكرون بالمريسيح على ماء
لخزاعة ، لينقضوا عليه هو ومن معه من المسلمين ، وكان ذلك بقيادة
زعيمهم وسيدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرة بنت الحارث التى صارت
فيما بعد زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما انتهى إلى النبى
علم هذا التجمع ، وأخبره المارون من هنالك ، ندب أصحابه للاقائهم ،
وقد استجاب اليه خلق كثير حتى المنافقون ، ولما انتهى أمر ذلك إلى
معسكر الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق ذهل وترقب لنفسه
الخدلان والخزى ، ورجع كثير ممن كانوا معه خوفا على أنفسهم من الموت
أو الوقوع أسرى فى أيدي المسلمين ، الا أن ذلك لم يشنه عن الحرب ،
أو يقلل من عزمه عليها ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم لواء المهاجرين
لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عباد ، ونزل المسلمون قريبا من موقف
المشركين الذى كان بالمريسيح ، وأخذوا يتراشقون بالنبال ، وأمر النبى
أصحابه أن يحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم انسان ، وانما وقعوا
جميعا فى قبضة أيديهم - رجالا ونساء وأطفالا بعد قتل عشرة منهم .
وكان الأسرى أكثر من سبعماية ، والابل ألفين ، والنساء خمسة آلاف ،
ولم يقتل من المسلمين الا رجل واحد على طريق الخطأ حيث ظنه أحد
المسلمين من جيش العدو وقتله ويقول الشيخ الخضرى وكان فى نساء
المشركين برة بنت الحارث بن أبى ضرار - سيد القوم - وقد أخذ قومها
جميعهم أسرى ، وعددهم مايتا بيت وزعت على المسلمين ، وهنا يظهر حسن
سياسة النبى صلى الله عليه وسلم ومنتهى كرمه ، فان بنى المصطلق من
أعز العرب ، وأسر نساءهم بهذه الحال صعب لا يحتملونه ، لذلك رأى
صلى الله عليه وسلم أن يجعل المسلمين يمنون عليهم بالجزية ، وكانت
برة بنت الحارث بن أبى ضرار - جويرة فيما بعد - من نصيب ثابت بن
قيس من الغنائم فكاتبته على نفسها ثم جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ،
وقالت يا رسول الله أنا جويرة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومى ، وقد
أصابنى من البلاء ما لا يخفى عليك ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس
فكاتبته على نفسى وجنتك أستعين بك على هذا المال الذى كاتبته عليه على
أن يكون ذلك المال مهر زواجى منك ، فقال صلى الله عليه وسلم قد فعلت .
ولما علم المسلمون بهذا الزواج فكوا أسارى الذين كانوا بأيديهم

وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يكونوا أسرى في أيدينا ، ودخل بنو المصطلق جميعا في الاسلام ، غير أن هذا النصر الباهر لم يخل من تنغيص يحيط به ، وفتن تلاحقه ، وهفوات تأتي بعده ، إذ بينا الناس على هذا الماء الذي كان عنده التراشق والتلاقي ، اختصم غلام لعمر بن الخطاب من بني غفار مع سنان بن وبر الجهني جليف بني عوف من الخزرج ، وتصايح المتخاصمان ، غلام عمر يدعو المهاجرين ، والجهني يدعو الأنصار ، وكاد الفريقان يقتتلان ، لولا أن ذلك قد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فتداركه بحكمته ، وقال دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة ، أما عبد الله بن أبي بن سلول فإنه أراد أن يتتهزها فرصة يجب فيها ويضع لئير الفتنة ، ويوقظ الاحنة ، وينفخ في الرماد ، فقال ما رأيت كاليوم مذلة ، أو قد فعلوها ، نافرنا في ديارنا ، والله مانحن مع المهاجرين الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم التفت الى من كان معه ، وقال هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا عنكم الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتتمت أولادكم ، وقللتهم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده ٥٠ وكان على مقربة من عبد الله بن أبي شهاب مسلم حديث السنن قوى الاسلام ، هو زيد بن الأرقم فذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بما تفوه به هذا المنافق ، وما أرسله من القول دون ما مبالاة ولا حذر ، فتغير وجهه صلى الله عليه وسلم ، وقال يا غلام لعلك قد غضبت عليه فتقولت قولا لم يحدث ، فقال والله يارسول الله لقد سمعته ، قال النبي لعله أخطأ سمعك ، وهنا قال عمر يارسول الله مرني أو مر أي أحد لقتل هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل ، والحر شديد ، والسفر شاق ، ليقطع على الناس أمر الاشتغال بهذه الفتنة والخوض فيها ، وجاء أسيد بن حضير ، وقال له ما الذي دعاك يارسول الله ، أن ترتحل في هذا الوقت الشديد الحرارة ، فقال له أو ما بلغك ما يقول صاحبكم ، زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال أنت والله يارسول الله تخرجه ان شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وكان مسلما صادق الايمان ليقول للنبي صلى الله عليه وسلم مرني يارسول الله أن أقتل أبي حتى لا تأمرني النفس الأمانة بالسوء أن أقتل قاتله ، فأكون قد قتلت مسلما في كافر ، وأذهب بذلك الى جهنم ، ويرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا

لا تقتله ولا تقتله مادام بينتسا ، وينتهي ذلك كله الى ابن ابي فيجيء الى النبي صلى الله عليه وآله لينفى عن نفسه ذلك الخبر ، ويخالف بالله العلي العظيم ثم يصدر عنه شيء من ذلك ، وهنا تفضحه سورة المنافقين ، وفيها قوله سبحانه « هم الذين يقولون لا ننفقوا على من عند رسول الله حتى ينقضوا ولكم خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لمن رجعتنا الى المدينة ليخرجننا الأعداء منها الأذل والله العزة والرسول له والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وبهذا كله احتقره قومه ، وازدراه أصصحابه ، وكانوا لا يستجيبون له ، واطمأنوا الى أنه يمثل رواية مفصولة ، تزرى به وتجعله أحقر من لاشيء في العاد .

حديث الافك

كانت غزوة « المريسيع » أو بنى المصطلق إحدى العمليات الخيرية التي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائها أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة أحد لم تثبت في عضده ، ولم تضعف من شوكته ، ولم تهز عموده ، لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ، ويهربون بأسه ، لا يزالون يعملون من طريق الإشاعات المغرضة على تشويه سمعته ، وتلفيق الأكاذيب له ، وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان ، لتكون هذه الحرب النفسية تقويضا لبنائه الضخم ، وتلويشا لتاريخه الناصح ، وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة أن يصلوا إلى غرضهم المشؤم ، وأملهم المطلوب ، من أيسر الطرق ، وأهون الأساليب ، حينما انقطعت عائشة رضي الله تعالى عنها عن الركب لداع ضروري ، وقد أركبها راحلته رجل كان هو قد تأخر عن الركب كما تأخرت هي ، وكان هذا ذريعة للافاضة في حديث غير كريم ، والخوض في عرض لم تدنسه ربيعة ، ولم يكدر صفوه غبار ، وهكذا تتيقظ الفتنة ، وتمشى برجليها المحس ، ويقع الناس في حيص بيص .

والقصة - كما تروىها صاحبته - « عن عائشة رضي الله عنها . . . قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فأقرع بيننا في غزاة غزاها . فخرج سهمي فخرجت معه بعد ما أنزل الله الأمر بالحجاب ، فأنا أحمل في هودج ، وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة ، أذن ليلة بالرحيل ، فقمنا حين آذنوا ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت

شأنى أقبلت الى الرحل فلمست صدرى ، فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع . فرجعت فالتمست عقلى ، فحبسنى ابتغاؤه ، فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحله على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء اذا ذاك خفافا ، لم يثقلن . ولم يشهن اللحم ، وانما يأكلن العلقة - القليل - من الطعام . فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقلى بعد ما استمر الجيش ، فجننت منزلهم وليس فيه أحد ، فأمتت منزلى الذى كنت فيه ، وطننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون الى ، فبينما أنا جالسة غلبتنى عيناي فتمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم ، فاتانى وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء يدها فركبتها ، فانطلق بقود بى الى رحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك وكان الذى تولى الافك « عبد الله بن أبي بن سلول » فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك .

ويربىنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض . . . انما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم ؟ لا أشعر بشئ من ذلك حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع - متبرزنا - لا نخرج الا ليلا الى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية ، أو فى التنزه ، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبى رهم نمشى ، فقثرت فى مرطها ، فقالت تعس مسطح ، فقلت لها بئسما قلت ، أتسبين رجلا شهيد بدرأ ؟ فقالت يا هنتاه . . . ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتني بقول أهل الافك . . . فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت الى بيتى دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال كيف تيكم ؟ فقلت اتدن لى الى أبوى . . . قالت وأنا أريد حينئذ أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوى فقلت لأمى ما يتحدث الناس به . . . فقالت يا بنية هونى على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ، فقلت سسبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدعا - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، حين استلبت الوحي يستشيريهما فى قرآن أهله ، فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم ، فقال أسامة أهلك يا رسول الله ، ولا تعلم الا خيرا . . . وأما على فقال يا رسول الله

لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير . وسل الجارية تصدقك .
فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بريره . . فقال يا بريرة . .
هل رأيت فيها شبيها يريبك ، فقالت بريرة لا والذي بعثك بالحق .
ما رأيت منها أمرا أعصه عليها - أي أعيبه - قط أكثر من أنها جارية
حديثة السن تنام عن العجيز فتأتي الداجن فتأكله ، فقال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي . فوالله
ما علمت على أهلي الا خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا
وما كان يدخل على أهلي الا معي . فقال سعد بن معاذ يا رسول الله ،
أنا والله أعذرك منه ، ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من اخواننا
من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقال سعد بن عبادة وهو سيد
الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال
كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد بن الحضير . فقال
كذبت لعمر الله ، لنقتله ، فانك منافق تجادل عن المنافقين . فنار الحيان
الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر .
فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ،
ولا أكتحل بنوم . . فأصبح عندى أبوإى وقد بكيت ليلتين ويوما حتى
أظن أن البكاء فالى كبدى . . قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى،
اذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى . فبينما نحن
كذلك اذ دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس ولم يجلس
عندى من يوم قبيل لى ما قبيل قبلها . . وقد مكث شهرا لا يوحى اليه فى
شأنى بشىء . . قالت فتشهد ثم قال يا عائشة لقد بلغنى عنك كذا وكذا ،
فان كنت بريئة فسيبرك الله ، وان كنت أملت بذنب فاستغفرى الله
وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه . . فلما قضى
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص - انقطع - دمعى حتى
ما أحس منه قطرة . وقلت لأبى أجب عنى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقلت لأمى أجيبي عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال قالت
والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالت وأنا
جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن . . فقلت والله لقد علمت
أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس . ووقر فى أنفسكم وصدقتم به . .
ولئن قلت لكم انى بريئة والله يعلم انى لبريئة لاتصدقونى بذلك ، ولئن
اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى لبريئة لتصدقنى ، والله ما أجد لى ولكم
مثلا الا أبا يوسف اذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . .
ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله . ولكن والله ما ظننت

أن الله ينزل في شأنى وخيا يتلى ، وأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم بالقرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات . . . فلما شرى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يضحك . فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى يا عائشة أحمدي الله فقد براك الله . . . فقالت لى أمى . . . قومي الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمده إلا الله . فأنزل الله عز وجل « ان الذين جاؤا بالافك عصبية منكم الآيات » فلما أنزل الله عز وجل هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه « والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة » فأنزل الله عز وجل « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى . . . الى قوله والله غفور رحيم » فقال أبو بكر بلى والله انى لأحب أن يفر الله لى ، فرجع الى مسطح الذى كان يجرى عليه . . . وكان رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم - سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقالت يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى . والله ما علمت عليها الا خيرا . . . قالت وهى التى كانت تسامينى . . . فعصمها الله بالورع » .

وفى هذه القصة عظات وعبر لا تخفى على ذهن اللبيب الأريب . . . منها أن الشدايد كانت تلاحقه صلى الله عليه وسلم فى كل خطوات دعوته الى الله سبحانه وتعالى فى نفسه وفى أهله كذلك ، وفى سبيل اعلان هذه الدعوة وابلغها الى الناس ، ومع ذلك كله فانها لم تستطع أن تثنى عزمه ، أو تصرف جهده ، أو تعوق خطوه ، أو تشيع اليأس فى نفسه ، أو تنال من ثقته فى ربه ، أو ايمانه به ، أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ماض فيه ومنها - كذلك - ان مع العسر يسرا - كما يقول الله سبحانه وتعالى . فان عائشة رضى الله عنها لما شهدت لها السماء ، وبرأها الوحي . ونوهت بها الآيات ، صار الايمان بطهرها عقيدة يؤمن بها المسلم ، ورميها بالزنا كفرا - والعياذ بالله - « ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين » .

ومنها أن المولى جل وعلا لا يتخلى عن أوليائه فى أخرج الأوقات ، وأحلك الظروف ، مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم ، وعناصر الشير تحاربهم . والخصوم يكيدون لهم . . . وقد كان مسطح الذى روج لهذه

الفتنة ، وعبد الله بن أبي الذي تولى كبره ، ومن أخذوا عنهما هذا البيهتان يظنون أنهم أصابوا من محمد صلى الله عليه وسلم مقتلا ، أو كشفوا فيه ناحية ضعف ، ولكن الله الذي يحيطه بعنايته ، ويرعاه بعين رعايته ، كان بجانبه يدافع عنه ، ورد الله الذين كفروا بغيتهم لم ينالوا خيرا « ان الذين جاؤا بالافك عصبية منكم لا تحسبوه سرا لكم بل هو خير لكم » ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة رضى الله عنها أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب ، بنزاهة عرضها • وطهارة ساحتها ، وشرف قدرها ، وعلو منزلتها ، لما كان منهم الا الخرس • ولكنهم الحمق الذي جعلهم كالساعي لحثفه بظلفه ، فقد باؤا بالخزى الأبدى •

ومنها – وهى أهم من ذلك كله وأعظم – أن الذى يهتم بكشف الأستار ، وافتضاح الاعراض ، يتخبط فى منطقته ، ويلتوى فى سيره ، ولا يبالي أن تمشى به رجله الى حتفه ، وتنتهى به الى خاتمة لا يرضاها • وغاية لا يحمدها ، أم انها ستصل به الى شاطئ الأمان ، وموطن السلامة والعافية ، فان هذا الرجل الذى اهتم به مروجو هذه القالة • وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ، ظهر من مجريات الحوادث والأمور – فيما بعد – أن اسناد دور البطولة اليه فى هذه الخرافة الملفقة ، أو الفرية المصنوعة ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترب به الصواب والسداد ، لأنه رجل عزهاة ، كما تقول كتب المعاجم لا يرغب فى النساء ، ولا يتوق اليهن ، لأنه يفقد الفحولة ، ولا يمكن أن يحن الى المرأة أو يطلبها • • ولذلك فان عبد الله ابن أبى وهو المقصود بقوله تعالى « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الافك حتى راح يؤلب النفوس ، ويشير القلوب ، ويقدم للفتنة وقودا آخر وآخر مصورا ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حزازات ساخنة ، واحن حامية • وحقد لايمكن أن يفارقه ، ولكنه يمل عليه ألوانا من الكيد ، وأنواعا من الايلام ، يظن أنها تشفى صدره ، أو تسكن لوعته ، فلما أفرغ جعبته لم يجد ما تبقى له الا ما يحكيه عنه سبحانه « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا الى المدينة نخرجن الأعرز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وهكذا عاش هذا الرجل حربا على نفسه التى كان يأكلها الحقد ، ومع ذلك كان يرجو أن يضعوا له التساج فوق مفرقه ، وغاب عنه أن الحقود لايسود الا فى غفلة الزمن وفي وسط الغوغاء •

غزوة الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجاهبات الكثيرة التي كانت بين المشركين والمسلمين ،
والذعر الذي بدأ يدب في قلوب خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من
مواقف البطولة التي كانوا يرونها غير مرة من أصحابه رضوان الله
عليهم . فان العداوة التي كانت باقية في سلوكهم معه ، وتوايهم نحوه ،
لم تكن لتنتقط بوادرها ، أو تخفى ظواهرها ، أو تنتهي نتائجها المتكررة
فى كل يوم ، وفى كل مناسبة . . . وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه
هى أبرز تلك المسرحيات التي تجلى فيها بشكل واضح تيقظ مؤامراتهم
بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له ، حين
تيقظت خصومتهم المتمثلة فى تحركاتهم المريبة هنا وهناك لحشد الجيوش ،
واتخاذ العدة ، واشعال نيران الحرب ، واعلان النفير العام ، على هذا الذى
جعل الآلهة الها واحدا ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الحضرى « لم يقر
لعظماؤنا بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وارث المسلمين لها ،
بل كان فى نفوسهم دائما أبدا أن يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا بلادهم ،
فذهب جمع منهم الى مكة . وقابلوا رؤساء قريش . وحرصوهم على حرب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنوهم بالمساعدة ، فوجدوا منهم قبولا
لما طلبوه ، ثم جاؤا الى قبيلة غطفان وحرصوا رجالها كذلك ، وأخبروهم
بمبايعة قريش لهم على الحرب ، فوجدوا منهم ارتياحا ، فتجهزت قريش
وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة
العبدرى ، وعددهم أربعة آلاف ، وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن
الذى جازى احسان الرسول اليه كفرا ، فانه أقطع أرضا يرعى فيها
سوائمه ، حتى اذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم

عليه ، وكان معه ألف فارس ٠٠ وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المري ، وهم أربعمائة ٠٠ وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رخیلة ٠٠ وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة ٠٠ وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان ٠٠ ولما بلغه صلى الله عليه وسلم أخبار تلك التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع ، أيمكت في المدينة ، أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار خارجها ٠٠ وقد أشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق ، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه ، فأمر صلى الله عليه وسلم المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمال المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية ، وهذه هي الجهة التي كانت عورة يمكن أن توثى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو منها ، ولا يمكن أن يحارب من جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الأستاذ أحمد الشريف في الاعداد الذي سبق غزوة الأحزاب هذه « اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين في يشرب في نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا الى خيبر بعد اجلائهم عن المدينة وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ٠ وفي سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أو مكر أو مال ٠٠ وتنفيذا لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حيمي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق وأخوه كنانة ، ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش مكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التي تحمل لواء المعارضة ، ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهي التي بينتها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته ٠٠ لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب ، وبدأت جبهتها الداخلية تتضعف ، وأخذ الحصار الاقتصادي يؤثر فيها تأثيرا كبيرا ، جعلها تفكر في إعادة النظر في موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التي نشأت في يشرب وأخذت عليها طرق تجارتها ، وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والتمو ، لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف الا على الدعوة التي يدعو بها ، وليس بعيدا أن يكون على حق ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسنموا ٠٠ وأزادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسالت حبيبا عن قومه من بنى النضير فقال تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحابه ، وسألوه عن بنى قريضة فقال أقاموا بالمدينة مكررا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ٠٠ ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعدا بعد

أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب . . . بلغت
أبناء هذه المسيرة محمدا والمسلمين معه في المدينة ففزعوا وقد رمتهم العرب
كلها عن قوس واحدة ، وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد ولم تكن
في أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون لمقابلة هذه القوة التي تبلغ
أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ، لم يكن من سبيل سوى التحصن
بالمدينة ، ولكن هل يكفي التحصن أمام هذه القوة الساحقة . ثم ان النبي
صلى الله عليه وسلم لا يريد المغامرة ، وليست البطولة هي التي يحرص
عليها ، فالحرب عنده وسيلة لا غاية ، وهو وان كان سريع النهضة لضرب
العدو ، دقيق التنظيم ، ماهرا في القيادة ، فانه ليس على مثال قواد
الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربي ، وإنما هو نبي يريد
سيادة مبدأ ، وتحقيق رسالة ، ويحرص على السلم مادام له عن القتال
مندوحة . . . وقد أقبلت قريش وأحزابها وهي ترجو يوما كيوم أحد ،
ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها في ساحة مكشوفة مثل يوم أحد ،
وإنما ووجهت بتنظيم جديد ، وفاجأها الخندق ، فأخذها الحجب ،
اذ لم تكن تتوقع مثل هذا التسرع من الدفاع المجهول . وكان الوقت
شتاء ، والجو باردا ، والرياح شديدة ، وأدركت قريش وأحزابها أنهم
مقيمون أمام الخندق طويلا ، يتعرضون لهذا الجو القاسي الذي تعجز
خيامهم عن حمايتهم منه ، ومحمد وأصحابه مجتمعون بخندقهم ، ولديهم
الميرة ، ومساكنهم وراءهم . فهم يستطيعون الصبر طويلا . . . أفليس
الخبر للأحزاب أن يعودوا أدراجهم . . . لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد
مرة أخرى ليس بالأمر الهين ، قدر اليهود هذا كله ، وخاف حبي بن
أخطب مغبته ، فقال لزعماء الأحزاب انه سيقنع بني قريظة بنقض عهدهم
مع محمد والانضمام اليهم ، ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه
الميرة ، وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب ، وسرت قريش بما تعهد به
حبي ، وسارع هو الى تنفيذ خطته . فأقنع زعيم بني قريظة كعب بن أسد
بذلك ، وما زال به حتى ثارت يهوديته ، وأعلن نقضه للعهد ، وعاد حبي
يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم
بذلك فبعث سعد بن معاذ سيده الأوس وسعد بن عباد سيده الخزرج
وعبد الله بن رواحة وخواتا بن جبير ليقفوا على جليلة الأمر . ولينحازلوا
رد اليهود ان كانوا قد فكروا في الخيانة . . . وهناك طلب زعيمهم
كعب بن أسد أن يردوا اخوانهم من بني النضير الى ديارهم ان كانوا يريدون
منهم أن يلزموا موقفهم الأول ، وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول
عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببني النضير ، لكنهم لم يقنعوا ،
وقال كعب من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ، واشتدت المناقشة .

وكاد الفريقان يتشاثمان ، ورجع رسل محمد اليه ، واشتد البلاء ،
 وعظم الخوف ، ورأى المسلمون طريق بنى قريظة وقد فتح للأحزاب ،
 ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو ، فان الحيلة اذن خير ما يلجأ
 اليه القائد البصير في مثل هذا الموقف . . . لذلك بعث النبي صلى الله عليه
 وسلم الى غطفان يعدها بثلاث ثمار المدينة ان هي ارتحلت ، ولما لم يكن
 لغطفان هدف الا المال فقد بدأت تميل الى هذا العرض ، ثم انه أرسل
 نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثا ولم يعلم الناس باسلامه ، وكان
 صديقا لقريش ، كما كان صديقا لليهود ، ليصل بالحيلة الى تفتيت
 وحدة الأحزاب ، وكان داهية ذكيا . فأفهم اليهود أن غطفان وقريش
 لا تطيقان البقاء ، وربما انسجبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمدا
 وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم
 يكونون بأيديهم ضمانا لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصير . . . وقال
 لقريش ان بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجلا باسم
 رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها . . . فلما طلبت قريش ، الأحزاب
 من بنى قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن ، وعندئذ تأكد
 لأبى سفيان أنهم سيغدرون ، وعرض أمر الهجوم السريع على غطفان
 فترددت . فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيرا ،
 وقصف الرعد ، واشتدت العاصفة بما لم ير له مثل من قبل . . . حتى
 امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب ، وخيل اليهم أن محمدا سوف يستغل
 هذه الفرصة فيهاجمهم ويوقع بهم . فقام طليحة بن خويلد الأسدي
 وصاح ان محمدا قد بدأكم بشر . فالنجاء النجاء ، وكان أبو سفيان أول
 من أجاب النداء . ولبي داعى الفرار ، وصاح بقريش اني مرتحل أيها
 الناس فان تحلوا فقله نقضت قريظة عهدا ، وبدأكم محمد بشر
 ما تكرهون . وهكذا هزم الله الأحزاب . وكفى المسلمين القتال . . . وفي
 هذه الغزوة - كما رأينا - لم يكن عدد المسلمين مشجعا على الوقوف في
 وجه الأحزاب الذين جاؤا للأجهاز عليهم ، واسكات صوتهم ، وتفريق
 شيلهم ، وتنكيس رايتهم الى الأبد ، حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة
 الجديدة - في يثرب - وهناك تمر قوافلهم التجارية . وهم يخشون
 الخشية كلها من تعرضها لها . وعدوانها عليها ، الا أن المسلمين مع هذه
 القلة كان في قلوبهم ايمان ، وبين جوانحهم عقيدة ، نماها لديهم . وأكدها
 في نفوسهم ، تلك الثقة التي لا حد لها في نصر الله لهم ، والتي كان
 الرسول صلى الله عليه وسلم يعلنها اليهم ، ويبشرهم بها . ويؤكد لهم أن
 الله سبحانه وتعالى قد وعده بها ، ولا يخلف الله وعده ، ونحن نستطيع
 أن ندرك - من غير شك - أن الرسول صلى الله عليه وسلم أثبت بما لا ريب

فيه أنه قائد حربي محنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدد الضخم الذي حشده عدوه ، وواجهه به خصومه ، وتبين ذلك واضحا كل الوضوح في أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذي استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبين بنى قريظة الى درجة أن فكرت قريش ممثلة في القائد العام أبي سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذي أحرزته في أحد . وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التي صادفتها من البقاء الطويل ، وقيام العواصف التي اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب .

وثاني هذين الأمرين تلك المبارزة التي أراد مقتحمو الخندق أن يشيعوا بها الرعب في نفوس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنها لم تحقق غرضها ، وكان علي بن أبي طالب رضى الله عنه صاحب الفضل في أنها خيبت ظنونهم ، إذ تقدم عمرو بن ود في صلف للمبارزة وتقدم علي فقتله ، وكانت هذه هي الضربة الأولى والفضل في الحروب دائما أبدا للضربة الأولى ، وبهذا فهم خصوم محمد أنه صار قوة يحسب حسابها .

قصة زينب

لم تقتصر مؤامرات المشركين • ودسائس المنافقين ، في الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم ، على الحروب الميدانية التي أثاروا عجاجتها ، ورسموا خطوطها ، وأشعلوا نيرانها ، وأراقوا فيها دماء غزيرة ، ولكن هذا الكيد كان يمتد الى أقصى الغايات والأبعاد ، فيتناول العرض والشرف • والسلوك والعادات ، والطباع والأخلاق ، وأمهاات المؤمنين اللائي كن أظهر من ماء السماء ، وأتقى من حبات الندى حين يشرق عليها ضوء الصبح ، وبياض النهار ، ونور الشمس في يوم من أيام الصحو ، وكأنما هو مخطط اجرامى قد رسمت له حدوده وغاياته . وأعدت لتنفيذه الأوقات الملائمة ، أو الظروف المناسبة ، فقد كانت تتناول الرسول صلى الله عليه وسلم اذا دعت الضرورة الى ذلك • فيتهم بالسحر والكهانة ، والشعر أو الجنون ، أو أن ما ينزل به جبريل عليه من ربه جل جلاله أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه ، حتى اذا ما تبين لهم تفاقه ما يقولون ، وكذب ما يدعون ، وخرافة ما يتوهمون ، حاولوا أن يتخذوا لهم ميدانا آخر لهجوم ، ومناسبة ثانية أو ثالثة للطعن واللمز ، والتشويه والتشنيع • وقد كان زواجة صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث القذر ، والانتهاش المفضوح ، والزراية المكشوفة ، والغمز الساقط ، وفي كل مناسبة من المناسبات التي تأخذ الأحاديث طريقها الى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى ، والمستشرقون في العصر الحديث توارثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به من الطعن واللمز ، واختلاق العيوب والمزاعم • وجعلوا من قصة زينب بنت جحش واحدة من هذه المفتريات التي أخذوا على عاتقهم استخدامها في التجريح للرسول صلى الله عليه وسلم وابرازه

للناس فى صورة الانسان الأنانى الذى لا يعنيه ، غير نفسه يشبع شهوتها ويلبى رغبتها ، ويستجيب لنزوعها وميولها ، أو الرجل البوهيمى الذى ينسى عقله ورشده ، وتفكيره وخلقه ، ومنطقه وأدبه ، وعرضه ودينه ، لينزل على ارادة الغريزة والطبع ، والهوى والميل ، متناسيا الأعراف والتقاليد ، والدساتير والنظم ، والقصة هكذا - كما يرويه المؤرخ الشيخ الخضرى - « وفى العام السادس الهجرى كانت غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق . . . وقد تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها لذلك لمكانتها من الشرف - الذى لم يتناول اليه زيد - فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ، ويعتقدون ألا كفء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف . فلما نزل قول تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » لم يروا بدا من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرتته من كبرياتها وعظمتها ما لم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمره باحتمالها والصبر عليها الى أن ضاقت نفسه . فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك . . . ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العيب ، أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسما للنزاع من جهة . وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشى من لوم اليهود والعرب عليه ذى زواجه بزواج ابنه ، فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله . وأخفى فى نفسه ما أبداه الله ، فبنت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزواج من زوجة المتبنى « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أديعتهم اذا قضوا منهن وطرا » ومن هنا الحين صار اسم زيد « زيد بن حارثة » بذل زيد بن محمد . . . ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالا لا تجوز الا على من ضاع رشده ، ولم يفقده حقيقة ما يقول ، فانهم يذكرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت ثوبها فأظهرت بعض جسمها فوقع فى قلبه فقال سبحان الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها . فتوجه وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بعزمه على ذلك فنهاه عن ذلك . . . ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته ، وقد أسلمت قديما ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على

اسلامها عشر سنوات وهو الذى زوجها زيदा ، فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو . ولا مانع يمنع من ذلك ، ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه انه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » ثم هو يدخل بعد ذلك بيتا لرجل من متبعيه وينظر الى زوجته ثم يشتهدى زوجها ، ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه ، فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عن الدنيا . . .

أما الدكتور هيكل فانه يقول « يكفى لهدم هذه القصة من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب - عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأنها رببت بعينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى ، وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مقاتن أم لا قبل أن تتزوج زيदा ، وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة الى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها لزيد مولام . . . اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والاقاصيص من أنه من بيت زيد ولم يكن هو فيه ، ورأى زينب فبهره حسنها وقال سبحان الله مقلب القلوب ، أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة . . . ولو أن شيئا من جها علق بقلبه لخطبها لنفسه لا لزيد ، ويثبت التاريخ أيضا أن محمدا خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية ، وهى مع ذلك ابنة عمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون تحت عبد رقيق اشتترته خديجة ثم أعتقه محمد ، ورأى فى ذلك على زينب عارا كبيرا ، وكان ذلك عارا كبيرا عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وان أعتقوا . . . لكن محمدا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها . وأن يدرك الناس جميعا أنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتل هذا الخروج على تقاليد العرب ، وهذا الهدم لعاداتها ، مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنهما ، مما تخشى سماعه ، وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها . فيكون مستعدا للتضحية التى أعدها الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب الى زوجها لم يسلس قيادها ولا لان أبؤها ، واشتكتى زيد الى النبى ذلك وطلب طلاقها . وقال له النبى أمسك عليك زوجك ، الا أن زيदा لم يطق فطلقها . . . وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يبطل ماكانت تدنين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابهم ، ومن

اعطاء الدعوى جميع حقوق الابن . . . ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا .
ومن من العرب يستطيعه ، وينقض به تقاليد الأجيال السابقة ، از محمدا
نفسه على قوة عزيمته ، وعميق ادراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على
نفسه من الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم ، بأن يتزوج زينب بعد تطبيق
زيد أياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة
القديمة المتأصلة فى النفوس ، لكن محمدا كان قدوة فى كل ما أمر الله به ،
وما طلب منه أن يبلغ رسالته ، فليخش ما يقوله الناس . فذلك لاشئ الى
جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، ولينزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل
الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء . هذه رواية التاريخ
وفى كتب المستشرقين اسفاف كثير من هذه الناحية لا نحب أن نقله
ولا أن نسترسبل معه ولكننا نود أن نقول انه كلام يتجافى كل المجافة
مع الحقائق المقررة عن عفته صلى الله عليه وسلم وزهده وطهارته وعصمته
وماضيه الناصع وسيرته العطرة التى تسامت عن المستوى الترابى الحقيق
الذى ينزل الناس اليه حينما تتدلى بهم الحيوانية الطائشة . والبهيمية
النازلة ، فلا يعتيهم شئ وراء شهوة البطن والفرج . . . ونحن نعلم أنه
صلى الله عليه وسلم مرت به فترة الشسباب وهو أكمل ما يكون قوة ،
وأضيق ما يكون حيوية ، وأقصى ما يكون جنسا ، وأعظم ما يكون فراغا ،
ثم لم يعرف عنه هذا الميل الذى يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ،
ويبحث عنها ، وينسى فى سبيلها كرامته وخلقه ، شأن أولئك الذين كانت
المرأة تقودهم . وتتحكم فيهم ، وتطفئ على سلوكهم ، وتملك عليهم كل
شعورهم . . . ولقد طلبته خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره
وهى فى الأربعين ، وسعت اليه دون أن يسعى اليها . . . وفى الوقت الذى
جرت فيه حوادث قصة زينب لم يكن فى فراغ جنسى حتى يتصور العقل
أن يكون عنده هذا الشبق الأهوج ، أو الميل الأحمق فقد كانت تحتة
حفصة الشابة الجميلة فى الثمان عشرة من عمرها ، وعائشة الصغيرة
الغريرة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها ، فأى شئ كانت تزیده زينب
التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة ، وهى مع
ذلك كله ابنة عمته . . . لم يبق بعد ذلك كله الا أن تكون المسألة منهجا
سماويا خاصا أراد به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد ،
ولا يكون شاقا على الناس . ولا يمثل قصته على خشية المسرح الا اشخاص
لا يدخل فى روع المجتمع أبهم من السوقة أو ممن لا يصح أن تكون لهم
قيادة الجماعة الانسانية التى يعيشون معها ، ولو أن أصحاب هذا الدور
التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالا بالمجتمع من سلوك الى سلوك
كانوا غير الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة مولاه وصبيفة

وموضع سره وثقته وزينب ابنة عمته لكان لهذه الثورة على هذا الوضع
البيغض شأن آخر في ارتياح الناس لها ، وقبولهم اياها ، وتركهم لها ،
واقلاعهم عنها ، ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزما في الأسلوب ،
وحكمة في التشريع ، وصوابا لا يعدله صواب ، ولهذا فانه لم يثبت أن
أحدا قد غضب من أجل أن تنجل منه هذه البثوة المزورة ، أو هذا النسب
اللصيق ، أو هذه الوشيحة المكذوبة ، وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح
كل الارتياح « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
النبیین » الا أن الخصومة حين تخرج عن طور العقل ، وأسلوب المنطق ،
وسنن الصواب ، تتجاوز معايير السداد والحكمة ، والذوق والأدب والحق
والواجب ، والعدل والانصاف ، وتجعل صاحبها عرضة لزيارة الناس له ،
وعتبههم عليه ، ورميهم له بكل نقيصة . ولهذا كان على العاقل أن يحاسب
نفسه قبل أن يحاسب غيره .

الحديبية والرضوان

الى هنا كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكانت قريش الى هذه اللحظة قد أنهكتها الحروب ، وقلمت أظافيرها الهزائم التي لحقت بها ، فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمدا الا الحقد الذي تغلى به مراحلهما . وتناجح به جوانحها ، ونوايا الشر التي تخفيها في ضمائرها ، حتى لقد جلس أبو سفيان يوما ما من الأيام في نادي قومه والغيط يكاد يفيض منه ، فقال ألا رجل يأخذ محمدا على غرة في مسيره الى السوق ، أو الى دار بعض أصحابه ، أو الى المسجد ، فيضربه ضربة تقضى عليه ، ليريدنا منه ، ومن خطره علينا ، بعد تلك الدماء التي أريقتم من قومنا وأهلينا وذوي المكانة فينا ، فتقدم اليه رجل وقال له أنا ذلك الذي تشده وهنالك أعطاه أبو سفيان من المال والزاد والراحلة ما يعينه على أن يحقق له هذه المهمة . وفي صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحني على النبي صلى الله عليه وسلم ليضربه بخنجره الذي سقط من يده المرتعشة ، فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروها ، ولما وجد أن قدرته قد ذهبت ، وأن خنجره قد هوى ، وأن قلبه قد امتلأ بالفرع والرعب ، وأن رجليه لا تحملاه ، وأن الأرض موشكة أن تبتلعه . وأن أسيد بن الحضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه ، أعلن ندمه لما بدر منه ، وأسفاه لما أقدم عليه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أصدقتني حديثك ، وخبرني خبرك ، فلم يخف الرجل عنه شيئا ، وأنباء أنه موفد من قبل أبي سفيان الذي أمده بالمال والزاد والراحلة ليقتله ، وأنه يعترف له صلى الله عليه وسلم

أن أبا سفيان وقومه على الباطل ، وأن الرسول على الحق ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه ليقتلا معا أبا سفيان هما عمرو بن أمية الضمري وكان من فتاك العرب في الجاهلية ، وسلم بن أسلم ، وقد عرف أبو سفيان عمرا وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه ، وقتل في طريقه وهو فار رجلا من تيم ، ورجلا من بنى الدليل ، ولقى آخرين بعثتهما قريش ينتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيرا إلى المدينة ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة حتى يسلم بيديه مفتاح الكعبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما بعد لتذهب كبرياؤه وتدوب غطرسته .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التي تضم أهلهم وذوي قرابتهم وأخوانهم ، بل لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر منهم جدلا ، وأقوى احتمالا ، أو أقل شوقا إلى أن يجد نفسه وقد مكته الله من الأرض العزيزة عليه ، ومن البيت الحبيب إليه ، حتى لقد بلغ من حنينه وشوقه ، وشدة تعلقه بهذا المكان الذي بزغت شمسه قبل أن تطلع الشمس . وتنفس ضيائها على هذه الدنيا ، أن رأى في منامه صلى الله عليه وسلم أنه دخل مكة ، ولم يكذب يدعي في أصحابه ذلك النبأ . ويشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين » حتى وثبت أفئدتهم من بين الضلوع تطوف بالبيت ، وتتهلى بنوره ، وتملأ خياشيمها من رائحته ، ثم ظلوا يتحينون الفرصة ، ويترقبون الوقت ، ويرجون أن يحقق الله لهم تلك الأمنية الحبيبة ، إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشا لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس ، وطيب خاطر . وسوف تصدهم صدا ، إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف ، وسلطان الحرب ، وقد كانت قريش لا تفكر في حرب محمد صلى الله عليه وسلم لأنها لا تزال تعاني من حروبها الماضية ، وتقاسى مما جرته عليها من وبال في العتاد والرجال ، وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرغب في حربها ، ولا يميل لناوشتها ، ولا يهيب نفسه لمواجهةها ، إلا أنه كان مع ذلك كله ينتظر أن يحقق الله له وعده الذي وعده به ، والذي لا يشك في أنه منجزه آياه ، وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والرفق ، والسياسة والحكمة ، والكياسة والحزم . ويقول الدكتور هيكمل « انهم لاجتمعون بالمسجد ذات صباح إذا أنبأهم النبي بما ألهم في رؤياه

الصادقة ، ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقيين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون الى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبا هذه الرؤيا الى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ، أيحاربون فى سبيله ، أيجلون قريشا عنوة عنه ، أم تفتح قريش طريقه صاغرة مدعنة .

اذن محمد فى الناس بالحج ، وطلب الى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج فى أول ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء ، وكان عدد الذين خرجوا ألفا ونصفا ، وساق معه الهدى وسبعين بدنة ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا ، فلما بلغ ذا الحليفة عقص الناس الرؤوس ، ولبوا بالحج ، وعزلوا الهدى ، ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوه فى بدر . ولم يحمل أحد سلاحا الا ما يحمله المسافر من سيف ومغمد ، وبلغ قريشا أمر محمد فامتألت بالمخاوف ، وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوهه حتى لقد حسبوه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخوله مكة ، ولم يشنهم ما علموا من احرام خصومهم بالعمرة ، واداعتهم فى أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم الا العاطفة الدينية عن أن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغما ما بلغ ذلك الثمن الذى يدفعونه . . . لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين وعسكر بنى طوى ليحول بين محمد وأم القرى . . . أما محمد فانه تابع مسيرته حتى اذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش ، فقال له لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمر يعاهدون الله تعالى لا تدخلها عليهم أبدا ، فقال صلى الله عليه وسلم يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرین ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة ، ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع ، انه لم يخرج من المدينة غازيا ، وانما خرج محرما يريد بيت الله ، يؤدى عنده فرض الله ، وهو لم يتخذ للحرب عدتها ، فلعله ان حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصده ادراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلا . . . وفيما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدل مرآها على انه لا سبيل للمسلمين الى درك غايتهم الا أن يقتحموا هذه الصفوف

اقتحاما ، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها ، معركة لم يردّها محمد وإنما حملته قريش عليها حملا ، وألزمته خوض غمارها الزاما ، ان المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية لكنه لا يريد الحرب لذلك سلك طريقا لا يلتقى منه بقريش لكن قريشا حين رأوا ما صنع محمد ركضوا راجعين ليقفوا مدافعين عن مكة إذ ادهمها المسلمون ، ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فقال قائل خلأت القصواء فقال النبي ما خلأت وإنما حبسها حابس الفيل والله لا تدعونني قريش الى خطبة يسألونني فيها صلاة الرحم الا أعطيتهم اياها . ثم دعا الناس الى النزول فقالوا يارسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلا فنزل به الى بئر من الآبار المنشورة في تلك الأنحاء فغرز في الرمال في قاع البئر فجاش الماء فاطمان الناس ونزلوا . . . ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد فهل يعدون لها عدة النزال والحرب . وقف المعسكران يفكران في الخطة التي تتبع ، أما محمد فانه لا يزال على خطته في السلم والجنوح اليه الى أن تهاجمه قريش أو تغدر به ، وهناك لا يبقى مفر من تحكيم السيف ، وأما قريش فانها ترددت ثم فكرت في أن توفد اليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة ، وجاءه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة يسألونه ما الذي جاء به ، فلما اقتنعوا بأنه لم يأت محاربا رجعوا الى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا ، وبعثوا رجلا من بنى عامر فعاد بمثل ما عاد به بديل فلم يصدقوه كذلك . فبعثوا سييد الاحابيش الحليس بن علقمة ، فلما رآه النبي مقبلا أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم انما جاؤا معتمرين معظمين للبيت الحرام . فأيقن الحليس أن قريشا ظالمة وعاد اليها ليقول لها سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا ، أتخرج لخم وخذام وحمير ، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة . فاسترضوه وطلبوا اليه أن ينظرهم ، وأرسلو عروة بن مسعود الثقفي فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فأكدوا له أنه عندهم غير متهم . . . وقد خرج الى محمد وذكر له أن مكة بيضته . وأنه ان نالها هؤلاء الأوشاب ، كان ذلك العار الخالد ، وكان عروة أثناء الحديث يتناول لحية الرسول ، وكان المفيرة بن شعبة يضرب يده ، ورجع عروة الى قريش فقال لهم ما رأيت ملكا علا في قومه قط مثل محمد وأصحابه ، وانهم لم يسلموه لشيء أبدا ، فروا رأيكم . . . وطالت المحادثات على هذا النحو فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل من جانبه رسولا يبلغهم رأيه ، لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتلته لولا أن منعتهم

الأحابيش وهددوا بالوقوف في وجههم وهناك خلوا سبيله وعاد الى معسكر المسلمين ، ثم خرج جماعة من سفهاء مكة - أربعون أو خمسون - يريدون العبث بالمسلمين فأخذوا أخذاً وجيء بهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فأطلق وثاقهم وعفا عنهم . . . وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب اليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عدوانهم اذا أرادوا الاعتداء عليه ، وقال للنبي ان عثمان أعز بها مني ، فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره ، وأبلغهم رسالته ، فلم يأبهوا به ، ولكنهم أذنوا له في دخول البيت والطواف به فأبى الا أن يكون مع محمد ، وأجاب قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة ، وطال احتباس عثمان هنالك وترامى الى المسلمين أنهم قتلوه غدرا ، ودخل في روع النبي أن قريشا قتلت عثمان ، فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعا على الا يفروا حتى الموت ، وكلهم حماسة للانتقام ممن غدر وقتل عثمان ، وهي بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » وبهذه البيعة اهتزت السيوف في أعمادها ، وتبدى للمسلمين أن الحرب آتية لا ريب فيها ، وجعل كل ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد . . . ولم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان ليخبرهم بما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له ، أنت محمدنا وصالحه على أن يرجع ليعود في العام المقبل . . . والى هنا ينتهي جانب من قصة هذا الصراع الذي تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية ، والجانب الآخر منها يتمثل في الموقف الذي وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمي من قبل قريش في ابرام المعاهدة بينها وبين محمد ، وقد كان فيها من الطرافة الكثير ، اذ بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم كاتبه علي بن أبي طالب أن يفتح بالبسملة فيأبى سهيل الا أن يقول باسمك اللهم التي تعودها الناس قبل الاسلام ، ويملي عليه هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله فلا يرضى بذلك سهيل ويقول لو آمننا بك رسولا ما كان بيننا وبينك خلاف ، وإنما أنت محمد بن عبد الله ، ويستجيب الرسول لذلك ويأمر عليا أن يكتب كما يملي سهيل ، وتنتهي المعاهدة بعد لأى وأخذ ورد الى تلك النصوص الأربعة .

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود في العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثاني : أن تعقد بينهما هدنة عدم اعتداء الى مدى عشر سنوات أو أربع في بعض الروايات يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه .

الثالث : أنه من أراد أن يدخل في حلف جانب من الجانبين دخل ، ويجرى على الحليف ما يجرى على حليفه من صون حرمانه وعدم الاعتداء عليه . . .

الرابع : أن من جاء الى محمد من أهل مكة رده ولو كان مسلما ومن جاء اليهم لا يردونه .

وكان هذا الشرط الأخير هو مشكلة المشاكل لأن كثيرا من المسلمين الذين كانوا يعذبون بمكة جاؤا الى النبي هربا من ذلك العجيم الذي كانوا يعيشون فيه هنالك فردهم بحكم الوفاء بالعهد . ولم يجف مداد هذه المعاهدة ، وسهيل لا يزال في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء يرسف في قيده أبو جندل بن سهيل بن عمرو هذا فضربه أبوه سهيل وجعل يرده ليرجع معه ، وجعل أبو جندل يصرخ وهو يقول يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين وأفتن في ديني . والنبي يقول له صبرا يا أبا جندل واحتسب فانا لا نغدر ، وان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . . . ووفد كذلك من مكة الى المدينة أبو بصير فأرسل اليه سيده رجلين لياخذه من النبي فلما سلمه اليهما قال له يا رسول الله أتردني الى المشركين فقال له نحن لا نغدر . . . وفي الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفر منه الآخر ، وذهب أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجارى ، وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمنا . فلما ذهب أبو بصير الى هنالك وسمع اخوانه بمكة هربوا اليه وجعلوا واياهم يقطعون الطريق على قريش ، ويظفرون بكل ما يمر بهم من قوافل . وبذلك أحست قريش بالخطر الذي يتهددها من جراء وجود هذا الشرط في معاهدة الصلح التي أبرمها محمد معهم ، فذهبوا الى محمد يرجونه أن يعتبر هذا الشرط لاغيا ، وأن يقبل كل من يفر اليه من أهل مكة حتى لا يزداد خطر أبى بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التي تمر الى الشام أو تجيء منه ، وهكذا أثبتت الأيام بعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم . وأنه لم يكن يأخذ بهذا الشرط الأخير الذي كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه ، أو عدم بصر بالأمور ، وإدراك لعواقبها ، وانما كانت سياسة رشيدة ، ونظرا بعيدا ، وكياسة حازمة ، مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة ، وأن يبعث برسالاته الى الملوك والرؤساء وهو مطمئن الى أنه لا يواجه تكتل خصوم ، ولا احتشاد

أعداء ، ولا كيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الإسلامية ، وصلابة عودها ، وارتفاع رايها ، لأن المعاهدات انما تكون بين قوتين متعادلتين ، وهذا يعنى أن قريشا قد أصبحت - من جديد - تحسب حساب محمد كأنه ند لها تخاف بأسه ، وتتقى غضبه ، وبهذا يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد اطمأن الى وضعه اطمئنانا يساعده على ألا يتهيب قوة ، أو يخشى جبروتا ، أو يرهب طغيانا ، ولذلك فان الخطوة التي تحرك بها بعد صلح الحديبية في القضاء على فلول اليهود التي كانت فى خيبر وقدك وتيماء ووادي القرى دلت على أنه ما كان ليقدّم على هذا الصنيع الذي صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابتة ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يؤيده ربه بالوحي ، ويلهمه بالسداد ، ويوجهه الى الحق ويؤيده بالتوفيق ، ولا يتخلى عنه فى صحو ولا نوم ، ولا حركة أو سكون ، وانما كان معه دائما أبدا يأخذ بيده الى التي هي أقوم . .

بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة أعلام النصر في الطريق أمام محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بهذا الصلح قد صار يما من من المؤامرات والخيانات والغدر والتحرش من هنا وهناك ، لأن عداوته كانت متمثلة في معسكرين قويين يخشى بأسهما ، ويخاف مما يعدانه له من كيد وخصومة ، هذان المعسكران هما قريش واليهود . أما قريش فإنها أصبحت قريرة العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التي حقنت دماءها ، وأبقت على شبابها ، وكبار القادة منها ، وجعلتها آمنة على تجارتها التي هي شريان حياتها ، ومورد زرقها ، ومصدر ثروتها . وأما اليهود فإننا نعلم كيف ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذهم بالشدية ، وعاملهم بالعنف ، وأشاع في نفوسهم الدعر والخوف ، وأشعرهم بالذلة التي تليق بهم ، وتمتزج بدمائهم ، وتكون الجزء المهم في حقيقتهم ، ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلا في خيبر والفلول الأخر التي فرت إليها ، واختارت البقاء إلى جوارها ، وقد مر بنا الحديث عنهم تحت عنوان « اليهود في الطريق » . ولسنا بحاجة إلى تكرار ذلك مرة أخرى ، إلا أن لكل شيء إذا ما تم نقضانا - كما يقول الشيعاء الأندلسي - فإن المنافقين لا يزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقي في خذلان الدعوة ، وإشاعة عوامل الهزيمة . . . ويقول الشيخ عبد المتعال الصعدي « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدا المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلام ، وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التي عطلتها الحرب ، لتستعيد ما فقدته من أموال ، وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التي وقعت فيها باستمرارها في الحرب تلك السنين الخمس - وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام ، وهي أهم مواردها المالية ،

فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ، ولم تعد محتاجة الى تجسسهم لها ،
ولا الى ما يدبرونه لها من فتن ومؤامرات ، فسكنوا عما كانوا يدبرونه
من قبل . لانهم كانوا آلات في يد قريش . لا يتحركون الا اذا حركتهم ،
ولا يمكن أن يقدموا على شيء من أنفسهم . . . ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم
الشريف « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتفت حولهما كل القوى
في شبه جزيرة العرب . . . فأما القوة الأولى فهي قوة قريش في مكة .
بسا لها من نفوذ أدبي ومادى . . . وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بما لهم
من علم وذكاء ، وقدرة على الدس والوقيعه ، وقد اتحدت مصالح القوتين
على حربيه والقضاء عليه ، وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين ،
وأن يخرج من حربيه معهما مجتمعين قويا . حتى لقد أصبح زمام المبادرة
في يده ، وقد استطاع ببعده نظره ، وحسن سياسته ، وما أظهره من
مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن
الجنوب كله ، لكنه لم يأمن ناحية الشمال ، حيث تجمعت فلول اليهود
في خيبر ، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهود وادي القرى
وتيماء لغزو يثرب ، واذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا
لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق ، فليس ببعيد عليهم
ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال ، أو أن يستعينوا بقوى خارجية
فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية ، واليهود أشد
من قريش عداوة لمحمد ، لأنهم أحرص على دينهم من قريش . ولأن فيهم
علما ومكرا أكبر مما في قريش ، وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح
كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن اليهم . وقد سبقت بينهم وبينه
خصومات لم ينتصروا في احداها . فما أجدرهم أن يثاروا لأنفسهم اذا
وجدوا فرصة مناسبة ، أو استطاعوا أن يجدوا لهم مددا من قوى
خارجية ، واذن فلا بد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا .
حتى لا تقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمة أبدا ، وكذلك فعل فانه لم يقيم
بالمدينة بعد عودته من الحديبية الا خمس عشرة ليلة حتى أمر الناس
بالتجهيز لغزوة خيبر ، على ألا يغزو معه الا من شهد الحديبية . وقد
حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن الى قوة نفسه ،
وسمو روحه ، وبعد تفكير عن الكسب المادى ، ومحمد لا يريد أن يضم الى
صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنائم ، وكانت جموع اليهود في
خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسسا ، وأوفرها مالا ، وأكثرها
سلاحا ، وأعظمها دربة على القتال ، لذلك وقفت شبه جزيرة العسرب
كلها متطلعة الى هذه الغزوة ، حتى لقد كان من قريش من يتراهنون
على نتائجها ، ولن يتم له الغلب فيها . وكان كثيرون يتوقعون أن تدور

الدائرة على المسلمين ، لما عرف من قوة حصون خيبر ، وقيامها فوق
الصحور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال . وكان المسلمون
يدركون تمام الإدراك ، ويقدرّون نتائجه حق التقدير ، لذلك ذهبوا
مستقبلين لا يعرف التردد سبيلا الى نفوسهم وكان النبي يدرك كذلك
قيمة هذا الموقف ، ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر . فسيستغير ميزان القوى
الى غير صالحه ، وربما حدثت نكسة أعادت الى أعدائه قوتهم وحماستهم
لقتاله والهجوم عليه . ثم انه كان يدرك أنه ما بقيت لليهود شوكة في
شبه جزيرة العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا
دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التي يعمل لها ، والتي
يسعى لقرارها حتى يتم تكوين الأمة التي يريد لها نواة لمجتمع انساني
فاضل تحت لواء الاسلام ، وبانتهاء سلطان اليهود خفت حدة البغضاء
التي كانت في صدور خصوم المسلمين لهم . وتغير الموقف نهائيا في
جزيرة العرب لصالح المسلمين . وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا
أتاح للنبي صلى الله عليه وسلم فرصة احكام خطته ، وبدا بوضوح
لأصحابه أنه الرجل العبقرى الفذ الذي اكتملت له بصيرة القلب الى
جانب تأييد السماء » . ولهذا كان سلوكه حزما ، ونهجه حكمة ،
وتصرفه صوابا ، وعمله سدادا ، ورأيه توفيقا ، يؤيده الوحي ،
وتؤازره عناية الله ، وهذه هي عقيدة المسلم التي لا يتحول عنها ،
ولا يرتاب فيها ، ولقد كان وقوفه صلى الله عليه وسلم لهذه القوى
الجبارة . أو العصابات الفاجرة ، دليلا على أنه لا يقف وحده ، وانما كانت
معه ارادة الله التي هي السلاح الذي لا يفشل ، والجيش الذي لا يغلب ،
ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذي كان ظهره اليه ، واعتماده عليه .
لخانتته الأسباب ، وتغلى عنه الصواب ، وكان له تاريخ آخر غير هذا
التاريخ وقد كان لأصحابه في تلك الأدوار البطولية مواقف رائعة ، وجهد
مشكور ، حتى في غير ميدان الكر والفر ، وهو ما نسميه نحن الآن
بالحرب النفسية ، كما فعل نعيم بن مسعود في السفارة بين قريش
وبين بني قريظة في غزوة الأحزاب ، وهي السفارة التي كانت سببا في
فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز في هزيمة الأحزاب
وانصرافها بالخزي والخيبة ، أو بعبارة أدق في فشل التجمع الذي أرادت
الأحزاب من ورائه الدخول الى المدينة ، والقضاء على محمد وأصحابه حتى
لا تقوم له قائمة الى الأبد ، وما كانوا يظنون أنه على الباغي تدور الدوائر ،
وليس أكثر من هذا الرعب الذي ملأ قلوبهم . والفرع الذي تحطمت به
نفوسهم ، الى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف في كل
شيء . وقد حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انتهى العام الذي

تضمنته المعاهدة ، وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التي ساق لها الهدى في عامه السابق ، وعلمت قريش بقدومه أخذوا الهلع وظننت أنه صلى الله عليه وسلم سيغدر بها ، ويفزوها في عقر دارها . . . وربما كان سوء الظن الذي يملأ نفوسهم سببا في أن يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في طوافهم بالبيت أن يظهروا من النشاط والحركة ما يعلن عن القوة ، ويوحى بسلامة الأبدان ، ووفرة الصحة والعافية ، لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف ، فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى وقال « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » وكان عدد المسلمين في هذه العمرة ألفين كانوا في نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذي زلزلت معه أفئدة قريش . . . وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للمصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذي يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبد الله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له مهلا يا بن رواحة ، وقل لا إله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده ، فنادى بهنا ابن رواحة رافعا صوته ، ورددتها المسلمون بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب مكة ، وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذي كان يثير في نفوسهم الحقد والكرهية ، وكانت أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب قد قدمت أختها ميمونة التي أحبت الاسلام وآمنت به ، ورغبت الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بها ، كما رغب عمه العباس كذلك ، وأثنى عليها بما يميل قلبه صلى الله عليه وسلم نحوها . فلما تقدم اليه صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو صاحب المعاهدة أن يغادر مكة بعد الأيام الثلاثة قال له ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولنا وأشركناكم معنا في طعام ، فقال له لا حاجة لنا بطعامكم . . . الا أن هذه الأيام الثلاثة التي أقامها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بمكة كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم ، والخلق الكريم ، والأدب الرفيع ، والمعاشرة الحسنة ، حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم في دين محمد ، حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش ، وأحد أبطالها المغاوير ينادى في بطن مكة قائلا « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه ، وأسلم باسلام خالد عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لاسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز في أن مكة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذي نذك فيه معالم الشرك ، وحصون الكفر ، وتتهاوى فيه الأصنام على وجوهها .

ويصبح من المؤلف الى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة عنوانها « لا اله الا الله محمد رسول الله » ولهذا كان المسلمون مطمئنين كل الاطمئنان الى أن الزمن في صالحهم ، وأن ساعة النصر مقبلة لا محالة ، وأن المعاهدة القائمة بينهم وبين قريش اذا كانت تجعل الهدنة طويلة المدى تحتم على الطرفين أن يتجمدا موقفهما فلا يدخل محمد مكة ولا تحدثه نفسه بها . فان الأذهان قد تفتحت لدعوته ، والقلوب قد تهيأت للاصغاء اليه ، واستجابة الناس له أصبحت من أيسر الأمور ، ورجحان كفته صار مما لا شك فيه ، ولا يكون له في الأيام المقبلة الا ما يرضى خاطره ، ويطمئن فؤاده .

حديث أبي سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديدية في أواخر السنة السادسة كان همه صلى الله عليه وسلم أن ينتقل بدعوته إلى خارج نطاق الجزيرة العربية في الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذي كتب إليهم يدعوهم بدعاية الإسلام ملك الروم ، وكان نص الخطاب الذي أرسله إليه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك اثم الأريسيين - الفلاحين - ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذه بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . . . ونا وصل الكتاب إلى قيصر ملك الروم هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذي يمكن أن يصير إليه حتى إذا ما استجاب للداعي ، ودخل في هذا الدين ، واختط لنفسه طريقا جديدا ، كان قويا سليما لا غبار عليه ، ولا التواء فيه ، وهذا هو الشأن في الرجل الذي تفتتح نفسه للحق ، وقلبه للنور ، وروحه للهداية ، حينما يتجه للصواب ، ويرحب بالخير ، وينظر إلى معالم الطريق الذي يسلكه ، ولقد قال هذا الرجل لمن حوله « انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة ، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لقبلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس ، قال لترجمانه . . . سألهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي . فقال له أبو سفيان أنا ، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره . . . فقال

قيصر ادن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره . ثم قال لترجمانه
قل لأصحابه انما قدمت هذا امامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه
نبي ، وقد جعلتكم خلفه ، كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ،
ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم . قال هو فينا ذو نسب ، قال
هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ، قال لا . قال هل كنتم تتهمونه
بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قال لا ، قال فهل كان من آيائه من ملك
قال لا . قال فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، قال بل ضعفاؤهم ،
قال فهل يزيدون أم ينقصون ، قال بل يزيدون ، قال هل يرتد أحد منهم
سخطة لدينه ، قال لا ، قال هل يغدر اذا عاهد ، قال لا ، ونحن الآن
منه فى ذمة لاندري ما هو فاعل فيها . قال فهل قاتلتموه ، قال نعم ،
قال فكيف حربكم وحربه ، قال الحرب بيننا وبينه سجال ، مرة لنا ومرة
علينا ، قال فبم يأمركم ، قال يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به
شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف
والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . فقال انى سألتك عن نسبه فزعمت أنه
فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها . وسألتك
هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قال هذا
القول قبله ، لقلت رجل يأتهم بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه
بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليدر الكذب
على الناس وبكذب على الله ، وسألتك هل كان من آيائه من ملك ،
فقلت لا ، فلو كان من آيائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك
أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم ، وهم أتباع
الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ، فقلت بل يزيدون ، وكذلك
الايان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه فقلت لا ، وكذلك
الايان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم
وان الحرب بيننا وبينه سجال ، وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم
العاقبة ، وسألتك بماذا يأمر ، فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ،
وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي ، وقد علمت أنه مبعوث اليكم ،
ولم أظن أنه متهم فيكم ، وان كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع
قدمي هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص اليه لتكلفت ذلك . قال أبو سفيان
فعلت أصوات الذين عنده ، وكثر لعظهم فلا أدري ما قالوه ، وأمر بنا
فأخرجنا . فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال لقد بلغ أمر ابن أبي
كبيشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ، ولما سار قيصر الى حمص أذن لعظماء
الروم فى دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها أن تغلق ، ثم قال يا معشر الروم

هل لكم فى الفلاح والزهد وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبى ، فحاضوا حيصه حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردوهم على ، فقال لهم انى قلت مقالتي لاختر بها شدتكم على دينكم ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب باثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام . . وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم لأنها تنطوى فى حوارها وجدلها على السيرة العطرة التى يعتز بها المسلمون اذا ذكرت النبوات والرسالات ، فقد كانت هذه الأسئلة التى وجهها قيصر فى صميم الدعوة والدعاة الى درجة أنها تصلح لأن تكون دستوراً ، أو بمعنى أصح ميزاناً توزن به أعمال الرجال الذين يتصدون لقيادة الجماهير ، وتوجيه الانسانية ، وانقاذ المتورطين فى سلوكهم ، أو المتخبطين فى سيرهم ، ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف ان كان الداعى من هؤلاء الذين ينشدون المجد ، ويطلبون الملك ، ويرجون السيادة على الناس ، أم انه من أولئك الذين يحملون المصاييح ، ويجعلون من أنفسهم زيتاً لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير ، وطريق البر ، ويأخذوا بأيديها الى حيث يكون النجاح والفلاح والفوز والنجاة دون أن يترقبوا على ذلك كله اجرا الا رحمة الله الذى له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ونحن ننظر الى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين ، ناحية أشخاصها الذين أداروا دفة هذا الحوار ، وناحية الحوار نفسه . . أما الحوار فهو - كما رأينا - لم يترك شبهة تمر بالخاطر ، ولا سؤالاً يجول بالذهن ، ولا اعتراضاً يمكن أن يطراً على بال أحد ، الا أشبعه بحثاً ، وناقشه من جميع جوانبه وجعل الجواب عنه مسلماً لبداية العقول ، لتصبح النتيجة المترتبة عليه ضرورية لا مفر من التزامها ، ولا ريب فى ترتيبها عليها ، كما تترتب النتيجة على المقدمات فى قانون المنطق السليم ، الا أن رجوع قيصر كان لعمى بصيرته التى غلب عليها حب الغانية على الباقية ، والدنيا على الدين ، والشيطان على الرحمان . . وانحرافه عن السنن ، والتوائه عن القصد ، ولا يظعن فى صحة المقدمات ، وسلامة الترتيب والترتب ، لأن الاعتبارات الأخرى كانت حجر عثرة بين الحق والواجب .

وأما الأشخاص الذين أداروا الحوار . ومثلوا هذا المنطق . فهما أبو سفيان وقيصر ، وكلاهما لا يمكن أن يحابى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يحابى دينه كذلك . ولهذا كان لرأى كل منهما ميزانه بين الآراء . . وقد كان أبو سفيان من أساطين الكفر ، وكبار المعارضين للدعوة وصاحبها ، وكان يعنيه الى حد كبير أن يقول كلمة مدخولة ، أو رأياً مغموزاً ، أو حكماً جائراً ، يرسله مثل الصاروخ الموجه لينال به من

محبته أو من أصحابه أو من دينه الذي هز به الدنيا وزلزل به حصون
 الشرك والظلمين . ولكنه آثر الجانب الذي يتناسب مع رجولته الضخمة .
 وعروبته الأصيلة ، وبسالته الفذة ، وعقله الكبير ، وشرفه العظيم ،
 ونسبه النبيل ، ومكانته في قومه والقاضي أو الشاهد اذا ما تنبه لشرفه
 في قومه ، ومركزه في أهله ، ومكانته في البيئته التي يعيش فيها ،
 لم يذكر شيئا في هذا الوقت الا أن يكون صادق القول . عادل الحكم ،
 لا تحيط به ريبة ، ولا يعلق بعرضه دنس ، ولا تحل بساحته تهمة ،
 لأن ذلك يزرى بالمروءة والعرض . والسلوك والأخلاق ، وأبو سفيان
 مهما كانت خصومته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو اختلافه معه في
 الرأي ، لا ينسى أنه ذلك الرجل الذي كانت له السيادة في قومه ،
 والزعامة في أهله ، وأن مثله في وضعه الذي كان عليه لا يليق به
 الاسفاف ، ولا يجمل به النقص ، ولا ينزل الى مستوى السوقة
 أو الدهماء ، ولهذا كان جديرا من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم فتح
 مكة أن يعطيه الأمان وأن يطوفه بهذا الطوق من الفخار والشرف بهذا
 النداء الكريم « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وكان هذا سببا في
 ذلك الدهش الذي أصاب الناس في هذا اليوم وهم يزعمون أنه لا يزال
 يتزعم جبهة المعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لا يعترضه الا الذي
 يبلغ به الحمق غايته ، وأبو سفيان ليس هو ذلك الرجل الذي يتجرد من
 عقله وحكمته ، وبصره ورأيه ، وصوابه وسداده ، ليكون كبش الفداء
 لكفار مكة الذين عميت بصائرهم ، وانحدرت أفكارهم ، وضلت أفئدتهم ،
 وقد صار من الحمق كل الحمق أن يتجاهل الحقائق ، أو يعترض قافلة
 الانقاذ ، أو ينكر نور الشمس .

فتح مكة

لا تزال الى هذا التاريخ مسافة الزمن الذي تضمنته معاهدة الحديبية ، والتي اتفق بمقتضاها على أن تكون الهدنة بين الطرفين قائمة ، لا يعتدى أحدهما على الآخر ، ولا يعين عليه عدوا ، فان اعتدى حليف على حليف كانت غير سارية المفعول ، وكان ذلك فسحا لتعاقد القسائم بينهما ٥٠٠ الا أن غزوة مؤتة التي جاءت في أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب المواليين لهم في مقابل ثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ما يرجو محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد ، وعاد وضعهم - أو كاد يعود - الى مثل ما كان عليه قبل الأحزاب ، وكان من نصوص معاهدة الحديبية - كما نعلم - أن من أراد الدخول في حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل ، وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر في حلف قريش ، ودخلت خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بين بكر وخزاعة حزازات قديمة ، وثارات من سالف العهود أدرها وبعث كامن حقدما ما وصل اليه حال معسكر محمد وأصحابه في مؤتة التي لم يكن لجيشهم فيها من فضل الا فضل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ، ولا ضرر يلقونه ، ولقد كان من الضروري أن ينسحب جيش المسلمين لأن عدده - الثلاثة آلاف - لا يستطيع أن يصمد لجيش العدو البالغ عدده مائة ألف ، أو مائتي ألف على ما ترويه بعض الأخبار ٥٠ ولهذا أخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتناقل منها على أن حلفاءها قد انهزموا . ووصل ذلك الى حد الاشتباك ، وكانت قريش تساعد حلفاءها - بنو بكر - بالمال والسلاح متناسية أن ذلك خرق للمعاهدة ، زاعمة أن أحدا لا يعرف

هذا التحرك المستتر الذي تتحركه . . . لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأخبروه نبأ ذلك البنكت ، وهذا الاعتداء ، وناشدوه أن يدرك حلفاءه الذين تعرضوا لعدوان لا قبل لهم برده . . . ويقول الشيخ الخضرى فى كتابه نور اليقين « اذا أراد الله أمرا هيا أسبابه ، وأزال موانعه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذلل العرب حتى تذلل قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوق لفتحها ، ولكن كان يمنعه من ذلك اليهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية - وهو سيد من وفي - ولكن اذا أراد الله أمرا هيا أسبابه ، وقد علمت أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبكرا دخلت فى عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية . كمننت نارها بظهور الاسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من خزاعى . فقام هذا الخزاعى وضربه ، فحرك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر بنو بكر ثأرهم ، فشدوا العزيمة لحرب خصومهم . واستعانوا بأولياهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ، ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون ، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين . ولما رأى ذلك حلفاء الرسول - خزاعة - أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فلما حلوا بين يديه وأخبروه قال والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى » .

أما قريش فانهم لما رأوا أن ما عملوه نقض لليهود التى أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداواة الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشهد العقد ، ويزيد فى المدة ، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد ، حتى اذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه ، فقال يا بنية أرغبت به عنى ، أم رغبت بى عنه ، فقالت ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال لها لقد أصابك بعدى شر . ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد فعرض عليه ما جاء اليه ، فقال عليه السلام هل كان من حدث قال لا فقال عليه السلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك ، فقام أبو سفيان ومشى الى أكابر المهاجرين من قريش عليهم يساعدوناه على مقصده قام يجد منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله . فرجع الى قومه ولم يصنع شيئا . . . فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام ، فتنسك عند الأوثان ليتفى عن نفسه تهمة الاسلام . . . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه تجهز للسفر ، وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة التى هو متجه اليها ، فقال له يا رسول الله أو ليس

بينك وبين قريش عهد ، قال نعم ولكنهم غدروا ونقضوا ، ثم استنصر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يقيم حربا يمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بخرمتها فدعا مولاة جل ذكره وقال « اللهم خذل العمون والأخبار عن قريش حتى نبعثها في بلادها فقام حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدرًا وكتب كتابا الى قريش يخبرهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع بجارية لتوصله الى قريش على عجل . فاعلم الله رسوله بذلك فأرسل في أثرها عليا والزبير والمقداد : وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها طمينة معها كتاب فخذوه منها . فانطلقوا حتى أتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها أخرجي الكتاب أو لنلقين عنك الثياب فأخرجته من عقاصها . فاتوا رسول الله ، فقال عليه السلام يا حاطب ما هذا قال يا رسول الله لا تعجل على . انى كنت حليفا لقريش . ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ، ولا رضيا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال انه شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . . . وفى هذا نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم . وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مقاتل ولما وصل الأبواء لقيه اثنتان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفیان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة ابن الحارث شهيد بدر وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة شقيق أم المؤمنين أم سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديدا وقال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بأهله وعياله فأمره بأن يغود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة ولما وصل عليه السلام من الظهران أمر بأيقاد عشرة آلاف نار وكانت

قريش قد بلغها أن محمدا زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته فأرسلوا
أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخير
عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى أتوا من الظهران فإذا هم بنيران
كأنها نيران عرفة . فقال أبو سفيان ما هذه النيران لكأنها نيران عرفة ،
فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو . فقال أبو سفيان عمرو أقل من
ذلك ، فرأهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم
رسول الله . وكان العباس قد سمع صوت أبي سفيان وحذره ما يضمه
له الرسول إذا لم يدرك نفسه بالاسلام وأخذه الى الرسول فأعلن اسلامه
وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسبقه المنادون بمكة « من دخل
داره وأغلق بابها فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل
دار أبي سفيان فهو آمن » وعند دخول مكة أخذ بيده العباس ووقف معه
ليستقبلا كتائب الجيش كتيبة كتيبة وكان أبو سفيان يسأل عنها واحدة
واحدة ويقول مالي ولها حتى إذا مرت كتيبة الأنصار وحامل رايتها سعد
ابن عباد قال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة فشكى أبو سفيان ذلك
الى النبي فقال له كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة . وكان
يوم الفتح يوم سلام وأمان ، واستقبال خافل توجه النبي صلى الله عليه
وسلم فيه بقوله لهؤلاء الذين كانوا يظنون أنه سيرفع عليهم سياط
الانتقام اذهبوا فانتم الطلقاء » واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم
وآذوا الاسلام وأهله أعظم الأذى فأهدر دمه وان تعلقوا بأستار
الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي أسلم وكتب لرسول
الله الوحي ثم ارتد وافتري على الله الكذب وكان يقول أن محمدا كان
يأمرني أن أكتب عليهم حكيم فأكتب غفور رحيم فيقول كل جيد . . . ومنهم
عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية . وكعب بن زهير . . . على أنهم
جاءوا بعد ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم وأعلنوا اسلامهم وقبل منهم
وعفا عنهم . . . وقد كان لجيش خالد بن الوليد رهبة أشاعت الذعر
والخوف في قلوب أهل مكة حملتهم على أن يقاوموه ويصدوا زحفه عليهم
فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون . وقتل من جيشه اثنان فقط . . .
وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف صدا ، ولم
يلاق مقاومة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم راكب دابته منحني
على الرحل تواضعا لله وشكرا على هذه النعمة ، وكان من الانحناء تكاد
جبهته نمس الرحل ، وكان أسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم
الجمعة لعشرين خلعت من رمضان حتى وصل الى الحجون موضع رايته .
وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلا ثم سار
وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى أتى البيت وطاف به
سبعما على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة إذ ذاك
ثلاثماية وستون صنما ، فجعل عليه السلام يطعنها بعود ويقول « جاء

الحق وزهق الباطل » « وما يبديء الباطل وما يعيد » ثم أمر بالآلهة التي كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزام ، فقال عليه السلام . قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما قط وهذا أول يوم ظهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة . وبظهارة الكعبة المقدسة من هذه الأذناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب والى هنا تكون عصابة الشرك في مكة وغيرها قد تهاوت أعلامها . ودالت دولتها ، ولم يعد في إمكانها أن تعامل محمدا بالأسلوب القديم الذي كانت تعامله به ، والذي كان يقوم على العنف والشدّة . والقسوة والغلظة . وعدم المساواة ، وهي الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله لتكتسب رضا ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فإذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط بعثت كبيرا من ساستها يرجو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتغاضى عن هفوة المسء ، وحمافة المعتدى ، ولقد رأينا كيف مادت الأرض من تحت أقدامها ، وتهددتها الأخطار ، وأحاط بها الهلع والفرع ، لأن خيانتها قد تكشفت ، وامدادها لبنى بكر بالسلاح والمال فى اشتباكها مع بنى خزاعة قد عرف ، أو وصل أمره الى النبى صلى الله عليه وسلم . فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر وراحت ترسل قائدها لعناد النبى وحره ليؤكد - من جديد - عهد الحديبية الذى نقضوه وخاسوا به ، فلما لم يجدها ذلك تقيرا ولا قطميرا استسلمت للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة دخول الظاهر المنتصر ، فلم تقاوم دخوله ، أو تعترض طريقه ، أو تشهر فى وجهه سيفا ، باستثناء تلك المناوشة التى قوبلت بها كتيبة خالد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحله فى هذا اليوم هو كل شىء ، ولكن الذى كان هو كل شىء .

أولا : أن يطلب النبى صلى الله عليه وسلم من سادن الكعبة عثمان ابن طلحة مفتاح الكعبة فيعطيه اياه طائعا راضيا دون مقاومة أو تردد .
ثانيا : أن تتحطم على مرأى ومسمع منهم تلك الأصنام التى كانوا يعكفون على عبادتها من دون الله .

ثالثا : أن يعلن اليهم أنه فى موقف القوة الذى يسمح له بالعفو عنهم اذ يقول اذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعا : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء تبايعه على الاسلام والطاعة ، والبذل والفداء بعد أن أدركوا أن فى ذلك انقاذا لأرواحهم ، وحقنا لدمائهم .

وهذه كلها معان تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتحدث من موطن القوة لا من موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية

النادرة عوضه الله بها عن شدة كان يلاقيها ، وكل هزيمة حلت به ،
 وكل إيذاء أصابه ، نصرا عزيزا أرضى خاطره ، وأتلع صدره ، وأراح
 فؤاده ، ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك
 مقتدر ، ونسى الرسول صلى الله عليه وسلم احن هؤلاء وعدوانهم ،
 ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس .

والتقارىء لأبناء هذه الغزوة وأحاديثها يعثر على كثير من الأخبار
 الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التي تنبئ عن اخلاص المؤمنين لدينهم ،
 ودعوة نبيهم اخلاصا يفوق حلم الوضيف . . وربما كان أروع هذه الصور
 للاخلاص للدين وللرسول صلى الله عليه وسلم ما صنعته أم المؤمنين حبيبة
 بأبيها أبو سفيان الذي ظن أنه سيجد في جوارها من الحنان والرحمة ،
 والاحلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله من هموم ، وما لاقاه في
 طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن أبوته لا قيمة لها ، إلى جانب ما تحتفظ
 به لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قداسة ، وما ترعاه له من
 حق ، وأن الواجبات التي يملئها تخليها الدين لها عند الاعتبار الأول ،
 وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير الذي يقوم كبرياؤه على
 الزيف ، ويعتمد على الباطل ، وينحاز إلى حزب الشيطان ، ويفتصب
 جاهه ، وسلطانه من الأوباش والغوغاء ، حتى إذا ما جده الجدد ، وانتصر
 الحق على الباطل تضائل ذلك الحجم ، وتهاوى ذلك الكبرياء ، وبست
 الصورة الصحيحة على حقيقتها أقل من لا شيء في العدد . . يمر به
 العباس بن عبد المطلب على نيران المسلمين ليدخل في نفسه الرعب ،
 ويعلق هو على هذا المنظر المذهل بقوله انها كئيران عرفة ، ويراه عمر
 رضى الله عنه فيقول عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد
 ولا عهد . . ويهم بقتله ويمنعه العباس قائلا له انه في جوارى ، ويدخل
 به على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن اسلامه حقا لدمه ، وانقاء على
 نفسه ، ويتبدره الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ، أما أن لك أن
 تعلم إلا اله الا الله فيقول له بلى . . فيقول له : وأن محمد رسول الله
 فيقول له أما هذه ففي النفس منها شيء ، فيقول له العباس قلها قبل أن
 تضرب عنقك ، فيشهد ويتوجه العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ويقول له ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له ذكرا ليظفر منه فيما بعد بتلك
 الكلمة « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وإلى هنا تزول دولة الظلم ،
 وسلطان الباطل ، ويعود الهاربون من العدالة عكرمة وصفوان ووحشى
 وعبد الله بن الزبيرى وكعب بن زهير - صاحب بانة سعاد - وآكلة
 الكبود هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بعد أن ضاقت بهم الأرض بما

رحبت ولم يجدوا سبيلا أقوم من أن يسلموا رقابهم الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليمن عليهم بالحرية . وتقول هند والله يا رسول الله
ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خيائك ،
ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خيائك .

بعد الفتح

على الرغم من أن المناوشات التي طال مداها بين كفار مكة ومن كان معهم من المشركين وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك الخذلان الذي أصابهم الله به في كثير من المواقف ، وأنهم لم يشكوا بعد هذه المسيرة الطويلة انه رسول الله حقا وصدقا ، وان فتح مكة كان من حقه أن يسدل الستار على الفصل الأخير من تلك المأساة التي كانوا يمثلونها ، وأنه صلى الله عليه وسلم قد صار بيده زمام المبادرة - كما يقولون وأن يوم الفتح هذا كان صورة لانتصار الحق على الباطل ، وعنوانا على أن عقارب الساعة لا ترجع الى الوراء ، وأن هؤلاء الذين دخلوا في دين محمد صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم وألقوا سلاح الحرب والمعارضمة كانوا يبرهنون بهذا الصنيع على أن من الحق كل الحق أن يظلوا على هذا الباطل المفضوح ، أو الطيش الواضح ، إلا أن الاحن القديمة ، والعداوات السابقة ، والحسد الذي فتت الأكياد في أولئك الذين كانوا يتقمون على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخصه الله بهذا الفضل ، وأن يحتضيه دون غيره بهذا التكريم ، ويجعل بيده زمام القيادة والريادة ، والحديث باسمه ، والتبليغ عنه ، وقد بدا ذلك كله في نفوس هذه الجماعات المترامية - بعيدا عن مكة - في الجنوب ، إذ كان تحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام قد أصابهم بالهلع والفرع ، ووطنوا أن الدائرة ستدور عليهم لا محالة ، وأنهم لا بد أن يستميتوا من جديد في اسكات هذا الصوت ، أو القضاء على ذلك الخطر الزاحف ، والغزو المحقق ، والسلطان المتمكن والطوفان الذي سوف لا يبقى ولا يذر ، وأن أهل مكة اذا كانوا قد ألقوا السلاح ، أو كفوا عن الكفاح ، أو سلموا بهذا الدين الواحد ، فلما بينهم وبين الداعي اليه من القرابة والنسب ، أو لأن الدعوة لواحد منهم وذلك تشريفا لهم ، وهذه أمور لا يضعها في اعتبارهم أهل الجهات الأخرى من

الذين لم يجاوروا المبيت الحرام ، لذلك هبت هوازن وتقيف بزعامه مالك بن عوف وانضم اليها كثير من البطون والقبائل وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وأطفالهم ، ليكون هذا الذي ساقوه من الأموال والنساء والأطفال داعيا إلى الجهد ، وباعتنا على الاستبسال ، ومشجعا على الاستشهاد ، وكان مالك هذا في مقتبل شبابه ، يغلى في عروقه دم البطولة ، ويترقق فيه ماء النشاط والاقدام . وقد أمر جنوده أن يقفوا على قدم حنين على شكل العصابات ، وأن يتحينوا مرور المسلمين بالوادي لينقضوا عليهم من كل ناحية ليفرقوا جمعهم ويستولوا على ما بأيديهم من مغانم وأسلاب . . . وكان المسلمون في هذه الآونة لم يمتض على فتحهم لمكة . واعتباطهم بهذا الظفر العظيم أكثر من أسبوعين . ولما ترامى اليهم هم والنبى صلى الله عليه وسلم نبأ هذه المؤامرة لم يكن هنالك من بد أن يستجيبوا لهذه المواجهة التي فرضت عليهم ، والتي كان من الضروري ان يخوضوا غمارها ، ونحن نعلم أن الجيش الذي كان معه صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة كانت عدته عشرة آلاف مقاتل انضم اليهم ألفان من الذين أسلموا بعد الفتح . وبهذا العدد الضخم الذي لم يتوفر له صلى الله عليه وسلم في وقت من الأوقات واجه المشركين في حنين ، إلا أن المسلمين اندفعوا في ظلمة الليل لهذا الكر والفر حيث لم يتبين لهم الهدف . ولم يستطع الجندي في ميدان المعركة أن يميز بين صدائقة وعدوه . وإلى جانب هذا فقد سرى الغرور إلى النفوس وخيل اليهم ان هذه الكثرة التي توفرت لهم ستجعل النصر لهم من غير شك . وهنالك قال قائلهم لن نغلب اليوم لكننا ، ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » « وساروا حتى بلغوا حنيناً في المساء يقبل فنزلوا على أبواب واديها ، وأقاموا بها حتى بكره الفجر ، هنالك تحرك الجيش ، وركب محمد بغلته البيضاء في مؤخرته ، على حين سار الخليل بن الوليد على رأس بنى سليم في المقدمة ، وانجدروا من مضيق حنين في واد من أودية تهامة ، وانهم كذلك اذ شئت بامرة مالك بن عوف وأصلوهم عليهم القبائل .

وابلا من النبال وهم جميعا منهزمين قد أخذ الخوف منهم كل مأخذة حتى أطلق بعضهم ساقيه إلى الريح ، والنبى في المؤخرة تمر عليه القبائل واحدة واحدة مولية الأدبار منهزمة لا تلوى على شيء ، وهو - كما نرى - موقف من أشد المواقف على النبى صلى الله عليه وسلم . لأنه سيعرضه هو وأصحابه للموت وهنالك تذهب أيام كفاحه ، وأصوات دعوته ، وجهوده التي بذلها ، وشهائده التي عاناها ، دون أن يكون لها أثر من الخير ، أو نصيب من الإصلاح ، أو معنى من احقاق الحق .

وابطاك الباطل ، سوى أن يقول التاريخ والناس ، كان هنالك انسان يحمل راية ، وينادى بدعوة ، ويأمر ببر ، ويوجه الى سلوك وينقذ من ترد ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترن به النصر ، ولم يجد صوته طريقة الى القلوب والأفئدة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان له من قوة إيمانه ، وصدق يقينه ، وعظيم ثقته في الله ، ما جعله مع هذه الشدائد على أمل قوى في أن الله لا يتخلى عنه ، فجعل ينادى الناس بالثبات على مواقفهم ، والصبر على مقاومتهم ، وثار به حميته فأراد أن يندفع في غمار العدو لكن ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب منعه ، وكان عمه العباس قوى الصوت فأخذ يقول يا معشر الأنصار يا معشر المهاجرين ان رسول الله حي فهللوا ، وتجمعوا حوله صلى الله عليه وسلم وكانت المعجزة ، وتصورت لهم نفوسهم ما يكون وراء هذه الهزيمة من خذلان لهذا الدين ، أو ضياع لهذه الدعوة ، وذل لهذه الجماعة ، فعاد اليهم نشاطهم أقوى مما كان ، وكرروا على المشركين بالقتل والايادة ، وما هي الا لحظات حتى كانوا يحضنون الجموع ، ويخيفون الصناديد ، ويطاردون الجباهير ، ويجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، وإلى هذه الصورة من غرور المسلمين بكثرتهم ، وفرارهم من المعركة ، واستهتارهم بالنظام ، وعدم اتخاذ الحكمة والحيلة مع العدو ، تشير الآية الكريمة من سورة التوبة « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبناكم كسرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعدب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » . وقد كان هذا الموقف من أشد المواقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ايلاما لنفسه ، ووقعا على قلبه ، واتعابا لخاطره ، وحزنا لفؤاده . هو والمسلمون معه ، لأنهم دفعوا ثمنه غاليا جدا . وهو الى جانب ما أصابهم فيه من خذلان ، كان مسببا في ازهاق أرواح ، وفناء أنفس ، لا تعدد بالأفراد ولا المثات ، ولكنها أكثر من ذلك كله ، وان كان هذا البأس جاء وراء النصر المبين فيما بعد ؟ اذ أنزل سبحانه جنودا لم يروها كان لها الفضل كل الفضل في هذا النصر الذي لا يقل في روعته وحسن عاقبته عن النصر في بدر الذي كان حدا فاصلا بين الكفر والإيمان ، والحق والباطل ، أو العدالة والظلم ، وكأنما أراد الله بهذا الذي كان يوم حنين أن يلحق المسلمين درسا ثانيا بعد هذا الذي كان في يوم أحد . ليعلموا أن الحيلة والحذر ، واليقظة والانتباه ، وامتنال أوامر القائد ، والاعتماد على الله ، والتضحيات التي لابد منها ، من الأمور الضرورية لأصحاب المبادئ ، وأزباب الرسالات ، ومن يحملون راية الإصلاح ، أو الدعوات النبيلة ، وبحسن السبك قد ينفي الدغل كما

يقول ابن الوردي - وقد صح أن مالك بن عوف الذي كان يقود هذه المعركة الشرسة قد التجأ الى الطائف وفيها ثقيف ، وفي الطائف وثقيف كان للنبي صلى الله عليه وسلم تاريخ قديم قبل الهجرة لا ينساها ، إذ فر اليهم من ظلم أهل مكة له ، وعنفهم معه ، وقسوتهم عليه ، رجاء أن يجد في دعوته لهم قبولا ، وفي التجائه اليهم حماية ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأنهم طاردوه ، وأغروا به سفاهم ، ورموه بالحجارة ، وإذا كان الشاعر الحكيم يقول « لا تقطن ذنب الأفعى وترسلها » فإن هذه الأفعى التي قطع المسلمون ذنبها بهذا النصر الذي أحرزوه يوم حنين كان لابد أن يكون وراءه استئصال للفتنة « ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا » لذلك كان من الضروري الذهاب الى ثقيف بالطائف ، وكانت حصونها هنالك متيعة يصعب اقتحامها أو الوصول اليها ، غير أن ذلك لم يمنعه صلى الله عليه وسلم أن يذهب اليها ، وأن يحاول النيل منها ، واذلال أهلها ، والتغلب عليهم ، وكسر شوكتهم ، وقد قال أحد الأعراب لرسول الله صلى الله عليه وسلم انما ثقيف في حصنها كالشعلب في جحره لا سبيل الى اخراجه منه الا بطول المكث ، فان تركته لم يلحقك منه ضرر ، لكنه صلى الله عليه وسلم شق عليه أن يعود أدراجه دون أن يصيب منها شيئا في طريقه هدم حصنا خاصا بمالك بن عوف ، وأخذ المسلمون بعد ذلك يحرقون كروم الطائف ونخيلهم ، وأمر مناديا ينادى أن من جاء من ثقيف مستسلما فقله نجا بأهله وماله ، فجاء اليه قرابة عشرين أخبروه أن بالحصن من الذخيرة والطعام ما يكفي للبقاء فيه أمدا طويلا ، وهنالك رأى صلى الله عليه وسلم أن طول المكث على هذا الوضع سيجعل الملل يدب الى نفوس المسلمين ، وكان الذي بأيديهم من مغانم حنين كثير ، وتوزيعه عليهم سيقوى من روحهم المعنوية ويسرى عنهم ، وأنهم بحاجة الى الاستجمام بعد تلك المعاناة ، وكان ذو القعدة قد استهل فأعلن اليهم أنه راجع وأنه سيعود الى اتمام مسيرته الى الطائف اذا انتهت الأشهر الحرم ، وانصرف هو والمسلمون معه الى مكة ولما وصلوا الجعرانة جلسوا لاقتسام الغنائم ، وقد جاء اليه وفد من هوازن وفيهم أبو بركان عمه من الرضاعة ، والشسياء بنت الحارث بن عبد العزى وهي أخته من الرضاعة كذلك ، وطلبوا منه أن يرد اليهم ما أخذ منهم من الاموال والانس ، وأنهم مسلمون ، فأجابهم الى ذلك في غبطة وارتياح ، وقد سأله عن مالك بن عوف فأجابه انه لا يزال بالطائف ، فطلب اليهم أن يبلغوه أنه ان جاء اليه مسلما رد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الابل ، ولم يلبث مالك أن حضر اليه صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك ، وكانت مغانم حنين هذه قاصرة على المهاجرين والمؤلفة قلوبهم أمثال أبي سفيان ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وقد دب الى

نفوس بعض الأنصار شيء من الألم لهذا . وقال بعض منهم لقي رسول الله قومه - يقصد أنه تعصب لهم . وانحاز الى جانبهم (اذ خصهم بالمغانم ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقصد الا أن يكون لهم شيء عوضا عما فقدوه من مال وديار وضياع حين هاجروا وتركوا وراءهم كل شيء . وهناك وقف ليخطب فيهم وليقول لهم « ما قاله بلغتنى عنكم ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » وبهذه اللباقة ، وتلك الحنكة والسياسة قضى على الفتنة ، وأحمد زيران العصبية . حتى قال الأنصار حينئذ نرجع برسول الله ، والى هنا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد قضى على جاهلية العرب ، وأسكت صوتهم ، ولم يجعل للمعارضة سبيلا اليه ، ولا سلطانا عليه ، والعرب بطبيعتهم أكثر الناس سلامة فطرة ، ونقاء سريرة ، وحبا للمنطق ، وميلا الى الأخذ بالتي هى أقوم من السبل السلمية ، والطرق المستقيمة . وقد يكون هذا الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم كافيا فى اقناعهم واقتناعهم بأنه رسول رب العالمين ، ولم يعلم أحد أنه بعد هذا الذى قام به من الدعوة قد ترك مجالا لهؤلاء الذين كانوا يرددون أو يشككون فى صدقه ، وأن الذى كان يتاوه عليهم وحى من عند الله ، لذلك قد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما تتطلبه السياسة الحازمة لحكم هذه الدولة الجديدة . وما يقتضيه تدبير شئونها ، من صيانة الحقوق ، ورد المظالم ، وكفالة الأمن ، وسيادة العدل ، وحرية التصرف ، فأرسل من يجمعون زكاة الأموال ، ومن يفصلون فى القضايا ، ومن يعلمون القرآن ، ولم تكن ناحية من فواحي الجزيرة تجهل أن عليها سلطانا يفرض عليها الأمن والحق والعدل والاستقامة على الجادة ، فلا يتمرد متمرد ، ولا يتطاول متطاول . ولا يبغى ظالم ، لأن الدعوة فيهم . ولرجل منهم ، وليس فيها ما يجالى العقل أو المنطق ، الا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكده يطمئن الى هذه الغاية المحمودة التى كان قد وصل اليها بتوفيق الله ورضوانه حتى ترامى اليه أن الروم تهيىء له جيوشا لغزو الجزيرة من الحدود الشمالية ، فلم يتردد برهة فى القضاء على هذه النزوة ، والاستئصال لهذا الشر ، وذلك هو ما عرف فيما بعد بغزوة تبوك .

غزوة تبوك

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة • واذلاله لطواغيت
الشرك • وقادة الكفر ، تنهات القبائل والبطون على مبايعته على الاسلام
ودخولهم في دين الله أفواجا • وتحطيمه للاصنام التي كانت في الكعبة
وغيرها وقد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والأكاسرة • والسلوك
والسلطين • وصار زخفه يزداد يوما بعد يوم بحكم نشر الدين ، وإعلان
العقيدة • وعموم الدعوة الى الناس جميعا • وهنالك دب الخوف الى نفوس
الروم والفرس وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددهما الغزو الاسلامي
حينئذ • وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف في وجهه ، والحد من
تحركه • والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والعباد وراء
ما تجاوزته ، لأن ذلك سسيجعلها في خبر كان لا محالة • طال الزمان
أو قصر ، فأعلن صلى الله عليه وسلم النفير العام في المسلمين لأنه علم أن
الروم لا يناجزونه وحدهم وإنما ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من
العرب والأعراب الذين كان محمد صلى الله عليه وسلم أرغمهم ماداموا لم
يختاروا الاسلام على أن يدفعا له الجزية عن يد وهم صاغرون •••
ويقول المؤرخون ان النبي صلى الله عليه وسلم كان مما أخذ به نفسه مع
المسلمين اذا أراد الخروج الى غزوة ألا يصارحهم بالجهة التي سينتهي اليها
مسير الجيش حتى لا يتسرب نيا ذلك الى العدو فيتأهب ، للاقائه ، ولكنه
في هذه المرة قد أثر الإعلان والمصارحة ، والسبب في هذه المخالفة
أن السفر شاق ، لأنه الى تبوك في الشام • والجو حينئذ كان حارا ،
والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة
مدعاة الى التعلل بها • وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج • ولهذا

كان باب الاعتذار مفتوحا على «صرايئه» ، وبدأ التفاق فى أوضح صوره ، وأجلى معانيه ، على الرغم من التهديد الصريح الذى كان القرآن الكريم يقرع به الأذان فى مثل قوله سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله يهتدى القوم الفاسقين » على أن هنالك من المسلمين من أبدى غاية الاخلاص فى الجهاد ، ونهاية البذل فى سبيل الله . مثل عثمان وأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف . وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر الذى يركبونه فجاءوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ليوفر لهم الظهر الذى يركبونه ، فلما قال لهم لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون . ويظهر من أحداث غزوة تبوك أنها كانت آخر ما طفق به الكيل فى نفوس المنافقين ، اذ ظهرت كراهيتهم لأن ينتصر محمد ، أو يتمكن نفوذه ، ويقوى سلطانه ، بشكل لا التواء فيه ولا خفاء ، فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ، ولا أسلوبا يعللون به تخلفهم ، وعدم خروجهم ، الا سلكوه والتجأوا اليه . . . وفى سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان . وتلك الأساليب فى حين أن الله سبحانه وتعالى لم يطوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم وانما أطلععه عليها . وبلغه اياها . وكان ذلك افتضاحا لحالهم . وكشفا لأستارهم . وقد حمل ذلك جماعة من المتخلفين أن يصارحوه صلى الله عليه وسلم أن تخلفهم لم يكن لعذر يلتسمونه التماسا ، أو يزورونه كذبا وبهتاناً ، وأنهم لهذا يتركون الأمر له ليقضى فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد . وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ثم نزلت فيهم الآية « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » . . . ويقول الدكتور هيكال « وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدا تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر ذلك الجيش وقوته فأثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهته الى حدودها ، ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها ، فلما انتهى المسلمون الى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم . ونمى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن ينازله أو يقاومه . ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى اليها بعد ذلك أحد . . . وكان يوحنا بن روبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود قد وجه اليه النبى صلى الله عليه وسلم

رسالة أن يذعن للإسلام أو يغزوه ، فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب . وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة . وصالح النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية . كما صالحه أهل جرياء وأذرح وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتب أمن . هذا نص أحدها وهو ما كتب به الى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله . ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول دون نفسه ، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يردونه من بر أو بحر » . . . وايدانا بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد صلى الله عليه وسلم الى يوحنا رداء من نسج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن اتفق معه على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثماية دينار كل عام .

وبهذا كله لم يبق لمحمد صلى الله عليه وسلم بحاجة الى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود . وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية . لولا خيفة انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندى النصراني أمير دومة الجندل ، ومعاونته جيوش الروم اذا جاءت من ناحيته لذلك بعث اليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس . وانتقل هو بجيشه راجعا الى المدينة ، وأسرع خالد بالانتقاض على دومة الجندل فى غفلة من ماليكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حسانا وأخذ أكيدر أسيرين وهدد أكيدر بالقتل اذا لم تفتح دومة الجندل أبوابها . وفتحت المدينة فداء لأمرها . . . وساق خارج منها ألفى بعير وثلاثماية شاة ، وأربعمائة وسق من بر ، وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم وهناك عرض على أكيدر الاسلام فأسلم وأصبح حليفا . . . ولم يكن عود محمد صلى الله عليه وسلم على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له . ولم يقيموا كبير وزن لما حققه صلى الله عليه وسلم بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة واقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة ، وتحملوا فى قطعها ما تحملوا من الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم يبنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوه أن أقاموا بشبوك قرابة عشرين يوما .

وكانهم لهذا قطعوا الصحراء في شدة القيظ في حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها . وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد . وينقل اليه نبأهم أولئك الذين ملأ الايمان قلوبهم ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حيناً ، وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً الى المدينة ومحمد يحفظ النظام في صفوفه ، حتى اذا انتهى اليها لم يلبث ابن الوليد أن لحق بها ومعه أكيدر وما جميل من دومة الجندل من ابل وشاه وبرود ودروع ، وعلى أكيدر حلة من الديباج ، موشاة بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها . . . وهنالك اضطرب الذين تخلفوا عن الخروج معه اضطراباً رد المستهزئين الى صوابهم . وجاء المتخلفون يعتذرون ، وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد صلى الله عليه وسلم عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا ، وأقروا بذنبهم . هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد أمر النبي المسلمين أن يعرضوا عنهم . وظلوا على ذلك خمسين يوماً . لا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ولا بيع أو شراء ، ولا أية معاملة على أى لون من الألوان ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم يشتهد مع المنافقين شدة لم يالفوها من قبل . وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ، ولا بد من تلافيه وعلاجه ، وهم قد ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم . وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه بعد أن وعده ربه لينصرن دينه ، وليعلن كلمته ، ولقد كان له من قبل حين كان الاسلام محصوراً بين المدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجري بين المسلمين ، أما وقد انتشر الاسلام في أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وما هو ذا يشارف الانتقال منها ، فكل تهاون مع المنافقين شر له خطره وضرره وعاقبته الوخيمة . وما أسرع ما يستشرى الخطر اذا لم تجتث جرثومته . . . وقد بنى جماعة من هؤلاء مسجداً بنى أوان - على بعد ساعة من المدينة - والى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرقوا لكلام الله عن مواضعه . وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضرراً وكفراً . وطلبت هذه الجماعة الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يفتتح ذلك المسجد بالصلاة فيه وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود من تبوك . فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقبة ما قصد اليه هؤلاء من اقامته أمر باحراقه وضرب بذلك مثلاً ارتفعت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا ولم يكن هنالك من يسانداهم ويفر بهم بالتمرد والنفاق وحوك المؤامرات الا عبد الله بن أبي الذي مرض بعد تبوك بشهرين مات بعدهما . . . وبغزوة تبوك تمت كلمة الله في شبه

الجزيرة كلها ، وأمن محمد صلى الله عليه وسلم عوادى الخارجين ، وحرب المناوئين ، وكيد المبطلين ، وأقبل الناس من هنا وهناك يقدمون قروض الولاء والطاعة ، ويعلنون الاسلام . وكانت خاتمة غزواته صلى الله عليه وسلم لتمكين كلمة التوحيد ورفع راية الاسلام ، ولقد كانت سورة التوبة السجل الواعى لأخبار هذه الغزوة ، ولقد عرضت لكل لون من ألوان النفاق الذى تذرع به أولئك الذين كانوا مرضى القلوب ، حينما كان لهم ظاهر وباطن يفاير كلاهما الآخر فى حقيقته المكشوفة . ومعناه المفصوح . حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة لأنها فضحت أعراضهم وهتكت أستارهم ، وكشفت عيوبهم . ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عنيفا فى معاملهم كما ثبت ذلك مع الذين اتخذوا مسجدا ضارا ، وكما ثبت كذلك مع الثلاثة الذين خلفوا ، الا أن ذلك كله كان آخر المطاف حين لم يبق فى قوس الصبر منزع - كما يقولون - والا فان الباب كان مفتوحا لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير الذى عاتبه الله عليه بقوله « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » . وعلى الجملة فان هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المواجهة والمجابهة الا أنها كانت مجابهة لهؤلاء الذين كانوا مرضى بضمايرهم وأفتدتهم اذ ظهروا للرسول صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين كذلك - على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء . وفى الوقت الذى تكامل للدولة الاسلامية نفوذها الذى لا يمكن لاحد أن ينكره كانوا هم قد تكاملت لهم وسائل الانزام ، وعناصر الضعف ، وألوان الاهتزاز والذبذبة . وكذلك تكون نهاية الموتى .

وربما تغاضى صلى الله عليه وسلم عن بعض المنافقين فلم يأخذهم بالشدة كما أخذ غيرهم ارضاء لذويهم أو بعض قرابتهم وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة . . . وقد كان هذا واضحا تمام الوضوح فى عبد الله ابن أبى المنافقين الذى طالما هم بعض المسلمين أن يقتله فلم يرض الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يشجع عليه . وحين وفاته صلى الله عليه صلاة الجنائز ارضاء لابنه الذى كان من خيار الصحابة ، وان كان صلى الله عليه وسلم قد نهى بعد ذلك عن مثل هذه الصلاة « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب فى نفوس الحزرج الذين كانوا يحبون عبد الله ويعترفون له بالفضل . . . ومهما كان الحال بين الدين والشدة

في معاملة المنافقين فان أحدا لا يشك في أنهم أصبحوا منذ تبوك يعاملون
 بالعنف ، ويؤخذون بالشدة ، ويجعلون مع المشركين في قرن واحد . .
 وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء الى ما قبل تبوك لكنهم
 بعدها أخذوا يشعرون بالخربة والذلة والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن
 الأرض تميد من تحتهم وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر
 في أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ولم يشأ أن يخرج
 هو بنفسه لأنه كان غير راض عن حج المشركين الى بيت الله الحرام مع أن
 ذلك كان مألوفاً في الجاهلية وقد سبق له صلى الله عليه وسلم أن استنفرهم
 للحج في غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات في سورة التوبة تنبذ اليهم
 عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون
 نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتهم عيلة فسوف
 يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم » وذهب علي بن أبي طالب
 ممثلاً رسمياً للنبي صلى الله عليه وسلم ليعلن ذلك الانذار الرسمي
 « وأذن من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من
 المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتهم فاعلموا أنكم غير
 معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » وبهذه المرحلة من القوة
 والعزة والنفوذ والسلطان التي وصل اليها الاسلام كان في الوضع الذي
 يسمح له بأن يصدر أوامره ونواهيته من مركز القوة التي يحسب لها
 الناس ألف حساب . فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف في وجهها
 الا اذا تجرد من العقل ، أو كان مقامراً بروحه التي بين جنبيه ، وهيهات
 أن يكون هنالك شيء من ذلك كله الا عند المجانين الذين جردهم الله من
 العقل والادراك . .

بعد تبوك

غزوة تبوك لم تكن غزوة بمعنى الكلمة يواجه فيها فريق فريقاً ، أو جيش جيشين ، لأن الروم قد فروا الى داخل بلادهم ، ولم يرق لهم أن يواجهوا محمداً صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، الا أن نبأ هذا الانسحاب كان له وقع على البقية الباقية من العرب الذين كانوا لا يزالون على وثنيتههم ورأوا أن الأليق بهم وقد صار لمحمد صلى الله عليه وسلم هذا السواد العظيم من الأتباع والأنصار . وقد استنحبت من وجهه هذه الدولة العظيمة التي كان لها نفوذ واسع عليهم وعلى غيرهم أن يبادروا الى الاستجابة لدعوة محمد قبل أن يجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع - كما يقولون - لذلك وفدت عليه الوفود ، وجاءت اليه الجماعات تعلن دخولها في دينه ، وانضمامها الى مسلكه وكانوا أكثر من سبعين وفداً . ومن حسن المصادفات أن ثقيف بالطائف ، وهي صاحبة الثأر القديم مع النبي صلى الله عليه وسلم التي واجهته أسوأ مواجهة حين التجأ اليها من عسف قومه بمكة ودعاها الى الله . وقد زده أسوأ رد كانت من الذين بادروا الى الاستجابة وان كانت قد ترددت طويلاً قبل ذلك ، وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم منهم عروة بن مسعود وأعلن اسلامه وتفهد للنبي صلى الله عليه وسلم باسلام قومه ، وقد حذره النبي من قتلهم له ، فرد عليه بأنهم يحترمونه كل الاحترام ، ويخونونه ولا يخرجون على طاعته ، لكنه حينما دعاهم رموه بالنبل فمات ، ولما رأوا أن الناس قد أنكروا عليهم ذلك أعلنوا اسلامهم بعد أن بعثوا رجلاً منهم يعرض على النبي الصالح معهم هو « عبد يابل » وظلوا في ضيافة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة زمناً طويلاً وصاموا رمضان هنالك وكان هو الذي كان يبعث اليهم بالزاد والطعام وهم في المسجد ثم عادوا الى الطائف ، وقد طلبوا ابقاء طينهم اللات ثلاث سنين فلم يجابوا

الى ذلك ، وطلبوا - كذلك - أن يعفوا من الصلاة فلم يجابوا ، وهكذا توالت الجماعات والطوائف للدخول في دين الله أفواجا ، ولم يبق من يناوىء محمدا صلى الله عليه وسلم الا نفر قليل ممن كانوا يظنون دعوته دعوة ملك وسلطان وقد أخذوا يعرضون عليه أن يشاركوه النفوذ ، ويقاسموه السلطان ، وهو يرد عليهم بأن ذلك الذي يدعو به ، صلة بالله ، وعبادة له ، وفناء في ذاته ، وعقيدة يجب امتلاء القلب بها ، من هؤلاء عامر بن الطفيل الذي ذهب مع قومه اليه للدخول في دينه ، فلما مثل بين يديه طلب منه أن يكون ندا له في الرسالة ، ودعوى نزول الوحي عليه ، فلما أنكر عليه النبي ذلك ، انصرف من عنده وهو يقول له لأملأن عليك الأرض خيلا ورجالا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اكفنى عامر بن الطفيل فأصابه الطاعون وهو في الطريق فالتجأ الى بيت سلوية فمات به ، وحين حضرته الوفاة قال يعجب من أمر نفسه ، غدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية ، وكذلك فعل صاحبه أربد بن قيس الذي أبى وعاد الى بنى عامر فهبت عليه صاعقة أحرقتة وهو محمول على جمل خرج به الى السوق لبيعه ٥٠ . وفي هذا العام الذي كثرت فيه الوفود مقبلة على رسول الله تعلن اسلامها ، وتدخل في طاعته ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج أبو بكر رضى الله عنه الى البيت الحرام حاجا ومعه المسلمون ولم يشأ أن يخرج هو صلى الله عليه وسلم لأن كثيرا من عادات الجاهلية الأولى كانت تسيطر على أعمال الحج ، كطواف الناس عرايا ، ودخول المشركين جنبا الى جنب مع المسلمين . ولا يمكن لأحد أن يمنعهم للعهود القائمة بينهم وبين المسلمين حينئذ ، وهناك نزلت سورة التوبة وفيها التحلل من هذه الارتباطات ، وتلك العهود ، والنهي عند ذلك الطواف ، ومنع المشركين من دخول البيت لأنهم نجس وبراءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين قسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله يرى من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم يتصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصوهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ٥٥ وهكذا الى الآية الأربعين من السورة « وهى كما نرى فى الفاظها وقوة ردها ، وعظيم تخويقها ، كقذائف المدافع ، ليس فيها مهادنة ولا لين ، مما يدل على أن فترة ارخاء الجبل ، أو ترقيع الفتق ، أو الأخذ بالثى هى أحسن . قد انتهت

الى غير رجعة ، وأن الخطاب مع هؤلاء قد أصبح من مصدر القوة لا مصدر الضعف ، وأن أسلوب المعاملة اليوم غيره بالأمس ، وأن الاسلام الذى كان يعفو أن يصفح صار يأخذ بالصرامة ويعامل بالشدة ويجازى على السيئة بمثلها ، وذهب على رضى الله عنه والناس يؤدون مناسكهم بمنى ليعلمها ثم يقول من مصدر القوة أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر . ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عهد عند رسول الله فهو الى مدته ، وبنهاية هذا الموسم عن الحج انتهت هذه الأمور كلها وصار البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا أتقى من ماء المزن ، وأطهر من قلوب التوايين الأوابين ، لا يدخله الا من تأدب بأدب الاسلام ، وتجرد من أرجاس الدنيا ، وأدناس الشرك ، وعبادة غير الله ، وبهذا الموقف القوى الذى أعلنته « براءة » كان الحد الفاصل بين الدولة الناشئة الصغيرة التى كان يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من حوله فى المدينة ، وبين الدولة القوية التى يمثلها هذا السواد العظيم لا فى المدينة وحدها ولكن فى مكة والطائف واليمن وكل الأطراف هنا وهناك ممن ينطقون الضاد وغيرها ويرون أن سلامة أرواحهم . واستقرار أحوالهم ، واطمئنان نفوسهم ، واستقامة سلوكهم ، وطهارة أعراضهم ، وضمان حقوقهم ، انما هى فى هذا الدين الذى يعلنه محمد صلى الله عليه وسلم وينادى به ، وقد كان خروجه صلى الله عليه وسلم الى الحج فى العام الذى بعد هذا العام ، ودعوة المسلمين للخروج معه فى هذه الكثرة الكثيرة وخطبته الجامعة المانعة التى رسم فيها الخطوط والمعالم ، بمثابة الشكر لله الذى أسبغ عليه نعمته ، وأتم رسالته وهى فى الوقت نفسه اعلان عن هذه القوة الجارفة التى لا يقف فى وجهها الا الحمقى أو المجانين ، وكذلك يكون النصر للحق لا للباطل « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » .

حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن ابي طالب رضى الله عنه ، والذى اُردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك • ولا يطوف به عريان ، كان لابد لهؤلاء جميعا أن ينكمشوا ، وأن يؤمنوا ايمانا لا شك فيه أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا لمن يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عنها ، وأن وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، وأحسننت اليه • وضمنت له البقاء الطيب • والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن • فانه فى النهاية أشسبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ، ويكتنفه الشك ، وتترامى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مبادئ علم الاجتماع ، ولهذا أعلن القرآن الكريم هذا المبدأ « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » • • وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ويستعصى فيها الوثام والصلح ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر الى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره الى الدين ، والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد • لذلك كله أدركت هذه الفلول المشتركة فى أطراف الجزيرة أو فى داخلها انه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين • وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال ، والهوان الى الأبد • وعندئذ أخذت الوفود من نجران وعبد القيس وبنى حنيفة وكندة وأزد شنوءه وهمدان وثلعية وغسان وبنى أسد وبطون وقبائل كثيرة تتوافد عليه صلى الله عليه وسلم لتعصم دماءها من السفك ونفوسها من الازدراء ، وحياتها من الامتحان ، ومستقبلها من الضياع ، وتتعاهد على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع الى ذات الرجح وهنالك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطمأن كل الاطمئنان

الى أنه لا يحجج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه في هذا العام - العاشر - سيخرج الى بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، الى نفوس كثير من المؤمنين الذين أرادوا أن يكون لهم شرف الارتباط به صلى الله عليه وسلم ، وخرج معه تسعون ألف أو مائة ألف . ومشوا تميد الأرض من تحتهم . وترقص النجوم من فوقهم . ويمتلئ الجو من حولهم بالفرح والسرور . ، يتقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء قائلا ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك « وهم من ورائه بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيخون الى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه التي تنساب في النفوس انسياب الحياة المملوءة بالأمل والرجاء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال « اللهم زده تشريفا وتعظيما ومهابة وبراً ، وطاف به سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم وسعى بين الصفا والمروة سبعا - كذا - وكان اذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا اله الا الله ، الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » وفي الثامن من ذي الحجة توجه الى منى فبات بها . وفي التاسع توجه الى عرفات وخطب خطبته المشهورة التي ودع فيها هذه الأمة التي كافح من أجلها ، وحارب في سبيلها ، وظل ثلاثا وعشرين سنة يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأمثل ، والحياة الأكمل ، والعيش المغمور بالسعادة ، ونص هذه الخطبة كما جاء في كتب التاريخ والسيرة « الحمد لله نعمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله . وأحثكم على طاعته ، وأسئلتح بالذي هو خير « أما بعد « أيها الناس اسمعوا مني فاني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدا به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وان دماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أبدا به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . . أيها الناس ان الشيطان قد يشس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تخفرون من أعمالكم . . . أيها الناس ان النسيء زيادة في الكفر يضل به

الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان
الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وان عدة الشهور
عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها
أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد .. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب
الذي بين جمادى وشعبان الا هل بلغت اللهم اشهد . . . أيها الناس ان لنساءكم
عليكم حقا ولكم عليهن حق . . . الا يوطنن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا
تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم
أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين
وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وانما النساء عندكم عوان
لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن
بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت اللهم
اشهد . . . أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئء مال أخيه الا عن
طيب نفس ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم
رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم تضلوا بعدى كتاب الله
ألا هل بلغت اللهم اشهد . . . أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ،
كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على
عجمي الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب . . .
أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث
وصيته ، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر
الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته . . .

وفى هذا اليوم نزل قوله جل شأنه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » وأدى صلى الله عليه وسلم مناسك
الحج من رمي الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام
تقل واجعا الى المدينة . ولما بدت له من بعيد معالمها الشامخة كبر كثيرا
وقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له : له الملك وله الحمد ، وهو على
كل شيء قدير ، آييبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ،
ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » والواقع الذي لا شك فيه أن
هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة حدد فيها النبي صلى الله عليه وسلم
المعالم الصحيحة للمجتمع المناسك القوي الذي يسوده التعاون والوفاء
والحج والبر والرحمة والتعاطف والخير والسعادة والأمن والطمأنينة
والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال

« ان ذماءكم وأموالكم عليكم حرام » فان الجماعات والشعوب والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول الى أحرار و غابات تسكنها الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، الا اذا رخصت فيها الدماء على الناس الى هذا الحد الذى لا يجد فيها القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية « ولكم فى القصاص حياة تشبه الدستور العادل ، والقانون الصحيح ، والنظام الذى لا بد منه ، لوجود البيئة المترابطة ، التى يجمعها الحق • ويصلها البر ، ويمسكها العدل • حتى يمكن أن تحصل على السعادة التى تنشدها ، والاستقرار الذى تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فاذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيما ، والعيش لونا من ألوان التعاسة ان لم يكن هو التعاسة بذاتها •

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها « وأداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضرورى للتكتل الأسرى والشعبى الذى لا بد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس • والانسان مدنى بالطبع – كما يقولون – ولا يمكن لانسان أن يعامل انسانا تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط • وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تتعطل المصالح • ويصيبها الشلل والموت • • وهكذا اذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذى لا يصدر الا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة فى الفلاح والنجاح والسداد والرشاد ، لمن يوجه اليه القول • ويخصسه بالتقويم ، ويأخذ بيده الى الساوك السوى والصراط المستقيم ، فهى تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفسد كيان الأمم والشعوب ، وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، وتندد بالذى يتهاون فى دينه حتى يارتكاب الصغائر التى يعتاد لها • مستهينا لشأنها ، مستحقا بها ، وهى الخطوة الأولى الى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الأدب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ومعظم النار من مستصغر الشرر « ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » لا تهاون فيه ولا تغافل ولا تباطؤ ولا تراخى ولا نقص ولا زيادة كذلك • فان حصل فى دقة الامثال والتطبيق كان ذلك هو الثغرة التى ينفذ منها الشيطان الى ضمير المؤمن ليقوده الى المعصية ثم الى الغضب عليه من الله ثم الطرد من رحمته جل وعلا •

وفي الخطبة مقدار عظيم من الاهتمام بالمرأة لأنها نصف المجتمع وبخاصة حين تكون زوجة فان وضعها يكون شائكا ، لأن حياتها مع الرجل وهي قائمة على الحب المتبادل ، والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما . تحتاج الى صون حرمانه ، والمحافظة على عرضه « ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تکرهونه بيوتكم ولا يأتين بفاحشة » وهي على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا » الا أنها مع هذا الضعف تستطيع أن تكون شيئا ذا أهمية في ذلك النعيم الواسع الذي ينشده الرجل من البناء بها ، والحياة معها . وهذه السعادة . وذلك النعيم ، لا يمكن وجودهما ، الا اذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبي لهذا المخلوق الضعيف . الوضع الذي يحتم عليه أن يعاشرها بالمعروف « فان كرهتموهن فعسى أن تکرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتانا وإنما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » . . . وليس أدل على روح الاخلاص ، وحب الخير ، والرغبة الصادقة في الاصلاح ، من قوله صلى الله عليه وسلم في أول الخطبة « اسمعوا مني فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامكم هذا » ورحمه الله صلى الله عليه وسلم فقد كان موقفه بحق موقف وداع تجلي فيه العطف والود ، وهو كما يقول عن نفسه الرحمة المهداة ، أو كما يقول القرآن الكريم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم في جهاده الشاق ، وفي حياته القاسية ، وفي مقاومته للشرك انما يعمل لتمكين هذا الدين ، وسيادة هذه الشريعة ، وسعادة هذه الأمة ، فاللهم أجزه عنا أحسن الجزاء ، ورطب ألسنتنا بالصلاة والسلام عليه رجاء أن نؤدى له بعض ما يجب ، وأنت وحدك الذي تعين على الخير ، وتوفق للصواب ، وقلوبنا بيدك واعتمادنا عليك ، يا نعم المولى ونعم النصير . . .

أصحاب النبي

الذي يتابع أخبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكيف كان أدبهم معه ، واحترامهم له ، وسرورهم به ، وأنهم كانوا يهشون لقلوبهم ، ويعاشرونه بالمعروف ، ويعاملونه بالتى هى أحسن من جميل الخلال ، وعظيم الفعال ، ووقوفهم الى جانبه دون أن يتقدموا عليه ، أو يرفعوا أصواتهم لديه ، ثم يجعلونه رائدهم وقائدهم ، وأستاذهم النبى يأخذون عنه . ويستفيدون منه ، ولا غضاضة أو مضاضة فى ذلك كله . وإنما هو عن رضا وارتياح . ورغبة واطمئنان . وحب وإيمان ، يدهش الدهش ، البالغ أن تكون فى آدمية بنى آدم هذه الطهارة ، وذلك الاخلاص والنقاء والايثار . وتلك الانسانية التى لم يشبهها نفاق . أو يدفع اليها غرض وهوى ، أو مغنم من مغنم الدنيا يصيبونها . ويحصلون عليها ، وراء العقيدة السليمة والاخلاص المحض ، والحب الربانى الخالى من الشك والذبدبة ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه الصورة الواضحة فى ذلك كله . فما عرف عنه أنه تجاوز حدوده معه . أو شك فى حديثه له ، أو أساء الأدب عليه ، أو مل وجوده الى جواره . أو زهد فى صحبته . وكذلك كان اخوانه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، يرونه صلى الله عليه وسلم مكمل وجودهم ، ومطهر نفوسهم . ومتمم دينهم ، ومقوم سننهم . ومصحح عقيدتهم . ومنير عقولهم ، وموجه قلوبهم ، ومناطق فخارهم . وموئل تطلعاتهم . ولقد صح أن عمر رضى الله عنه حينما فتح الله قلبه للإسلام . وأخذ سبيله الى دار الندوة ليلتقى به صلى الله عليه وسلم هنالك ليعلن اليه أنه دخل فى دينه . وأنه سيكون من جنوده ، الذين يقفون الى جانبه ، ويدافعون عنه . خاف المسلمون - وقد رأوه مقبلا - أنه يضمم غلرا للنبي صلى الله عليه

وسلم • وأنه ما جاء الا لذلك ، وحينئذ تسابق كل واحد منهم أن يكون هو ضحية عمره ليفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم • ولم يكن واحد منهم الا وقد أبدى هذه الرغبة وأصر عليها • وفي هذه الآونة قال لهم النبي هونوا على أنفسكم فأنا ضالته المنشودة ، ولا بد من مقابلتى له ، لا تظنوا أنه ينال منى ، أو يصرعنى بقوته ، ولم يكن الا أن التقى به صلى الله عليه وسلم وجها لوجه وهزه هزة انخلعت لها مفاصله ثم قال له أما آن لك أن تسلم يا عمر وتدخل فى دين أهل النهى ، فقال له لهذا أنا جئت يا رسول الله ، فكبر المسلمون فرحا به ، وسرورا لأن الله قد هداه • وصار بعد ذلك للرسول أطوع من بناته ، وألزم لظله • وأقرب الى خاطره • وحين وقفت قريش فى وجهه صلى الله عليه وسلم ليؤجل دخوله الى مكة فى عمرة الحديبية كان رسولها اليه عروة بن مسعود الثقفى • وكان وهو يكلم النبي صلى الله عليه وسلم يعيث بلحيته – على عادة العرب حينئذ – وكان شعبة يضرب على يده انكارا لذلك • وخوفا من أن ينال النبي بسوء ، كأى رجل مشرك لم يؤمن به ، ولما انتهى المغيرة من هذه المهمة وذهب الى قومه قال لهم « يا معشر قريشى انى جئت كسرى فى ملكه • وقيصر فى ملكه • والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه ، مثل محمد فى أصحابه • لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه • ولا يسقط من شعره شئ الا أخذوه ، وانهم لم يسلموه لشيء أبدا » ومعلوم أنه فى غزوة أحد حين هزم المسلمون وفر الفارون من حوله وقد وقف هو يتلقى رميات أعدائه كانوا يحيطون به احاطة السوار بالمعصم ليكونوا فداء له ، مما عساه أن يجيء اليه من هدوه ، وحين تأمر المتآمرون على قتله صلى الله عليه وسلم فى ليلة الهجرة كان على كرم الله وجهه فى مكانه فى حجرتة التى ينام فيها • وعليه بردته الخضراء ، وهو يعلم أنه مقتول لا محالة ، اذ عرض نفسه لأن يكون فى مكان هذا الذى يريدون قتله ، وهو مغطى ببردته ليؤكد لهم أنه هو تلك الضالة المنشودة ، وهو بذلك يعطى صورة الفدائية الحققة من غير شك ، ولو أن رجلا غير على من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منه فى هذا الوقت أن يمثل الدور الذى مثله على لما تردد أو توقف • ولقد كان عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين يعلن للنبي صلى الله عليه وسلم عليه اسلامه • وهو كما يقول القرآن الكريم فى أمثاله « قد بدت ، البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر • • يضمم الحقده ، ويخفى الكراهية ، ويكنى فى نفسه الكيد والغدير • ولا يفتأ عند وجود الفرصة أن يزرع الشوك فى طريق النبي صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون معه ، وحدث يوما ما أن تنازع مهاجر مع أخيه الأنصارى واشتد بينهما الخلاف ، وقد جعل هو من ذلك سبيلا الى أن يوقظ الفتنة النائمة •

ليقول للأنصار ، ما يغريهم بالمهاجرين ثم أردف ذلك بقوله • لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وهو من غير شك يقصده بالأعز نفسه ، أما الأذل فهو النبي وأصحابه • ولكنه لما عرف أن ذلك قد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذهب اليه ثم حلف أنها لم تصدر عنه • وكان الوحي قد نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ليقول له في أول سورة المنافقون • « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » وقد استأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله ، وقال يا رسول الله مرني لأقتل رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، فقال له لا أحب أن يقول الناس محمد يقتل أصحابه ، ولما بلغ ذلك ابنة عبد الله - وكان من خيار المسلمين ، شدة ايمان ، ونقاء سريرة • وحبا للنبي صلى الله عليه وسلم - قال له يا رسول الله بلغنى ما صنع أبى وتسبق الناس الى قتله • فمرني يا رسول الله أن أقتله ، فأنى أخشى إن قتله غيرى ألا تطيب نفسى بذلك • وأن تدفعنى الحمية لأقتل قاتله ، وهنالك أعود الى حظيرة الكفر ، اذ قتلت مسلما فى كافر • وحينئذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم • طب نفسا يا عبد الله فاننا لا نقتل أباك ولا نسيء اليه • وما كان هذا الولد يريد قتل أبية الا مرضاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وكأنه كان فى هذا الوقت يضع نصب عينيه قوله سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأئى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين • • ولا يكتفى بهذا القول بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقطع الطريق عليه ويرغمه على أن يقول أنا الأذل ورسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز ، فى مقابل تلك الكلمة التى أرسلها أبوه والنبي نطق بها القرآن الكريم لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وهذه أمثلة فقط لهذا الحب ، وهذا التبجيل ، وذلك الاحترام ، وهم الذين كانوا وهم يخاطبونه يقدمون بين يدي خطابهم له كلمة « بأبى أنت وأمى يا رسول الله » ولقد كان لهم أن يعاملوه هذه المعاملة ، ويحيوه ذلك الحب • ويتعلقوا به هذا التعلق ، وهو الذى كان يعتز بهم • ويهش لهم ، ويأس الى لقائهم • ويطمئن اليهم ، ويملا بهم قلبه وخواطره ، ثم لا يسهه بعد ذلك كله الا أن يقول « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ويخلع عليهم هذا الرداء من الفخار والشرف ، والاحترام والتقدير ، ولقد صح أنه كان يتابع أخبارهم ، ويسأل عنهم ، ويشاطرهم فى الآمال والآلام ، وقد تفقد يوما علقمة فلم يجده ، فلما سأل عنه قالوا

له هو يارسول الله فى النزاع الأخير • فبعث اليه من يلقيه الشهادتين فاستعصى عليه النطق بهما • فأخبروه بذلك صلى الله عليه وسلم ، فقال آله من والديه من لا يزال حيا ، فقالوا أمه • فقال أحضروها ، فلما حضرت قال لها ماذا ترين فى علقمة ، فقالت لم أنكر منه يا رسول الله الا أنه كان يقدم زوجته على ، ويصغى اليها دونى ، ويستجيب لندائها ويحسب حسابها وان كان ذلك لا ينقص منى شيئا • وهناك قال الرسول صلى الله عليه وسلم اجمعوا لنا خطبا لنحرق علقمة جزاء غضب أمه عليه • وهنالك صاحت الأم قائلة لا تفعل يا رسول الله ، ولا أرضى لابنى وفلذة كبدى أن تأكله النار ، ولا يكون هذا على مرأى منى ومسمع ، فقال لها ان أمر ذلك اليك ، ان رضيت عنه تجا من النار ، وان ظلمت على غضبك كانت له نار الدنيا ونار الآخرة ، فقالت أشهد الله ورسوله والملائكة والانس والجن والأرض والسماء أنى راضية عن ابنى علقمة ، وأطلب له من الله العفو والمغفرة • فى هذه الآونة إستجاب علقمة لمن كان يلقيه الشهادتين نطق بهما من غير تلغثم ولا لجلجة وأخبروا النبى بذلك فدعا له بالجنة • • وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه من الرعاية لهم • والحدب عليهم ، والتفانى فى توجيههم للخير ، وارشادهم للأفضل ، وكانوا يرونه الأمر الذى لا بد منه • ولا استغناء عنه ، وصدق الله العظيم اذ يقول « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطاه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » وليست فى غير ذلك تكون رجولة الرجال ، وصدقة الأصدقاء وحب المحبين ، وأدب المؤمنين ، رضى الله سبحانه وتعالى عنهم • جزاء ما كانوا عليه من خلال ، وجميل خصال ، وحسن فعال ، وصدق مقال •

كلمة الختام

حينما جاء محمد صلى الله عليه وسلم للناس بهذا الدين الذى حمل
لواءه • وأقام بناءه • اهتزت أرجاء الدنيا ، وأرهقت أذانها لتصغى الى
هذا النداء الذى دعاما الى أن تتخلص من الخرافات ، وتترك الترهات ،
وأن تنفض عنها غبار هذا الجهل الذى كانت ترزح تحته نيره ، وتعيش
أسيرة لسلطانه • وأن تكفر بهذا الذى توارثته عن الآباء • والأجداد من
الضلال الذى كانت عاكفة عليه • متمسكة به • ثم وجدت نفسها واقفة
منه هذا الموقف الذى اقتضاها أن تفكر وتنظر • وتعى وتتأمل • لأن
كتابه الذى جاء به ، ودينه الذى أعلنه • لم يكن يحمل الناس على القسر •
ولا أن يكرههم على أن يستجيبوا لرغبته ، أو ينزلوا على ارادته • بأسلوب
المتسلطين ، أو طريقة الجبارين ، أو نهج المستبدين ، وهو يقول
« أنزلكموها وأنتم لها كارهون » وإنما كان يفتح المنافذ التى يدخل منها
الهواء النقى ، وهناك تشعر تلك النفوس التى تعيش فى هذا الجو
الخائق • أنها أمام حرية مكفولة ، وأن من حقها أن تأخذ ما تأخذ ، وتدع
ما تدع • وأن هذا الدين يمتاز بالوعى والرأى ، والعقل والفكر والتأمل
والانتباه ، وأنه لا يرضى لأهله بتبليد الاحساس ، وغفوة الشعور • ونوم
الضمير • وإنما هو يدعوهم دائما أبدا الى أن يكون لهم نظر وفقه •
وصبحو ويقظة ، وفى القرآن الكريم مجال واسع لذلك كله لا ينكره من
كان له الف به إذ يراه ينادى بذلك • ويرغب فيه • ويحث عليه •
ويجمله كالفریضة المحتومة • أو الواجب الذى لابد منه ، وهو ربما حارب
تلك العلل التى تقاومها • أو تعترضها وتقف فى سبيلها ، ولا نبالغ اذا
قلنا ان الانسانية كانت تعاني من عبودية الفكر • وأغلال الجهل ، قبل
أن يرسل الله اليها هذا الذى أنقذها هذا الانتقاذ الذى أنصف به الحق
من الباطل ، والعدل من الظلم • والهدى من الضلال • والحرية من

الاسترقاق ، وهي ما كانت الا في ليل قاتم • وعسف دائم ، وحكم غاشم « وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » وقد أثبت التاريخ أن اليهودية والنصرانية • وقد كان من طغيانها ما كان تقلص ظلها • وانكماش سلطانهما ، وفترت حدتهما • وسكت صوتهما ، لأن الاسلام الذي أشاع الحرية ، وأعلن العدل ، وأيقظ العقل ، ونادى بالانصاف • وهتف بالأذان ، وشرع المساواة ، قضى على الجود ، وحارب الجهل • وقدم أظافر الباطل • وأفهم الناس أن العبادة لله • وأن الآدمية ليست وقفا على الرؤساء ، وهناك كان التمرد على الكنيسة • والتكذيب للرهبان ، والرفض لما يقول به الذين يمنحون صكوك القفران • ويبيعون قراريط الجنة ، وارتفعت الأصوات التي كانت تنادى بالحركات التجديدية لتبعث العقل من غفوته ، والفكر من رقدته ، وبخاصة بعد هذه اللقاءات التي كانت مع المسلمين في الأندلس الذي دام حكمهم له ثمانية قرون كانت مدارسهم وجامعاتهم ترسل نورها على الوافدين عليها من هؤلاء الذين أخذوا منها • وانتفعوا بها ، وكذلك كان الاحتكاك الصليبي الذي دام أكثر من قرنين كاملين ، وقد سجل مؤرخوهم ذلك ، ولم ينكروا هذا الأثر الذي كان من جرائه هذا التحرر ، أو تلك اليقظة • وهذا التمرد على ما كانوا مستغرقين فيه ، وأن الاسلام وحده هو صاحب الفضيل في أن يتخلصوا من تلك الرجعية ، وأن يعرفوا أن الآدمية تقتضيهم من الحقوق والواجبات ما يجعلهم يتخلصون من هذا الرق • وتلك العبودية ، ولا يشك أحد في أن الاسلام الذي كانت له هذه الفاعلية في غير أهله ، كان له مثلها أو أكثر منها في أهله ، الذين يؤمنون به ، ويقدمون له ، ويعملون به على أنه عقيدة تصلهم بالله ، وتشفع لهم عنده ، وكان صلى الله عليه وسلم هكذا مع المسلمين يحثهم على انتطع • ويدفعهم اليه ، ويرغبهم فيه ، ويحجب اليهم النظر والاعتبار ، وأن يكون اليوم خيرا من الأمس ، ولا يخطر بذهن أحد أن هذا النشاط الذي كان يحثهم عليه ، أو يدفعهم اليه ، كان خاصا بتحصيل الرزق ، أو جمع المال ، أو تحصين الحصون ، واستكمال القوى المادية التي يتقدمون بها على غيرهم من اليهود والنصارى لتكون لهم الغلبة عليهم • أو السبق دونهم وكفى • أما الفقه في الدين ، والعلم بكتاب الله ، فليست من هذا القبيل ، لأن طريقها الوحي الذي أكد ذلك بقوله « اليوم أكملت لكم دينكم » وليس من حسق عقل أو نظر أن يكون له زيادة أو حذف أو تغيير ، أو اجتهاد أو رأي ، أو ما يشبه ذلك مما يشعر أن خلافا كان باثيا • لابد من العمل على تلافيه أو تداركه • ونحن نبادر بدفع هذه الشبهة بأن هذا الكلام إنما يرد على الذهن اذا كان ما يجيء به الفكر أو النظر متعارضاً مع هذا الدين الذي ثبت له التمام والكمال ، فان هذه

الاضافات والحركات التي نسميها جديداً أو تجديداً من معينه ، وليست غريبة عنه ، أو بعبارة منه ، ولا زيادة فيه ، وانما هي تلتقي به بعنوان أو بأخر ، ووظيفة الفكر أو النظر جعلها ذات نسب يربطها به ، وهو القياس أو غيره من الروافد ، وفي هذا المحيط كان الفكر والنظر ، والاجتهاد والاضافة . والنبي صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الأول لهذه الأمة لم يكن يحظر على أصحابه رضوان الله عليهم شيئاً من ذلك ، وانما كان يفتح لهم الآفاق . ويشجعهم على البحث والتأمل ، والنظر والاعتبار ، ويسترشدهم بهم ويشاورهم ، ويغريهم أن يقبلوا الأمور على وجوهها ، وكانوا يعترضون عليه ، وكان هو من ناحيته يتقبل منهم ذلك ، لأنه من غير شك المعلم والمربي الذي يود أن ينشأ تلاميذه وفيهم حرية الرأي في فهم الأشياء . وعدم أخذها دون الأدعان لها ، والاطمئنان إليها . كما حدث ذلك في أسارى بدر ، وفي مشروعية الأذان للصلاة ، وفي الصلاة على رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل لواء المعارضة ، وكان الوحي كثيراً ما يوافق . وكان ذلك - كما قلنا - من النبي صلى الله عليه وسلم تدريجاً لأئمة على الانطلاق والتحرر ، وأن يكون لهم مصباح من الرأي يضيء لهم الدرب في شئون الدين والدنيا على السواء ، « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهو بذلك لا يطلب منهم أن يكونوا كاللبغاء التي تحكي ما تسمع من غير وعي وادراك دون أن تفهم له معنى ، أو تفقه له مغزى ، وانما يطلب التدبر ، بعنوان أن الغاية من التكاليف جلب المصلحة ودرا المنفعة ، والمجتهد لا يجهد عن هذا الغرض بحال من الأحوال . وفي القرآن الكريم ما يشبهه أن يكون معالم للانطلاق الى هذا التحرر من الجمود ، وذلك مثل قوله سبحانه « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » وقوله « ولكم في القصص حياة » وقوله « وما جعل عليكم في الدين من حرج » كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان هذا الدين يسر لا عسر » وقوله « لا ضرر ولا ضرار » وجاء عن الفقهاء عبارات تناقلها الناس عنهم يمكن أن تكون مبادئ كقولهم « اليقين لا يزول بالشك » أو قولهم « الأمور بمقاصدها » وقولهم « مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الواحد » وكانت هذه كلها منارات أضاءت الطريق ، وكشفت للعالم ، على أن هذا التجديد لون من ألوان حرية الرأي التي هي مترتبة على حرية النفس التي يحارب المرء من أجلها . ويموت في سبيلها . ويجب ألا ننسى - مع ذلك - أن هنالك مناطق محرمة ليس من حق الباحث أو المجتهد أن يتناولها بعض التنازل أو كله برأيه ، لأنها مأخوذة على علاتها ، وذلك مثل وحدانية الله ، وإرسال الرسل ، وفرضية الصلاة ، وعذاب القبر ، والإيمان باليوم الآخر ، أما ماسواها من فروع المسائل التي لم تثبت بنص قاطع كعمران

الأرض ، واستغلال الطاقة ، وتخطيط المدن ، وإدارة الأعمال ، مما هو خاضع للرأى والفكر . والكياسة والعقل ، فانه لا بأس أبداً لأن تكون مجالاً لاختلاف وجهات النظر ، والقبول والرفض ، على ضوء التأمل والاعتبار ، ولا يستطيع انسان أن ينكر أن ذلك كان موجوداً بين المسلمين حتى مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو صاحب فصل الخطاب فيه ، « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علمه » وما كان موقفهم بعد أن اختار الله رسوله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى وهم ينشدون من يملأ هذا الفراغ ليسوس أمورهم ، ويرأب ما عسى أن يكون هنالك من صدع ، الا لونا من ذلك ، وصورة واضحة له ، وقد سموا هذا الرجل الذى اختاروه خليفة ، وتوالى الأمر بعده لعمر وعثمان وعلى ، فى حين أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل بهذا الأسلوب ولا نص عليه ، وإنما هو تفكير المسلمين ورأىهم الذى واجهوا به الأحداث ، وقضوا به على الفتن ، وكان لكل واحد من هؤلاء كياسة وسياسة انفراد بها ، وصارت دستورا للمسلمين من بعده ، وقد جمع أبو بكر القرآن ، وقاتل المرتدين ، وجاء بعده عمر وكان له رأى ، وصدرت عنه أحكام ، وهكذا كان عثمان وعلى ، والمسلمون كلهم على طول المدى كانوا يصادفون قضايا لم يقفوا أمامها جامدين ، ولم يرضوا بهذه الغفوة التى تصيب المغلوبين على أمرهم ، والذى يلم بعض الامام بهذا التراث الذى تركوه ، يرى أن التدهامى منهم كانوا يسمون بالسلف ، وأن الذين جاؤا بعدهم كانوا يسمون بالخلف ، ويمتاز أولئك الخلف أو المحدثون بأنهم كانوا أصحاب اجتهاد ورأى ، وأنهم لم يكونوا جامدين ، ولم يقفوا أمام النصوص دون أن يقلبوها على وجوهها ليعرفوا ماذا تعنى ، وقد زخرت صحائف التاريخ الاسلامى بالطوائف والفرق ، أو الأحزاب والجماعات التى كانت تتبادل الآراء . وتتصارع على الأفكار . مثل المعتزلة وأهل السنة ، والجبرية وغيرهم . وربما كانت رسائل إخوان الصفا التى بين أيدينا شاهداً من هذه الشواهد ، ومنذ كان العصر العباسى واختلط المسلمون بالفرس ، وأخذوا عنهم الفلسفة والمنطق ، والرحى تدور على الجدل والمناظرة ، والبحث عن حقائق الأشياء . وليس بصحيح ما يقوله اقبال من أن هذه النزعة انما كان الفضل فيها لرجال التصوف الذين أوجدوها بعد أن لم تكن ، ونحن نستطيع أن نسوق الأدلة على أن هذا الرأى غير صحيح ، وأن الانسان منذ تطلع الى الوجود فكر ونظر ، وبحث وتأمل ، وحاول أن يعرف ، وأن يربط الأسباب بالمسببات . ولم يرض أن يكون متخلفاً فى معنى من المعانى التى تصل به الى جديد فى علمه . وطريف فى رأيه ، وكان يعمل دائماً أبداً على أن يضيف الى ما يكتسبه آخر وآخر ما دامت فيه القدرة على التحصيل ، وليس أدل على ذلك من تلك القصة الطريفة التى ذكرها القرآن الكريم على شكل حوار دار بين موسى عليه السلام والخضر رضى الله عنه ،

اذ قال له موسى « هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال استجديني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا قال فان اتبعته فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » ومضيا بعد ذلك في طريقهما على أن موسى ملتزم بعهد الذي أخذه على نفسه ، لا يتجاوز ولا يخيس فيه ، ولا يناقش مسألة أو يطلب عنها ايضاحا أو تعليقا الا بعد الفراغ من المسيرة ، والانتهاء من الرحلة . وحين يجيء دورها بين أخواتها من المسائل ، وكان المفروض في وعد وعد به موسى أن يقف به ، الا أننا رأيناه يتحلل منه ، ويخرج عليه ، وكان ذلك محلا للغرابة ، وسببا من أسباب الدهشة ، لأن الشأن في الكلمة أن تملك صاحبها . وأن تكون عهدا مستثلا ، ولا سيما حين تكون صادرة عن رجل لا ينزل الى مرتبة السوق ، وهو رسول يأخذ الناس منه ، وينقلون عنه ، الا أن موسى الذي نتصوره على هذا الوجه ، طغى عليه تلك البشرية التي جعلته يخرج على الثقاليين ، ويخالف الأوضاع ، طلبا للعلم ، ونزوعا الى المعرفة ، وحرصا على أن يزيل عن نفسه غشاوة الجهل ، ووصمة هذا التخلف ، الذي لا يليق بحملة المشاعر ، وطفى عليه كذلك نهمه الى الانطلاق ، وحبه للمعرفة ، وشغفه الى المزيد ، فسأل وألح في السؤال مكتفيا وهو يتجاوز الحد لما عاهد عليه صاحبه بهذا الاعتذار « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا » ولم يكن هو نسيانا واحدا ، ولا اعتذرا واحدا كذلك ، وانما هو انسياق في هذا المدي ، وتكرار لتجاوز الحد ، وتكرار للاعتذار ، ويكتفي هذا المتجاوز بما يكرره « لا تؤاخذني بما نسيت » حين يقول له صاحبه « انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » . وقديما كانوا يقولون منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال . . . ولما كان العقل أو الوعي ، والادراك والمعرفة ، والنظر والتأمل ، وما يرادفها من الأمور التي لا تجيء من غير احاطة واستقصاء ، وفقه وفهم ، لها هذه المكانة ، وذلك التقدير ، رأيناه جل وعلا قد جعل غرائز بني آدم توافة الى هذا التطلع . وذلك البحث أو الكشف . ولا ترضى بالوقوف عند حد . وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا الى طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفي الحديث كذلك ما يفيد أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع . وهنالك معنى وراء ذلك كله قلما يفتن اليه كثيرون من الناس وهو تلك السعادة التي يحس بها الطالب وهو يضيف الى رصيده جديدا من الوعي والادراك ، وهو يخلق في هذا الجو الواسع الذي يشبه جو الشعراء وهم يخلقون في ملكوت السماوات والأرض بحثا عن حكمة ضالة ، أو حقيقة ضائعة . وهكذا يعيش في هذا البرج العاجي أرباب الآراء ، وأصحاب الأفكار ،

والباحثون عن الجديد من المعاني ، أو الطريف من الأشياء ، والخير لا يواتي
الا من يطلبه ، ولا يتاح الا لمن يسعى اليه ، والأئمة الذين مهدوا الطريق ،
وعبدوا السبل ، كم تحملوا من ادمان السهر ، واقتراس المدر ، وكثرة
السفر ، وطول النظر ، ومطاردة الضجر ، وعلى من يجعلون من نفوسهم
أهدافا لهذه المهمة أن يكونوا هكذا دأبا ونصبا . وكذا وتعبا وما كان المجد
فى وقت من الأوقات نكرة شائعة ، ولا طاقة ضائعة ، وانما هو انسان
دخل فى التاريخ من أوسع أبوابه ، اذ وصل روحه بالحقيقة ، وقلبه
بالمعرفة ، ونفسه بالطلب ، فاستطاع أن ينشر الضياء ، ويملاً مصباحه
بالزيت ، ولقد كان المرجح الذى فضل الله به آدم على الملائكة وجعل له
الخلافة من دونهم انما هو العلم . وكان أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم يسألونه . ولا يجد هو غضاضة فى اجابتهم لما يعرفه من ذل
الجهل ، وعدم المعرفة ، وهكذا كان النزوغ الى التجديد ، والميل اليه ،
أو الحب له ، تسبقه هذه الارهاصات التى تبدو فى البحث والكشف
وطلب المعرفة ، ومن هنا فاننا لا نتردد اذا قلنا انه كان كذلك على طول
المدى . وبه انتقل العرب من عبادة الكواكب والأصنام الى عبادة اللطيف
الخبير ، ويقول سبحانه « هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون »
ونحن لو تصورنا الحياة الأولى للاسلام فى بادىء أمرها حيث كان المسلمون
فى قلة من العدد . وضآلة من الموارد ، وضيق من رقعة الأرض ، وخلو
من العلم والمعرفة ، نستطيع أن نقول انها كانت بسيطة لا تعقيد فيها .
واضحة لا يكتنفها شيء من الغموض . وأن رجلا واحدا هو النبى صلى
الله عليه وسلم كان يدير شئونها ، ويسوس أمورها فى الدين والدنيا
فى آن واحد ، يبصرهم بحدود الله فى الحلال والحرام . ويقود الجيوش .
ويصد العدوان ، ويوطد دعائم الحق والعدل ، فلما زاد عدد المسلمين ،
وفتحت الأمصار ، وزرع الأعمال بين أصحابه . فهؤلاء يكتبون له الوحي
وأولئك يعلمون القرآن وآخرون للفتيا والقضاء ، وغيرهم للغزوات
والفتوح ، وهو مع ذلك كله ربان السفينة من غير خلاف ، لكنه وهو فى
هذه المنزلة من الله ومن المسلمين ، وله هذا الاتصال بالسماء . لم يستبد
كل الاستبداد بالأمور ، وانما كان أصحابه من حوله جوارحه النابضة ،
وشعوره الفياض . واحساسه المتيقظ ، يتلقى آراءهم ، ويحترم أفكارهم .
ويقول « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وربما حوله بعضهم
عن رأيه أو اجتهاده واستقبل هو ذلك بالرضا والارتياح ، والذين يقولون
ان الاسلام قضايا محدودة ، ومسائل معدودة . أو أقوال متوارثة .
لا يستطيعون أن ينكروا ما جده فيه من فهم ، وما أضيف اليه من علم ،
وما زاد فى رصيده من رأى ، وأنه كان يتجاوب مع الحوادث . ويسابق
الأيام ، ويسير مع عجلة الزمن ، من غير كساح ولا مرض ، وقد صح

أنه بعد أن اتسعت الفتوح • وانتقل من انتقل الى تلك البلاد طلبا للرزق
 وجريا وراء لقمة العيش ، وظل بمكة والمدينة حفظة أحاديث رسول الله
 صلى الله عليه وسلم • وبخاصة هؤلاء المعروفين بالفتوى ، وانقطعت صلة
 أهل هذه البلاد المفتوحة بهم أنهم كانوا يقتضون الأذهان ، ويعملون
 الفكر ، ليصلوا الى حكم الله في المشاكل أو المسائل • وحينئذ كان
 التشريع الاسلامي له اتجاهان ما كان عنهما مقر ، اتجاه أهل الحديث
 الذين لا يجيدون عن النص قيد أنملة ، واتجاه هؤلاء الذين لم يجودوا
 مندوحة عن الرأي ينتفعون به ، أو يحتكمون اليه ، وقد ألف الناس ذلك
 ولم يرفضوه • وهكذا كان فيما بينهم مدرستان للفتوى في الأحكام •
 مدرسة أهل الحديث ، ومدرسة أهل الرأي • على أن أهل الرأي ليسوا
 كما يعطى ظاهر اللفظ من الهوى والميل أو الغرض دون ايمان فكر وتأمل ،
 ونظر وتعقل • ولكن الرأي عندهم دقة فهم ، وحسن تأمل ، وعميق
 دراسة ، وإطالة تفكير ، واجتهاد صحيح في فهم الأمور فهما يربطها كل
 الربط بالكتاب والسنة ، على أن تكون الغاية من قبيل ما تعارف عليه
 العلماء من كونه جلب مصلحة أو درأ مفسدة ، ولا ينكر أحد على أهل
 الرأي أنهم كانوا كذلك ، تجديدا في الفكر ، وإثراء للفقهاء ، وزيادة غير
 منكورة في رصيد العقل •• وإذا صح هذا الحديث الذي يباليخ السيوطي
 في نفى تهمة الضعيف عنه • وهو أن الله يبعث على رأس كل مئة سنة
 من يجدد للناس أمور دينهم • فإن مسألة التجديد في الدين والرأي تكون
 من الأمور المسلمة التي لا يمارى فيها أحد ، لأن مدرسة أهل الرأي هذه
 هي تلك الصورة التي تخلف عنها الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل
 الاجتهاد • والثروة العظمى التي أخذها المسلمون من الكتاب والسنة
 لا يمارى فيها انسان ومن أجل ذلك فنحن حينما نقول ان في شريعتنا
 من الخصوبة والمرونة ما يطاوعها على الاستجابة كل الاستجابة لمطالب
 النهوض والرقى • والتقدم والعمران • ويشهد على أنها على جانب عظيم
 من الثراء والغنى ، لم تكن ندعيا دعوى مجردة عن الدليل ، لأن شريعة
 محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن أبدا تراثا باليا ، ولا مخلفات حروب
 فاشلة • وهي صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، هذا ولا يفوتني
 وأنا أتحدث هذا الحديث عن التجديد في الفكر الاسلامي أن أنبه الى أن
 ذلك لم يكن كالأرباحا يغشاه كل ما هب ودب - كما يقولون - وإنما هو
 عمل الخاصة من أهل العلم الذين سبهم القرآن الكريم أهل الذكر ،
 وسبهم أرباب المعرفة أهل الحل والعقد • ممن تساعدهم ثقافتهم
 العربية ، وممارستهم لقضايا الشريعة الاسلامية أن يخوضوا هذا المضمار
 حتى لا يكونوا وبالا علينا وعلى الناس •

• د إبراهيم علي أبو الخشب

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	مقدمة الطبعة الثانية
١١	يارسول الله
١٧	محمد
٢١	نفسه الشريف
٢٥	الأعداد الالهى
٢٩	يتيم رعا الله
٣٥	عصامته
٣٩	اعتكافه
٤٣	قصة القراءة
٤٧	ما ودعك ربك
٥١	تبت يدا أبى لهب
٥٥	رجلان
٥٦	والله يا عمى
٦٣	البشارة به فى الكتب السابقة
٦٧	صراعه مع المشركين
٧٣	المعذبون
٧٧	المستهزئون
٨٢	التحدى الباطل
٨٩	الهجرة الى الحبشة
٩٢	الحصار الاقتصادى

الصفحة	الموضوع
٩٩	عام الحزن
١٠٣	مع ثقيف بالطائف
١٠٧	الاسراء والمعراج
١١٣	مبايعة العقبة
١١٩	هجرة الرسول
١٢٣	فى الطريق الى المدينة
١٢٧	فى المدينة
١٣١	تكوين الدولة
١٣٥	غليان القدر
١٣٩	شاكى السلاح
١٤٣	شبهات الحرب
١٤٩	اليهود فى الطريق
١٥٧	قبل غزوة بدر
١٦١	غزوة بدر الكبرى
١٦٥	طرف من بدر
١٦٩	غنائم الحرب
١٧٣	حديث أحد
١٧٩	قاتل حمزة
١٨٣	بين أحد والأحزاب
١٨٧	غزوة بنى المصطلق
١٩١	حديث الافك
١٩٧	غزوة الخندق أو الأحزاب
٢٠٣	قصة زينب
٢٠٩	الحديبية والرضوان
٢١٧	بعد الحديبية
٢٢٣	حديث أبى سفيان
٢٢٧	فتح مكة
٢٤٢	غزوة تبوك
٢٤٧	بعد تبوك
٢٥١	حجة الوداع
٢٥٧	أصحاب النبي
٢٦١	كلمة الختام

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٦٣/١٩٩٠

ISBN — 977 — 07 — 2611 — X

هذا كتاب جرى فيه القضاء على ان يكون سيره لسيد
الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . فكان ادبا بكل ما تحتمل
ظلمة الادب من معنى : وهذا عيبه ان صح ان يكون عيبا فليقره
القارئ واضعا في نفسه هذا الاعتبار ومن العناوين الاولى .
وهذه نبذة من هذه الكتابه . وهكذا جد من البهجه
والرضا . والسرور والفرح . والغبطة والسعادة . والامل
والارتياح . والحب والود . والاقبال والقبول . لينسى صلى الله
عليه وسلم شدائد التي كانت : وكروبته التي قضت . وهو
ما بين الاحتفال بثنائه . والعناية بامره . والاهتمام بشخصه .
والوعود التي تضحك في وجهه . والرعاية التي تحيط به من كل
جانب في جنه عرضها كعرض السماوات والارض .
لكنه صلى الله عليه وسلم الى هذه اللحظة . كأنما كان يقف
وحده في الميدان
اليس هذا هو الادب بعينه . او قريبا منه . انا اقول ذلك !!